اعتبار أولي الأبصار بسيرة سيد الأبرار ﷺ

(القسم الأول)

تأليف

د . ياسين محمود عبد القادر علي

مدرس الحديث وعلومه بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

تحت إشراف

أ . د . البسيوني مصطفى الكومي

أستاذ الحديث وعلومه بالكلية

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

مقدمة

في

أهمية دراسة السيرة لدى المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)(١)
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) (٢) .
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً - يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) (٣) ، (٤) .

وبعد ....

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار (٥) .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٠٢) .
(٢) سورة النساء : آية (١) .
(٣) سورة الأحزاب : آية (٧٠ ، ٧١) .
(٤) خطبة الحاجة أخرجها أبو داود في النكاح / باب : في خطبة النكاح ٢/ ٢٤٥ ح ٢١١٨ ، والترمذي واللفظ له في النكاح / باب : ما جاء في خطبة النكاح ٢/ ٤٠٤ ح ١١٠٥ ، وقال : حسن صحيح ، والنسائي في النكاح / باب : ما يستحب من الكلام عند النكاح ٦/ ٨٩ عن عبد الله بن مسعود ﷺ .
(٥) أخرجه النسائي في الصغرى في صلاة العيدين / باب : كيف الخطبة ٣/ ١٨٨ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

إن المسلم في أي مكان وفي أي زمان يرتبط بسيرة نبيه ﷺ ، ارتباطاً وثيق الصلة بالناحية العقدية عنده ، فهو ﷺ مصدر القدوة والأسوة لدى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مصداقاً لقوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (١) .

يقول الحافظ ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب ، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال: { لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } (٢) .

" إنّ النّبي ﷺ خير نموذج لكم ، لا في هذا المجال وحسب ، بل وفي كلّ مجالات الحياة ، فإنّ كلاً من معنوياته العالية ، وصبره واستقامته وصموده ، وذكائه ودرايته ، وإخلاصه وتوجّهه إلى الله ، وتسلّطه وسيطرته على الحوادث ، وعدم خضوعه وركوعه أمام الصعاب والمشاكل ، نموذج يحتذي به كلّ المسلمين. إنّ هذا القائد العظيم لا يدع للضعف والعجلة إلى نفسه سبيلاً عندما تحيط بسفينته أشدّ العواصف ، وتعصف بها الأمواج المتلاطمة ، فهو ربّان السفينة ، ومرساها المطمئن الثابت ، وهو مصباح الهداية ، ومبعث الراحة والهدوء والاطمئنان الروحي لركابها. إنّه يأخذ

---

(١) سورة الأحزاب : آية (٢١) .

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ٦٢١/٣ ط/دار الريان للتراث . القاهرة .

المعول بيده ليحفر الخندق مع بقيّة المؤمنين ، فيجمع ترابه بمسحاة ويخرجه بوعاء معه ، ويمزح مع أصحابه لحفظ معنوياتهم والتخفيف عنهم ، ويرغّبهم في إنشاد الشعر الحماسي لإلهاب مشاعرهم وتقوية قلوبهم ، ويدفعهم دائماً نحو ذكر الله تعالى ويبشّرهم بالمستقبل الزاهر والفتوحات العظيمة. يحذّرهم من مؤامرات المنافقين ، ويمنحهم الوعي والاستعداد اللازم .

ولا يغفل لحظة عن التجهيز والتسلّح الحربي الصحيح ، وانتخاب أفضل الأساليب العسكرية ، ولا يتوانى في الوقت نفسه عن اكتشاف الطرق المختلفة التي تؤدّي إلى بثّ التفرقة وإيجاد التصدّع في صفوف الأعداء. نعم.. إنّه أسمى مقتدى ، وأحسن أسوة للمؤمنين في هذا الميدان ، وفي كلّ الميادين. " الأُسوة " تعني في الأصل الحالة التي يتلبّسها الإنسان لدى إتباعه لآخر، وبتعبير آخر: هي التأسّي والإقتداء ، وبناءً على هذا فإنّ لها معنى المصدر لا الصفة ، ومعنى جملة: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } هو أنّ لكم في النّبي ﷺ تأسّياً وإقتداءً جيّداً ، فإنّكم تستطيعون بالإقتداء به وإتباعه أن تصلحوا أموركم وتسيروا على الصراط المستقيم. والطريف أنّ القرآن الكريم يعتبر هذه الأسوة الحسنة في الآية أعلاه مختّصة بمن لهم ثلاث خصائص : الثقة بالله ، والإيمان بالمعاد ، وأنّهم يذكرون الله كثيراً "(١)

يقول ابن القيم تحت عنوان : اضْطِرَارُ الْعِبَادِ إِلَى مَعْرِفَةِ الرّسُولِ ﷺ .

وَمِنْ هَاهُنَا تَعْلَمُ اضْطِرَارَ الْعِبَادِ فَوْقَ كُلّ ضَرُورَةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ الرّسُولِ وَمَا جَاءَ بِهِ، وَتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَ ، فَإِنّهُ لاَ سَبِيلَ إِلَى السّعَادَةِ وَالْفَلاَحِ لاَ فِي الدّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ إِلاّ عَلَى أَيْدِي الرّسُلِ ، وَلاَ سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الطّيّبِ وَالْخَبِيثِ عَلَى التّفْصِيلِ إِلاّ مِنْ جِهَتِهِمْ ، وَلاَ يُنَالُ رِضَا اللّهِ الْبَتّةَ إِلاّ عَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَالطّيّبُ مِنْ الأَعْمَالِ

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل تأليف : ناصر مكارم الشيرازي ١٣/١٩٧، ١٩٨ .

وَالأَقْوَالِ وَالأَخْلاَقِ لَيْسَ إِلاَّ هَدْيَهُمْ ، وَمَا جَاءُوا بِهِ ، فَهُمْ الْمِيزَانُ الرَّاجِحُ الَّذِي عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَأَخْلاَقِهِمْ تُوزَنُ الأَقْوَالُ وَالأَخْلاَقُ وَالأَعْمَالُ ، وبمتابعتهم يَتَمَيَّزُ أَهْلُ الْهُدَى مِنْ أَهْلِ الضَّلاَلِ ، فَالضَّرُورَةُ إِلَيْهِمْ أَعْظَمُ مِنْ ضَرُورَةِ الْبَدَنِ إِلَى رُوحِهِ، وَالْعَيْنِ إِلَى نُورِهَا ، وَالرُّوحِ إِلَى حَيَاتِهَا ، فَأَي ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ فُرِضَتْ فَضَرُورَةُ الْعَبْدِ وَحَاجَتِهِ إِلَى الرُّسُلِ فَوْقَهَا بِكَثِيرٍ . وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ إِذَا غَابَ عَنْكَ هَدْيُهُ وَمَا جَاءَ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَسَدَ قَلْبُكَ وَصَارَ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ وَوُضِعَ فِي الْمِقْلاَةِ ، فَحَالُ الْعَبْدِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ قَلْبِهِ لِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ كَهَذِهِ الْحَالِ بَلْ أَعْظَمُ وَلَكِنْ لاَ يُحِسّ بِهَذَا إِلاَّ قَلْبٌ حَيّ

* وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلاَمُ *

وَإِذَا كَانَتْ سَعَادَةُ الْعَبْدِ فِي الدَّارَيْنِ مُعَلَّقَةً بِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ ، وَأَحَبَّ نَجَاتَهَا وَسَعَادَتَهَا ، أَنْ يَعْرِفَ مِنْ هَدْيِهِ وَسِيرَتِهِ وَشَأْنِهِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَنْ الْجَاهِلِينَ بِهِ ، وَيَدْخُلُ بِهِ فِي عِدَادِ أَتْبَاعِهِ وَشِيعَتِهِ وَحِزْبِهِ ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا بَيْنَ مُسْتَقِلٍّ وَمُسْتَكْثِرٍ وَمَحْرُومٍ ، وَالْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١) .

إذاً فالإقتداء والتأسي بالنبي ﷺ لا يقتصر على جانب دون جانب آخر ، بل في جميع جوانب الحياة ، ولقد ركز القرآن الكريم في معظم آياته على طاعته وتوقيره والأخذ بقوله وعدم رفع الصوت فوق صوته والتأدب معه ﷺ وهذه الأمور من المقومات الأساسية في الإقتداء به ﷺ .

فدراسة سيرة النبي ﷺ من المهمات الأساسية في حياة المسلم لأخذ العبرة والتأسي والإقتداء به ﷺ .

ودائماً يحرص المسلم الصادق الإيمان قوى العقيدة أن يستفيد من مواقف النبي ﷺ في الأمور الدينية والدنيوية ، يستفيد من أخلاقه وأدبه وتعامله وعبادته .

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١٥/١ .

ويضيف د. محمد سعيد رمضان البوطي : إن دراسة السيرة النبوية ليست سوى عمل تطبيقي يراد منه تجسيد الحقيقة الإسلامية كاملة في مثلها الأعلى محمد ﷺ

ويوضح الأهداف الرئيسية من دراسة السيرة فيقول : إن من الممكن حصرها في الأهداف الآتية :

١- فهم شخصية الرسول ﷺ من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها ، للتأكد من أن محمداً ﷺ لم يكن مجرد عبقري سمت به عبقريته بين قومه ، ولكنه قبل ذلك رسول أيده الله بوحي من عنده وتوفيق من لدنه .

٢- أن يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة ، كي يجعل منها دستوراً يتمسك به ويسير عليه ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في ناحية من نواحي الحياة فإنه واجد كل ذلك في حياة رسول الله ﷺ على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال .

٣- أن يجد الإنسان في دراسة سيرته ﷺ ما يعينه على فهم كتاب الله تعالى وتذوق روحه ومقاصده ، إذ إن كثيراً من آيات القرآن إنما تفسرها وتجليها الأحداث التي مرت برسول الله ﷺ ومواقفه منها .

٤- أن يجتمع لدى المسلم من خلال دراسة سيرته ﷺ أكبر قدر من الثقافة والمعرفة الإسلامية الصحيحة ، سواء ما كان منها متعلقاً بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق ، إذ لا ريب أن حياته ﷺ إنما هي صورة مجسدة نيرة لمجوع مبادئ الإسلام وأحكامه .

٥- أن يكون لدى المعلم والداعية الإسلامي نموذج حي عن طرائق التربية والتعليم ، فلقد كان محمد ﷺ معلماً ناصحاً ومربياً فاضلاً لم يأل جهداً في تلمس أجدى الطرق الصالحة إلى كل من التربية والتعليم خلال مختلف مراحل دعوته .

وإن من أهم ما يجعل سيرته ﷺ وافية بتحقيق هذه الأهداف كلها أن حياته ﷺ شاملة لكل النواحي الإنسانية والاجتماعية التي توجد في الإنسان من حيث إنه فرد مستقل بذاته أو من حيث إنه عضو فعال في المجتمع .

فحياته ﷺ تقدم إلينا نماذج سامية للشاب المستقيم في سلوكه ، الأمين مع قومه وأصحابه ، كما تقدم النموذج الرائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، الباذل منتهى الطاقة في سبيل إبلاغ رسالته ، ولرئيس الدولة الذي يسوس الأمور بحذق وحكمة بالغة ، وللزوج المثالي في حسن معاملته ، وللأب في حنو عاطفته ، مع تفريق دقيق بين الحقوق والواجبات لكل من الزوجة والأولاد ، وللقائد الحربي الماهر والسياسي الصادق المحنك ، وللمسلم الجامع بين واجب التعبد والتبتل لربه ، والمعاشرة الفكهة مع أهله وأصحابه .

لا جرم إذن أن دراسة سيرة النبي ﷺ ليست إلا إبرازاً لهذه الجوانب الإنسانية كلها مجسدة في أرفع نموذج وأتم صورة (١) .

---

(١) فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطي ص : ١٥ ، ١٦ .

عرض تاريخي للمؤلفات في السيرة

تاريخ التأليف في السيرة :

يعد التأليف في السيرة وثيق الصلة بالتأليف في سنته ﷺ ، وإن كان قد اشتهر عند العامة أن التأليف في السنة متقدم علي التأليف في السيرة ، ولكن إذا نظر الباحث بعين الفاحص المدقق لا يجد ثمة فرقاً كبيراً بين السنة والسيرة فمعظم سيرة النبي ﷺ مأخوذة عن طريق السنة التي دونها الأئمة في كتبهم إلى أن استقل التأليف في السيرة على وجه الخصوص فعرفت مؤلفات تحمل اسم السيرة صراحة وعرف المؤلفين فيها باسم علماء السيرة ، أو السير .

المؤلفات في السيرة :

كثرت المؤلفات في السيرة كثرة غير عادية ، وأخذت أشكالاً عديدة ، وتناول مؤلفوها جميع الجوانب الحياتية للنبي ﷺ فمنهم من سمي مؤلفه بالسيرة صراحة ومنهم من سماه بالشمائل ، ومنهم من سماه بالمغازي ، ومنهم من سماه بالخصائص .

ذكر الكتب التي سميت باسم السيرة صراحة :

هذا النوع من المؤلفات الحديثية التي نالت اهتماماً كبيراً من العلماء ، وكان رائدهم في هذا الشأن محمد بن إسحاق المطلبي المتوفى سنة (١٥١هـ) ، وأصبح كلامه محتجاً به عند علماء السير ، وعن التأليف في هذا النوع ذكر محمد بن جعفر الكتاني في الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة : أن أول كتاب ألف في السيرة هو كتاب :

١- **السيرة لأبي بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري المدني نزيل الشام أحد الأعلام التابعي الصغير المتوفى سنة (١٢٤هـ)**

أربع وعشرين ومائة القائل : ما استودعت قلبي شيئا قط فنسيه قال بعضهم : أول سيرة ألفت في الإسلام سيرة (الزهري) أ.هـ .

٢- **السيرة لأبي بكر وقيل : أبي عبد الله : محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي مولاهم المدني** ، نزيل العراق ورئيس أهل المغازي المتوفى : ببغداد سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث وخمسين ومائة ، والأول أصح قال (الذهبي) : كان أحد أوعية العلم حبراً في معرفة المغازي والسير ، وليس بذاك المتقن فانحط حديثه عن رتبة الصحة ، وهو صدوق مرضي (١) أ.هـ

وهي التي هذبها (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري المصري) المتوفى بها : سنة (٢١٨هـ) ثمان عشرة ومائتين فصارت تنسب إليه ، رواها عن (زياد بن عبد الله البكائي) (٢) عنه .

و(لأبي زيد عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد السهيلي) نسبة إلى سهيل قرية قرب مالقة سميت (سهيل باسم الكوكب لأنه لا يرى في جميع بلاد الأندلس إلا من جبل مطل على هذه القرية ، يرتفع نحو درجتين ويغيب) الخثعمي الأندلسي المالقي الأعمى صاحب التصانيف المتوفى : بمراكش سنة (٥٨١هـ) إحدى وثمانين وخمسمائة كتاب (الروض الأنف) بالفاء كعنق في شرح غريب ألفاظها وإعراب غامضها وكشف مستغلقها في أربع مجلدات ، ذكر فيه أنه استخرجه من مائة وعشرين مصنفاً ، فأجاد فيه وأفاد واختصره (بدر الدين) أو (عز الدين محمد بن أبي بكر بن عز الدين بن جماعة الكناني) المتوفى سنة

---

(١) تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي ١/ ١٧٣ ترجمة رقم ١٦٧

(٢) أبو محمد زياد بن عبد الله البكائي العامري الكوفي صاحب المغازي. وهو أوثق الناس في ابن إسحاق . توفى سنة (١٨٣هـ) ثلاث وثمانين ومائة . العبر في خبر من غبر للحافظ الذهبي ٥٣/١ .

(٧٦٧هـ) سبع وستين وسبعمائة ، وسماه (نور الروض) وعليه حاشية (لشرف الدين) قاضي القضاة بمصر وشيخ الإسلام بها (يحيى بن محمد بن محمد بن محمد المناوي) بضم الميم المتوفى : سنة (٨٧١هـ) إحدى وسبعين وثمانمائة جردها سبطه (زين العابدين عبد الرؤوف المناوي)

٣- **السيرة لأبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد (الواقدي) نسبة إلى جده واقد المذكور الأسلمي مولاهم وقيل : أنه مولى بني هاشم الحافظ المتروك مع سعة علمه المتوفى : ببغداد وهو يومئذ قاض بها سنة ست أو سبع أو تسع ومائتين**

٤- **السيرة لأبي حفص عمر بن محمد الموصلي** المعروف (بالملائي) لكونه كان يملأ الماء من بئر في جامع الموصل احتسابا وكان إماماً عظيماً ناسكاً زاهداً في زمن السلطان (نور الدين الشهيد) وكان السلطان المذكور يشهر قوله ويقبل شفاعته لجلالته .

٥- **السيرة للحافظ محب الدين أبي العباس أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري المكي الشافعي** فقيه الحرم ومحدث الحجاز المتوفى : سنة (٦٩٤هـ) أربع وتسعين وستمائة يروى فيها أحاديث بأسانيده ، ويسمى (خلاصة سير سيد النبيين) جمعه من اثني عشر مؤلفا .

٦- **السيرة لأبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الأندلسي الأصل المصري الشافعي** أحد الأعلام الحفاظ المتوفى : سنة (٧٣٤هـ) أربع وثلاثين وسبعمائة . وهي المسماة : (**بعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**) وهو كتاب معتبر جامع لفوائد السير من أحسن ما ألف فيها في مجلدين ، غير أنه أطال بذكر الإسناد ، ومن ثم اختصرها وهي المسماة : (**بنور العيون في تلخيص سيرة الأمين المأمون**) مختصرة من الكبرى ، وعلى (الصغرى) تعليقة (لبرهان الدين إبراهيم بن محمد بن خليل

الحلبي) سبط (ابن العجمي) وهي المسماة : (**نور النبراس في شرح سيرة ابن سيد الناس**) .

٧- **الدرر في اختصار المغازي والسير** لأبي عمر بن عبد البر .

٨- **زاد المعاد في هدى خير العباد** لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي المعروف : (بابن قيم الجوزية) الحنبلي المتوفى : سنة إحدى وخمسين وسبعمائة في مجلدين ويوجد في ثلاثة .

٩- **الزهر الباسم في سيرة المصطفى أبي القاسم** للحافظ علاء الدين مغلطاي واختصارها له أيضا وهو المسمى : (**بالإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا**) .

١٠- **السيرة السيرية في شمائل خير البرية** للذهبي .

١١- **السيرة الكبرى** لعز الدين أبي عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة والصغرى له أيضا .

١٢- **السيرة** لشرف الدين أبي محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ، بإهمال الدال وبعضهم أعجمها ، نسبة : إلى دمياط بلد مشهور بمصر قال (المزي) : ما رأيت في الحديث أحفظ منه .

١٣- **السيرة** لقطب الدين مفتي الديار المصرية الحافظ أبي محمد عبد الكريم بن عبد النور بن منير بن عبد الكريم بن علي الحلبي ثم المصري الحنفي المعروف: (بابن أخت الشيخ نصر) المتوفى : سنة خمس وثلاثين وسبعمائة .

١٤- **السيرة** لنور الدين أبي الحسن علي بن إبراهيم بن أحمد بن علي الحلبي القاهري الشافعي المتوفى : سنة أربع وأربعين وألف . سماها : (**إنسان العيون**

في سيرة الأمين المأمون) في ثلاث مجلدات لخصها من (سيرة أبي الفتح بن سيد الناس) .

١٥- السيرة للحافظ ابن حجر .

١٦- **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في البدء والمعاد** لشمس الدين خاتمة المحدثين : محمد بن يوسف بن علي الشامي الدمشقي الصالحي نزيل القاهرة ، في نحو من أربع مجلدات ضخام أو أكثر ، رأيت أجزاء منها ، وهي من أحسن كتب المتأخرين في السيرة النبوية وأبسطها ، انتخبها من أكثر من ثلاثمائة كتاب ، وتحرى فيها الصواب ، وأتى فيها من الفوائد بالعجب العجاب ، وقد زادت أبوابه على سبعمائة ، وختم كل باب بإيضاح ما أشكل فيه ، مع بيان غرائب الألفاظ وضبط المشكل ، رتبها تلميذه (محمد بن محمد بن أحمد الفيشي المالكي) من مسودة المؤلف وغيرها على حذو مؤلفها ، وأول ذلك من أثناء السرايا فرغ منها : سنة إحدى وسبعين وتسعمائة .

ومن تأليف (الشامي) هذا (الآيات العظيمة الباهرة في معراج سيد أهل الدنيا والآخرة) رتبه على سبعة عشر باباً ، ثم ظفر بأشياء فألحقها وسماه : (الفضل الفائق) وغير ذلك ، وهو من تلاميذ (السيوطي) وكثيرا ما ينقل عنه في سيرته .

١٧- **الابتهاج في الكلام على الإسراء والمعراج** لنجم الدين أبي المواهب محمد بن أحمد بن علي بن أبي بكر السكندري ثم المصري الغيطي ، منسوب إلى غيطة العدة بمصر ، لأنه كان يسكن بها الشافعي المتوفى : سنة إحدى وثمانين وتسعمائة .

١٨- **الدرر السنية في نظم السيرة النبوية** لأبي الفضل العراقي وهي ألفية من الرجز وقد شرحها (عبد الرؤوف المناوي) شرحاً مبسوطاً ثم لخصه وسماه : (الفتوحات السبحانية) ثم شرحها أيضاً شرحاً ممزوجاً مفيداً مبسوطاً (أبو الأرشاد نور الدين : علي بن زين العابدين محمد عبد الرحمن بن علي الأجهوري المالكي) المتوفى : بمصر سنة ست وستين وألف في مجلدين ، ثم (الشيخ أبو عبد الله محمد الطيب بن عبد المجيد بن عبد السلام بن كيران الفاسي) المتوفى: سنة سبع وعشرين ومائتين وألف في مجلد ضخم .

ذكر من ألف في السيرة تحت اسم الشمائل ودلائل نبوته ﷺ :

وقد ألف في هذا النوع أئمة كبار ذكرهم الكتاني في الرسالة المستطرفة ككتاب :

١- **الشمائل** للترمذي ولأبي بكر المقري ولأبي العباس المستغفري .

٢- **كتاب الأنوار في شمائل النبي المختار** لأبي محمد : حسين بن مسعود البغوي رتبه على واحد ومائة باب على طريقة المحدثين بالأسانيد .

٥- **دلائل النبوة** لأبي نعيم الحافظ و(لأبي بكر البيهقي) وفيه يقول الذهبي: عليك به فإنه كله هدى ونور و(لأبي بكر الفرياني) و(لأبي حفص بن شاهين)

٦- **أعلام النبوة** لأبي داود السجستاني .

٧- **دلائل الرسالة** لأبي المطرف : عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس بن أصبغ القرطبي الحافظ وهو في عشرة أسفار .

٨- **دلائل الإعجاز** لأبي عوانة : يعقوب بن إسحاق الإسفرايني .

٩- **الوفا في فضائل المصطفى** لأبي الفرج بن الجوزي زادت أبوابه على خمسمائة في مجلدين .

١٠- **الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى** لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي نسباً ، نسبة إلى (يحصب بن مالك) قبيلة من حمير ، السبتي داراً وبلداً ، نسبة إلى سبتة مدينة مشهورة بالمغرب الأندلسي أصلاً المالكي مذهباً المتوفى : بمراكش سنة أربع وأربعين وخمسمائة ودفن بباب أيلان داخل المدينة وفيه أحاديث ضعيفة وأخرى قيل فيها : إنها موضوعة تبع فيها (شفاء الصدور) للخطيب أبي الربيع سليمان بن سبع السبتي ، ولم ينصف الذهبي في قوله : إنه محشو بالأحاديث الموضوعة والتأويلات الواهية الدالة على قلة نقده مما لا يحتاج قدر النبوة له أ.هـ فإنه تحامل منه لا ينبغي كما قاله غير واحد ، بل هو كتاب عظيم النفع ، وكثير الفائدة ، لم يؤلف مثله في الإسلام ، وقد جربت قراءته لشفاء الأمراض المزمنة ، وتفريج الكروب ، ودفع الخطوب ، شكر الله سعي مؤلفه ، وجازاه عليه بأتم جزاء وأعظمه آمين . وقد أفرد بعضهم الأحاديث المسندة فيه وهي ستون حديثا في جزء .

١١- **شرف المصطفى** لأبي سعيد (بكسر العين) عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الواعظ المتوفى : بنيسابور سنة ست وأربعمائة وهو في ثمان مجلدات ولمؤلفه في علوم الشريعة كتب .

١٢- **شرف المصطفى** لأبى سعد (بسكون العين) عبد الرحمن بن الحسن الأصبهاني .

١٣- **شرف المصطفى** لأبي الفرج بن الجوزي .

١٤- **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية** لشهاب الدين أبي العباس : أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد الخطيب القسطلاني المصري الشافعي

المتوفى : بمصر سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ودفن بمدرسة (العيني) قريباً من الجامع الأزهر في مجلدين ، وحاشيتها (لأبي الضياء نور الدين علي بن علي الشبراملسي نسبة إلى شبرا ككسرى مضافة إلى (ملس) بفتح الميم وشد اللام المكسورة مركبة تركيب مزج ، قرية بمصر القاهري الأزهري الشافعي المتوفى : سنة سبع وثمانين وألف ، قال في (كشف الظنون) : في خمس مجلدات ضخام وقال غيره : في أربع ، ولعلي القاري الحنفي ، وللشمس محمد ابن أحمد الشوبري الشافعي المصري المتوفى : سنة تسع وستين وألف ، ولإبراهيم بن محمد الميموني المصري الشافعي المتوفى : سنة تسع وسبعين وألف ، وشرحها للشيخ محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري المالكي في ثمان مجلدات .

١٥- **التنوير في مولد السراج المنير** للحافظ أبي الخطاب : عمر بن الحسن بن علي ابن محمد بن دحية الكلبي الأندلسي البلنسي ، نسبة إلى بلنسية مدينة في شرق الأندلس المتوفى : بالقاهرة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ودفن بسفح المقطم وله عدة تصانيف .

١٦- **الدر النظيم في مولد النبي الكريم** لابن طغر بك بضم الطاء والراء بينهما غين معجمة ساكنة وفتح الباء وسكون الكاف بعدها ، وهو الإمام العلامة المحدث : سيف الدين أبو جعفر عمر بن أيوب بن عمر الحميدي التركماني الدمشقي الحنفي صاحب (النطق المفهوم) ينقل عنه في (المواهب اللدنية) وتعرض له شارحها مراراً ولم يذكر وفاته و(النطق المذكور) يروي فيه أحاديث بأسانيد .

١٧- **جامع الآثار في مولد المختار** للحافظ شمس الدين : محمد بن ناصر الدمشقي وهو في ثلاث مجلدات .

١٨- **الوفا بما يجب لحضرة المصطفى - ﷺ -** للسيد الشريف نور الدين أبي الحسن : علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن علي الحسني السمهودي نسبة إلى سمهود لكونه ولد بها ثم المدني الشافعي المتوفى : بالمدينة المنورة سنة إحدى عشرة وتسعمائة وهو صاحب : (الوفا بأخبار دار المصطفى) وغيره .

١٩- **توثيق عرى الإيمان في تفضيل حبيب الرحمن** لشرف الدين أبي القاسم هبة الله بن عبد الرحيم البارزي لخصه من (الشفا) في مجلد .

ذكر من ألف في السيرة تحت اسم المغازي :

ألف تحت هذا الإسم مؤلفات كثيرة ترصد على الخصوص غزوات الرسول ﷺ وسراياه ومن أشهر ما ألف في هذا :

١- **المغازي** لمحمد بن إسحاق ، ولابن شهاب الزهري المدني ، ولأبي أيوب يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاصي الأموي الكوفي نزيل بغداد الملقب (بالجمل) المتوفى : سنة أربع وتسعين ومائتين ، ولأبي عبد الله محمد بن عمر ابن واقد الواقدي ، ولموسى بن عقبة بن أبي عياش القرشي مولاهم المدني التابعي الصغير المتوفى : سنة إحدى وأربعين ومائة ومغازيه أصح المغازي كما قاله تلميذه (مالك بن أنس) وقال (الشافعي) : ليس في المغازي أصح من كتابه مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره ، وقال (أحمد) : عليكم بمغازي (موسى بن عقبة) فإنه ثقة ، ولأبي محمد المعتمر بن سليمان التيمي البصري) أحد الأعلام المتوفى : سنة سبع وثمانين ومائة ولأبي عبد الله أو أبي أحمد محمد بن غائذ (بتحتانية ومعجمة في آخره) القرشي الدمشقي الحافظ الكاتب الثقة القدري المتوفى : سنة ثلاث أو أربع وثلاثين ومائتين ولغيرهم .

٢- **الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء** لأبي الربيع سليمان بن موسى ابن سليمان بن حسان الحميدي الكلاعي البلنسي ، الحافظ البارع العالم محدث الأندلس وبليغها ، المعتني بالحديث أتم عناية ، صاحب التصانيف العديدة المتوفى شهيداً : ببلد العدو في العشرين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وشرحه لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام البناني بفتح الباء وتشديد النون الفاسي المتوفى بها : سنة ثلاث وستين ومائة وألف في خمس أو ست مجلدات .

ذكر من ألف في السيرة تحت اسم الخصائص :

وهي من المؤلفات التي اهتمت ببيان خصائصه وفضائله ومناقبه ﷺ ، وهي كثيرة وفيرة من أشهرها :

١- **شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول وخصائصه** للإمام الخطيب أبي الربيع سليمان بن سبع (بضم الباء وإسكانها) السبتي .

٢- **الخصائص** لأبي الخطاب بن دحية الكلبي الأندلسي سماه : (**نهاية السول في خصائص الرسول**) جزآن في مجلد .

٣- **غاية السول في خصائص الرسول** لسراج الدين ابن الملقن .

٤- **اللفظ المكرم بخصائص النبي المحترم** لقطب الدين : محمد بن محمد بن عبدالله ابن خيضر الخيضري الشافعي .

٥- **الأنوار بخصائص النبي المختار** لابن حجر العسقلاني .

٦- **كفاية اللبيب في خصائص الحبيب** للسيوطي ذكر فيه : أنه تتبع هذه الخصائص عشرين سنة إلى أن زادت على الألف ، وهو في مجلدين ثم لخصه وسماه : (**أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب**) كما اختصره أيضا الشيخ (سيدي عبد الوهاب الشعراني) ، وعلى (الأنموذج) شرحان (لعبد الرؤوف المناوي) أحدهما : (فتح الرؤوف المجيب) وهو صغير والثاني : (توضيح فتح الرؤوف المجيب) وهو كبير في مجلد وكتب الخصائص والسير كثيرة (١)

هذا بالإضافة إلى كتب التاريخ فقد تكلمت عن سيرة النبي ﷺ وذلك مثل التاريخ الكبير للإمام الحافظ : محمد بن إسماعيل البخاري ، وتاريخ خليفة بن خياط ، وتاريخ الأمم والملوك للإمام : محمد بن جرير الطبري ، والمنتظم لابن الجوزي ، والكامل في التاريخ لابن الأثير ، وتاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي، والبداية والنهاية للحافظ ابن كثير، وغيرهم كثير .

كما اهتمت كتب الطبقات بالسيرة وافتتحها مؤلفوها بالسيرة النبوية وذلك مثل الطبقات الكبرى للحافظ محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وطبقات خليفة بن خياط وغيرها .

هذا بالإضافة إلى كتب السنة المختلفة من جوامع ومصنفات ومسانيد ومعاجم وغيرها .

هذا وقد طبع معظم هذه الكتب فلله الحمد والمنة .

---

(١) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة لمحمد بن جعفر الكتاني ص : ٧٨ : ٨٢ ، ١٤٧ : ١٥١ بتصرف . ط/ دار الكتب العلمية . بيروت .

إطلالة على تاريخ العرب قبل الإسلام

كانت شبه الجزيرة العربية تعيش إلى جانب قوتين ضاريتين تتنافسان وتتناحران فيما بينهما وهما دولتا فارس والروم ، وقد ذكر الله ذلك في افتتاح سورة الروم فقال تعالى : (الم - غُلِبَتِ الرُّومُ - فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ - فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ - بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ - وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (١) .

روى الترمذي بسنده عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ } قَالَ : **غُلِبَتْ وَغَلَبَتْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَذَكَرُوهُ لأَبِي بَكْرٍ ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ) فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ ، فَقَالُوا : اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلاً ، فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا ، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا ، فَجَعَلَ أَجَلَ خَمْسَ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : (أَلا جَعَلْتَهُ إِلَى دُونَ - قَالَ : أُرَاهُ - الْعَشْرِ) قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : وَالْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ ، قَالَ : ثُمَّ ظَهَرَتْ الرُّومُ بَعْدُ ، قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :** { الم غُلِبَتْ الرُّومُ - إِلَى قَوْلِهِ - وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ } **قَالَ سُفْيَانُ سَمِعْتُ أَنَّهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ** (٢) .

---

(١) سورة الروم الآيات من (١: ٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير / باب : ٣١ (ومن سورة الروم) ٣٢١/٥ ح ٣١٩٣ . وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ .

وبسنده عَنْ نَيَارِ بْنِ مُكْرَمٍ الأَسْلَمِيِّ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ { الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ }فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلاَ إِيمَانٍ بِبَعْثٍ ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ { الم غُلِبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ }قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لأَبِي بَكْرٍ : فَذَلِكَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، زَعَمَ صَاحِبُكَ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِساً فِي بِضْعِ سِنِينَ ، أَفَلاَ نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : بَلَى . وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ ، وَقَالُوا لأَبِي بَكْرٍ : كَمْ تَجْعَلُ ؟ الْبِضْعُ ثَلاَثُ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ، فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، قَالَ : فَسَمَّوْا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ .

قَالَ : فَمَضَتْ السِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا ، فَأَخَذَ الْمُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتْ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ فَعَابَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ ، لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : (فِي بِضْعِ سِنِينَ) قَالَ : وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ (١) .

وهذا الصراع العسكري بين الدولتين أساسه الصراع العقدي ، فأهل فارس أهل أوثان وعباد للنار ، وأهل الروم أهل كتاب .

أما الجزيرة العربية فقد شهدت تلوناً بائناً في العقيدة ، فكان فيهم من يعبد الله وهم

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير / باب : ٣١ (ومن سورة الروم) ٥/٣٢١ ، ٣٢٢ ح ٣١٩٤ وقال : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ .

الأحناف الذين يتبعون دين الخليل إبراهيم عليه السلام ، وهناك أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وأهل الشرك على اختلاف بينهم فيما ينتحلون .

يقول أ. محمد رضا : كانت العرب أصنافاً ، فصنف أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع والحين والدهر المفنى كما أخبر الله عنهم في كتابه العزيز: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) (١) وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث ، وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)(٢) وصنف عبدوا الأصنام ، وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل ، فكان "ود" لكلب وهو بدومة الجندل ،و"سُواع" لهذيل ، و"يغوث" ويعوق لمذحج ولقبائل من اليمن ، و"نسر" لذى الكلاع بأرض حمير ، و"يعوق" لهمدان، و"اللات" لثقيف بالطائف ، و"العزى" لقريش وبنى كنانة ، و"مناة " للأوس والخزرج ، و"هُبل" أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة ، وكان "إساف ونائلة" بين الصفا والمروة ، وكان منهم من يميل إلى اليهودية ، ومنهم من يميل إلى النصرانية ،

ومنهم من يميل إلى الصابئة ويعتقد في أنواء المنازل ، وكان منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الجن (٣) .

ويقول فضيلة الشيخ . محمد الغزالي رحمه الله عن طبيعة العالم قبل الإسلام : كم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر محمد ﷺ ، لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها علماً كثيراً ، ووعت تجارب خطيرة ، ونمت آداب وفنون ، وشاعت فلسفات وأفكار .

---

(١) سورة الجاثية آية (٢٤) .

(٢) سورة ق : آية (١٥) .

(٣) محمد ﷺ للأستاذ . محمد رضا ص : ٩ ط / دار إحياء التراث . القاهرة .

ومع ذلك فقد غلب الطيش ، واستحكم ، وسقطت أمم شتى دون المكانة المنشودة لها ، فماذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان ، وفي الهند والصين ، وفي فارس وروما ؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم ، بل من ناحية العاطفة والعقل .

إن الوثنية الوضعية اغتالتها ، وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية ، فأمسى الإنسان الذي استخلفه الله ليكون ملكاً في السماوات والأرض ، أمسى عبداً مسخراً لأدنى شيء في السماوات والأرض .

وماذا بعد أن تقدس العجول والأبقار ، وتعبد الأخشاب والأحجار ، وتطبق شعوب بأسرها على هذه الخرافة ؟

إن الوثنية هوان يأتي من داخل النفس لا من خارج الحياة ، فكما يفرض المحزون كآبته على من حوله ، وكما يتخيل المرعوب الأجسام القائمة أشباحاً جاثمة ، كذلك يفرض المرء الممسوخ صغار نفسه وغباء عقله على البيئة التي يحيا فيها فيؤله من جمادها وحيوانها ما يشاء .

وأعظم نكبة أصابت الأديان إثر عدوان الوثنيات عليها ، ما أصاب شريعة عيسى بن مريم عليه السلام من تبدل مروع ، رد نهارها ليلا ، وسلامها ويلاً ، وجعل الوحدة شركة ، وانتكس بالإنسان ، فعلق همته بالقرابين ، وفكره بالألغاز المعماة .

إن خرافة الثالوث والفداء تجدد حياتها بعد ما أفلحت الوثنية الأولى في إقحامها إقحاماً على النصرانية الجديدة ، وبذلك انتصرت الوثنية مرتين ، الأولى في تدعيم نفسها ، والأخرى في تضليل غيرها .

فلما جاء القرن السادس لميلاد عيسى عليه السلام ، كانت منارات الهدى قد انطفأت في مشارق الأرض ومغاربها ، وكان الشيطان يذرع الأقطار الفيح ، فيرى ما غرس من أشواك قد نما وامتد .

فالمجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين ، وبلاد العرب وسائل المجاهيل .

والنصرانية التي تناوئ هذه الجبهة قبست أبرز مآثرها من خرافات الهنود والمصريين القدامى ، فهي تجعل لله صاحبة وولداً ، وتغرى أتباعها في روما ومصر والقسطنطينية بلون من الإشراك أرقى مما ألف عبّاد النيران وعبّاد الأوثان .

شرك مشوب بتوحيد يحارب شركاً محضاً ، ولكن ما قيمة هذه النقائض التي جمعت النصرانية بين شتاتها (قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ - قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ - مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ)(١) .

ويظهر أن آصرة الشرك بين المجوسية والديانات السماوية المشوهة هي التي جعلت هذه الأحزاب إلباً على المسلمين يوم بدأوا يقيمون جماعتهم علي عبادة الواحد الحق . وقد نبأ الله هذه الأمة بأن الأذى سوف ينصب عليها من عبدة الأصنام ، ومن أهل الكتاب في آن ووصاها أن تتذرع بالصبر أمام هذا التحامل : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) (٢) والظلام الذي ران على الأفئدة والعقول في غيبة أنوار التوحيد طوى في سواده أيضاً تقاليد الجماعة ، وأنظمة الحكم ، فكانت الأرض مذأبة يسودها الفتك والاغتيال ، ويفقد

---

(١) سورة يونس : آية (٦٨: ٧٠) .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٨٦) .

فيها الضعاف نعمة الأمان والسكينة .

وأي خير يُرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل ، ونسيت الله ، ولانت في أيدي الدجالين .

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء في الحديث : (**إِنَّ اللَّهَ نَظَـرَ إِلَــى أَهْـلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**) (١) .

هذه البقايا هي التي ظلت مستعصية على الشرك برغم طوفان الكفر الذي طم البقاع والتلاع (٢) .

لقد عمت الدنيا قبل بعثة محمد ﷺ حيرة وبؤس ، ناءت بهما الكواهل .

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم *** إلا على صنـــم قد هام في صنـــم

فعاهل الروم يطغى في رعيته *** وعاهل الفرس من كبر أصم عمى

حتى تأذن الله ليحسن هذه الآثام ، وليسوقن هدايته الكبرى إلى الأنام فأرســل إلــى الأمة محمداً عليه الصلاة والسلام (٣) .

من خلال ما تقدم ظهر بجلاء الجانب العقدي غند العرب قبل الإســلام ، ظــلام دامس ، وجهل طامس ، وعقول مشتتة ، وأواصر مفككة ، إلا من عصم الله وأراد له الهداية كورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وغيرهم ممن اتبع نهجهم واقتفى أثرهم .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها / بَاب : الصِّفَاتِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ ٢١٩٧/٤، ٢١٩٨ ح ٢٨٦٥ من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ .

(٢) مجارى الماء من أعلى الوادي إلى بُطون الأرض . لسان العرب . مادة : تلع .

(٣) فقه السيرة لفضيلة الشيخ / محمد الغزالي ١٧: ٢١ بتصرف .

- الكعبة رمز التوحيد
- سكن إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر مكة
- بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة
- بنيان الكعبة في عهد الرسول ﷺ
- بنيان ابن الزبير للكعبة
- دخول الأصنام إلى الكعبة

الكعبة رمز التوحيد :

الكعبة بيت الله العتيق الذي جعله للناس مثابة وأمناً قال تعالى : (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً) (١) .

وقال : (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (٢) .

وفي سبب تسميته بالعتيق ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه التسمية ثلاثة أراء للعلماء وهي :

الرأي الأول : سمي بالعتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه وهدمه ، وقال به عبد الله بن الزبير ، ومجاهد بن جبر ، وقتادة بن دعامة السدوسي .

الرأي الثاني : قيل له عتيق ، لأنه لم يملكه أحد من الناس ، وبه قال مجاهد .

الرأي الثالث : سمي بذلك لقدمه. فالعتيق : القديم ، لأنه قديم ، كما يقال: السيف العتيق ، لأنه أول بيت وُضع للناس بناه آدم ، وهو أول من بناه ، ثم بوأ الله موضعه لإبراهيم بعد الغرق ، فبناه إبراهيم وإسماعيل ، وبه قال ابن زيد (أسامة بن زيد الليثي) .

ثم قال أبو جعفر: ولكل هذه الأقوال التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه في قوله:(الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) وجه صحيح ، غير أن الذي قاله ابن زيد أغلب معانيه عليه في الظاهر. غير أن الذي رُوي عن ابن الزبير أولى بالصحة ، إن كان ما:حدثني به محمد ابن سهل البخاري، قال: ثنا عبد الله بن صالح ، قال: أخبرني الليث ، عن عبد الرحمن ابن خالد بن مسافر، عن الزهريّ ، عن محمد بن عروة ، عن عبد الله بن الزبير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (**إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ لأَنَّ اللهَ أَعْتَقَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَلَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ قَطُّ صَحِيحا**) (٣) ، (٤) .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٢٥) .

(٢) سورة الحج : آية (٢٩) .

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير / باب (ومن سورة الحج) ٣٠٤/٥ ح ٣١٧٠ بلفظ مقارب ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) انظر تفسير محمد بن جرير الطبري لقوله تعالى : (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) .

سكن إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر مكة ، وبناء إبراهيم عليه السلام للكعبة :

نشأ إبراهيم عليه السلام ببابل من أرض العراق ، وكانت تكثر بها عبادة الأصنام والكواكب والنجوم ، وقد كان يسوسهم ملك طاغية ، وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز جداله مع والده ومع قومه ومع هذا الملك الطاغية .

فمن جداله مع والده ما ذكره تعالى عنه في قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) (١) .

وقال أيضاً : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً - إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً - يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً - يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً - يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً - قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً - قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً) (٢) .

وذكر جداله مع قومه في برهان عقلي لا نظير له ، حيث تدرج بالجدل معهم من الأدنى إلى الأعلى ، عن طريق المشاهدة الحسية ، حتى يكون ذلك أوقع في النفس وأقرب إلى التصديق ، فقال تعالى : (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ - فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً

---

(١) سورة الأنعام : آية (٧٤) .

(٢) سورة مريم : الآيات من (٤١: ٤٧) .

قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ - فَلَمَّـا رَأَى الْقَمَـرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَـوْمِ الضَّالِّينَ - فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ - إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّـذِي فَطَـرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - وَحَآجَّهُ قَوْمُـهُ قَـالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ - وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ - الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَـانَهُم بِظُلْـمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ - وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَـى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (١) .

وذكر قصة تدميره لأصنامهم ، واتهامه لكبير الأصنام بتـدميرهم ، بأسـلوب عذب جذل ، غاية في الإقناع ، لو كانوا يفقهون ويعقلون أن هذه الأصنام لا حياة فيها أصلاً ، بل هي جمادات صماء لا ترى ولا تسمع ، ولا تملك لنفسها ولا لهم ضراً ولا نفعاً ، ولكنه الضلال الذي أعمى أبصارهم ، وصم آذانهم ، فقال تعالى مسجلاً هذا في قرآنه العزيز في روعة بيانه ورونقه المتناسق : (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِـن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ - إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَـا عَاكِفُونَ - قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ - قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ

---

(١) -سورة الأنعام : الآيات من (٧٥ : ٨٣) .

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ - قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ - قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ - وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ - فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ - قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ - قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ - قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ- قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ - قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ - فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ - ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ - قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ - أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ - قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ - قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ - وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) (١) .

ثم بعد ذلك جادل ملكهم الطاغية الذي استباح لنفسه أن يؤله نفسه ، وأدخل هذا الضلال على قومه ، فبين له إبراهيم عليه السلام أن الإله الحق قدرته مطلقة لا حدود لها ولا قيود عليها ، بل هو إله حر في تصرفه وأفعاله وأقواله ، وأمر قدرته بين الكاف والنون إذا أراد فعل شيء قال له : (كُنْ فَيَكُونُ) (٢) فسجل الله تعالى هذه الحكاية

---

(١) سورة الأنبياء : الآيات من (٥١ : ٧٠) .

(٢) سورة يس : آية (٨٢) .

عن إبراهيم عليه السلام مع هذا الطاغية فقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١) .

هذا إبراهيم عليه السلام الذي شرفه الله تعالى بأن اتخذه خليلاً ، وأمر النبي ﷺ بإتباع ملته فقال تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ - وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ - ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٢) .

ولم تنقطع عطاءات الله لإبراهيم عليه السلام بل أعطاه شرف بناء البيت العتيق ، وسجل ما قام به إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم جميعاً السلام في مناسك تقام إلى يوم القيامة فتدبر .

وقد ذكر الله في كتابه العزيز قصة بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للبيت وعهده لهما ببنائه في سرد دقيق يبين أن بناءيهما إنما هو رفع للقواعد ، ثم أمر الخليل عليه السلام بعد هذا بالنداء إلى شعيرة الحج فقال تعالى : (وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ - وَإِذْ قَالَ

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٥٨) .

(٢) سورة النحل : الآيات من (١٢٠ : ١٢٣) .

إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ - وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ - رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (١) .

ثم قال : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ - وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ - لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ - ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (٢).

أما عن سكن إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر فقد كان قبل بناء البيت بزمن طويل وإسماعيل عليه السلام طفل صغير ، وتحكى كتب السيرة أن إبراهيم عليه السلام كان متزوجاً بالسيدة سارة وكانت لا تنجب الولد ، فلما هاجر بها إلى حاكم مصر ، وأراد أن يراودها عن نفسها لكنها أبت ، وشل الله تعالى يديه ثلاث مرات ، فلما حدث له ذلك أكرم نزلها وأخدمها هاجر ، فتزوجها إبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عليه السلام قَطُّ إِلاَّ

---

(١) سورة البقرة : الآيات (١٢٥ : ١٢٨) .

(٢) سورة الحج : الآيات من (٢٦ : ٢٩) .

ثَلاثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ : { إِنِّي سَقِيمٌ }(١) وَقَوْلُهُ :{ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا }(٢) وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهَا : إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الإِسْلامِ فَإِنِّي لا أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلاَّ لَكَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأُتِيَ بِهَا فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَى الصَّلاةِ فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً فَقَالَ لَهَا ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي وَلا أَضُرُّكِ فَفَعَلَتْ فَعَادَ فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الأُولَى فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَفَعَلَتْ فَعَادَ فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ فَقَالَ ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي فَلَكِ اللَّهَ أَنْ لا أَضُرَّكِ فَفَعَلَتْ وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ وَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي وَأَعْطِهَا هَاجَرَ قَالَ فَأَقْبَلَتْ تَمْشِي فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا مَهْيَمْ قَالَتْ خَيْرًا كَفَّ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ وَأَخْدَمَ خَادِمًا) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ (٣) .

الشرح والبيان :

قال الإمام النووي رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث : قَوْلُه ﷺ : (لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيم النَّبِيّ عليه السلام إِلاَّ ثَلاثَ كَذَبَات : ثِنْتَيْنِ فِي ذَات اللَّه تَعَالَى : قَوْله : (إِنِّي سَقِيم) ، وَقَوْله

---

(١) سورة الصافات : آية (٨٩) .

(٢) سورة الأنبياء : آية (٦٣) .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء / بَاب : قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }وَقَوْلِهِ{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ }وَقَوْلِهِ{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} ٤/١١٠ ، ومسلم في الفضائل / بَاب : مِنْ فَضَائِلِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ ٤/ ١٨٤٠ ، ١٨٤١ ح ٢٣٧١ .

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) وَوَاحِدَة فِي شَأْن سَارَة وَهِيَ قَوْلُه : **إِنْ سَأَلَك فَأَخْبِرِيه أَنَّك أُخْتِي ، فَإِنَّك أُخْتِي فِي الإِسْلَام**) ، قَالَ الْمَازِرِيّ : أَمَّا الْكَذِب فِيمَا طَرِيقه الْبَلَاغ عَنْ اللَّه تَعَالَى فَالأَنْبِيَاء مَعْصُومُونَ مِنْهُ ، سَوَاء كَثِيره وَقَلِيله ، وَأَمَّا مَا لاَ يَتَعَلَّقُ بِالْبَلَاغِ ، وَيُعَدُّ مِنْ الصِّفَات كَالْكَذْبَة الْوَاحِدَة فِي حَقِير مِنْ أُمُور الدُّنْيَا فَفِي إِمْكَان وُقُوعه مِنْهُمْ وَعِصْمَتهمْ مِنْهُ الْقَوْلاَنِ الْمَشْهُورَانِ لِلسَّلَف وَالْخَلَف . قَالَ الْقَاضِي عِيَاض: الصَّحِيح أَنَّ الْكَذِب فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَلَاغِ لاَ يُتَصَوَّرُ وُقُوعه مِنْهُمْ ، سَوَاء جَوَّزْنَا الصَّغَائِر مِنْهُمْ وَعِصْمَتهمْ مِنْهُ ، أَمْ لاَ ، وَسَوَاء قَلَّ الْكَذِب ، أَمْ كَثُرَ ؛ لأَنَّ مَنْصِبَ النُّبُوَّة يَرْتَفِعُ عَنْهُ ، وَتَجْوِيزه يَرْفَعُ الْوُثُوق بِأَقْوَالِهِمْ .

وَأَمَّا قَوْله ﷺ : (**ثِنْتَيْنِ فِي ذَات اللَّه تَعَالَى وَوَاحِدَة فِي شَأْن سَارَة**) فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْكَذَبَات الْمَذْكُورَة إِنَّمَا هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى فَهْم الْمُخَاطَب وَالسَّامِع ، وَأَمَّا فِي نَفْس الأَمْر فَلَيْسَتْ كَذِبًا مَذْمُومًا لِوَجْهَيْنِ : أَحَدهمَا أَنَّهُ وَرَّى بِهَا ، فَقَالَ فِي سَارَة : أُخْتِي فِي الإِسْلام، وَهُوَ صَحِيح فِي بَاطِن الأَمْر ، وَسَنَذْكُرُ إِنْ شَاءَ اللَّه تَعَالَى تَأْوِيل اللَّفْظَيْنِ الآخَرَيْنِ . وَالْوَجْه الثَّانِي أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذِبًا لاَ تَوْرِيَة فِيهِ لَكَانَ جَائِزًا فِي دَفْع الظَّالِمِينَ ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْفُقَهَاء عَلَى أَنَّهُ لَوْ جَاءَ ظَالِم يَطْلُب إِنْسَانًا مُخْتَفِيًا لِيَقْتُلَهُ ، أَوْ يَطْلُب وَدِيعَة لإِنْسَانٍ لِيَأْخُذَهَا غَصْبًا ، وَسَأَلَ عَنْ ذَلِكَ ، وَجَبَ عَلَى مَنْ عَلِمَ ذَلِكَ إِخْفَاؤُهُ وَإِنْكَار الْعِلْم بِهِ ، وَهَذَا كَذِب جَائِز ، بَلْ وَاجِب لِكَوْنِهِ فِي دَفْع الظَّالِم ، فَنَبَّهَ النَّبِيّ ﷺ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْكَذَبَات لَيْسَتْ دَاخِلَة فِي مُطْلَق الْكَذِب الْمَذْمُوم .

قَالَ الْمَازِرِيّ : وَقَدْ تَأَوَّلَ بَعْضهمْ هَذِهِ الْكَلِمَات ، وَأَخْرَجَهَا عَنْ كَوْنهَا كَذِبًا ، قَالَ : وَلاَ مَعْنَى لِلامْتِنَاع مِنْ إِطْلَاق لَفْظ أَطْلَقَهُ رَسُول اللَّه ﷺ قُلْت : أَمَّا إِطْلَاق لَفْظ الْكَذِب عَلَيْهَا فَلاَ يَمْتَنِعُ لِوُرُود الْحَدِيث بِهِ ، وَأَمَّا تَأْوِيلُهَا فَصَحِيحٌ لاَ مَانِع مِنْهُ . قَالَ الْعُلَمَاء : وَالْوَاحِدَة الَّتِي فِي شَأْن سَارَة هِيَ أَيْضًا فِي ذَات اللَّه تَعَالَى ؛ لأَنَّهَا سَبَبُ دَفْع كَافِر ظَالِم عَنْ مُوَاقَعَة فَاحِشَة عَظِيمَة ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ مُفَسَّرًا فِي غَيْر مُسْلِم ، فَقَالَ : مَا فِيهَا كَذْبَة إِلاَّ بِمَا حَلَّ بِهَا عَنْ الإِسْلَام أَيْ يُجَادِلُ وَيُدَافِعُ . قَالُوا : وَإِنَّمَا خَصَّ الاثْنَتَيْنِ بِأَنَّهُمَا فِي ذَات اللَّه تَعَالَى لِكَوْنِ الثَّالِثَة تَضَمَّنَتْ نَفْعًا لَهُ ، وَحَظًّا مَعَ كَوْنهَا فِي ذَات اللَّه تَعَالَى .

وَذَكَرُوا فِي قَوْله : (إِنِّي سَقِيمٌ) أَيْ سَأَسْقَمُ لأَنَّ الإِنْسَان عُرْضَة لِلأَسْقَام ، وَأَرَادَ بِذَلِكَ الاعْتِذَار عَنْ الْخُرُوج مَعَهُمْ إِلَى عِيدهمْ ، وَشُهُود بَاطِلهمْ وَكُفْرهمْ . وَقِيلَ : سَقِيم بِمَا قُدِّرَ عَلَيَّ مِنْ الْمَوْت . وَقِيلَ : كَانَتْ تَأْخُذهُ الْحُمَّى فِي ذَلِكَ الْوَقْت .

وَأَمَّا قَوْله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ) فَقَالَ ابْن قُتَيْبَة وَطَائِفَة : جُعْل النُّطْق شَرْطًا لِفِعْلِ كَبِيرهمْ ، أَيْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . وَقَالَ الْكِسَائِيّ : يُوقَفُ عِنْد قَوْله : بَلْ فَعَلَهُ أَيْ فَعَلَهُ فَاعله ، فَأَضْمَرَ ، ثُمَّ يَبْتَدِئ فَيَقُولُ : كَبِيرُهُمْ هَذَا ، فَاسْأَلُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْفَاعِل . وَذَهَبَ الأَكْثَرُونَ إِلَى أَنَّهَا عَلَى ظَاهِرهَا ، وَجَوَابهَا مَا سَبَقَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْله : (**فَلَكَ اللَّهُ**) أَيْ شَاهِدًا وَضَامِنًا أَنْ لاَ أَضُرّك .

قَوْله : (**مَهْيَم**) بِفَتْحِ الْمِيم وَالْيَاء وَإِسْكَان الْهَاء بَيْنهمَا أَيْ مَا شَأْنك وَمَا خَبَرُك ؟ وَوَقَعَ فِي الْبُخَارِيّ لأَكْثَر الرُّوَاة (**مَهْيَمًا**) بِالأَلِفِ ، وَالأَوَّل أَفْصَحُ وَأَشْهَرُ .

قَوْلهَا : (**وَأَخْدَمَ خَادِمًا**) أَيْ وَهَبَنِي خَادِمًا ، وَهِيَ هَاجَرَ ، وَيُقَال : آجَرَ بِمَدِّ الأَلِف . وَالْخَادِمُ يَقَع عَلَى الذَّكَر وَالأُنْثَى . قَوْله : (**قَالَ أَبُو هُرَيْرَة فَتِلْكَ أُمّكُمْ يَا بَنِي مَاء السَّمَاء**)

قَالَ كَثِيرُونَ : الْمُرَاد بِبَنِي مَاء السَّمَاء الْعَرَب كُلّهمْ ، لِخُلُوصِ نَسَبِهِمْ ، وَصَفَائِهِ . وَقِيلَ : لأَنَّ أَكْثَرهمْ أَصْحَاب مَوَاشِي ، وَعَيْشهمْ مِنْ الْمَرْعَى وَالْخِصْب ، وَمَا يَنْبُتُ بِمَاءِ السَّمَاء . وَقَالَ الْقَاضِي : الأَظْهَر عِنْدِي أَنَّ الْمُرَاد بِذَلِكَ الأَنْصَار خَاصَّة ، وَنِسْبَتهُمْ إِلَى جَدّهمْ عَامِر بْن حَارِثَة بْن امْرِئِ الْقَيْس بْن ثَعْلَبَة بْن مَازِن بْن الأَزْد وَكَانَ يُعْرَفُ بِمَاء السَّمَاء ، وَهُوَ الْمَشْهُور بِذَلِكَ ، وَالأَنْصَارُ كُلُّهُمْ مِنْ وَلَد حَارِثَة بْن ثَعْلَبَة بْن عَمْرو بْن عَامِر الْمَذْكُور . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَفِي هَذَا الْحَدِيث مُعْجِزَةٌ ظَاهِرَةٌ لإِبْرَاهِيم ﷺ (١) .

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ١٢٤ : ١٢٦ .

وعن سكنى إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر بيت الله الحرام روى ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال : **أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ (١) مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ (٢) فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ (٣) وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ قَالَتْ إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى**

---

(١) قَوْلُهُ : (أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ) بِكَسْرِ الْمِيمِ وَسُكُون النُّون وَفَتْح الطَّاء هُوَ مَا يُشَدّ بِهِ الْوَسَط ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن جُرَيْجٍ النُّطُق بِضَمِّ النُّون وَالطَّاء وَهُوَ جَمْع مِنْطَق ، وَكَانَ السَّبَب فِي ذَلِكَ أَنَّ سَارَةَ كَانَتْ وَهَبَتْ هَاجَرَ لِإِبْرَاهِيم فَحَمَلَتْ مِنْهُ بِإِسْمَاعِيل ، فَلَمَّا وَلَدَتْهُ غَارَتْ مِنْهَا فَحَلَفَتْ لَتَقْطَعَنَّ مِنْهَا ثَلَاثَة أَعْضَاء فَاتَّخَذَتْ هَاجَر مِنْطَقًا فَشَدَّتْ بِهِ وَسَطهَا وَهَرَبَتْ وَجَرَّتْ ذَيْلَهَا لِتُخْفِي أَثَرهَا عَلَى سَارَةَ ، وَيُقَال إِنَّ إِبْرَاهِيم شَفَعَ فِيهَا وَقَالَ لِسَارَةَ : حَلِّلِي يَمِينك بِأَنْ تَثْقُبِي أُذُنَيْهَا وَتَخْفِضِيهَا وَكَانَتْ أَوَّل مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ . وَوَقَعَ فِي رِوَايَة اِبْن عُلَيَّة عِنْد الْإِسْمَاعِيلِيّ " أَوَّل مَا أَحْدَثَ الْعَرَب جَرّ الذُّيُول عَنْ أُمّ إِسْمَاعِيل " وَذَكَرَ الْحَدِيث . وَيُقَال إِنَّ سَارَةَ اِشْتَدَّتْ بِهَا الْغَيْرَة فَخَرَجَ إِبْرَاهِيم بِإِسْمَاعِيل وَأُمّه إِلَى مَكَّة لِذَلِكَ . وَرَوَى اِبْن إِسْحَاق عَنْ اِبْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد وَغَيْره " إِنَّ اللَّه لَمَّا بَوَّأَ لِإِبْرَاهِيم مَكَان الْبَيْت خَرَجَ بِإِسْمَاعِيل وَهُوَ طِفْل صَغِير وَأُمّه ، قَالَ وَحُمِلُوا فِيمَا حَدَّثْت عَلَى الْبُرَاق " فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٦١/٦ .

(٢) قَوْلُهُ : (عِنْد دَوْحَة) بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَسُكُون الْوَاو ثُمَّ مُهْمَلَة الشَّجَرَة الْكَبِيرَة .المصدر السابق .

(٣) قَوْلُهُ : (فِي أَعْلَى الْمَسْجِد) أَيْ مَكَان الْمَسْجِد ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ بُنِيَ . المصدر السابق .

إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ (١) حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ رَبِّ : { إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ حَتَّى بَلَغَ يَشْكُرُونَ } (٢) وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ (٣) فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنْ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ فَإِذَا

---

(١) قَوْلُهُ : (حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ) بِفَتْحِ الْمُثَلَّثَةِ وَكَسْرِ النُّونِ وَتَشْدِيدِ التَّحْتَانِيَّةِ ، وَقَوْلُه: " مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ " بِفَتْحِ الْكَافِ مَمْدُودٌ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ مِنْهُ وَهُوَ مَعْرُوفٌ وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ " الْبَنِيَّةِ " بِالْمُوَحَّدَةِ بَدَلَ الْمُثَلَّثَةِ وَهُوَ تَصْحِيفٌ ، وَضَبَطَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ كُدًى بِالضَّمِّ وَالْقَصْرِ وَقَالَ : هِيَ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَكَّةَ عِنْدَ قُعَيْقِعَانَ ، قَالَ : لأَنَّهُ وَقَعَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا بِأَسْفَلِ مَكَّةَ . قُلْت : وَذَلِكَ لَيْسَ بِمَانِعٍ أَنْ يَرْجِع مِنْ أَعْلَى مَكَّةَ ، فَالصَّوَابُ مَا وَقَعَ فِي الأُصُولِ بِفَتْحِ الْكَافِ وَالْمَدِّ . المصدر السابق .

(٢) سورة إبراهيم : آية (٣٧) .

(٣) قال الحافظ ابن حجر : قَوْلُهُ : (فَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ يَتَلَبَّط) فِي رِوَايَةِ " يَتَلَمَّظ" وَهِيَ رِوَايَةُ مَعْمَرٍ أَيْضًا ، وَمَعْنَى يَتَلَبَّط وَهُوَ بِمُوَحَّدَةٍ وَمُهْمَلَةٍ يَتَمَرَّغُ وَيَضْرِبُ بِنَفْسِهِ الأَرْضَ ، وَيَقْرُبُ مِنْهَا رِوَايَةُ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ " فَلَمَّا ظَمِئَ إِسْمَاعِيلُ جَعَلَ يَضْرِبُ الأَرْضَ بِعَقِبَيْهِ " وَفِي رِوَايَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ نَافِعٍ " كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ " وَهُوَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَسُكُونِ النُّونِ وَفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ بَعْدَهَا غَيْنٌ مُعْجَمَةٌ أَيْ يَشْهَقُ وَيَعْلُو صَوْتُهُ وَيَنْخَفِضُ كَالَّذِي يُنَازِعُ . فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٦٢/٦ .

هِيَ بِالْمَلَكِ (١) عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ (٢) وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا
وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنْ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنْ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا (٣) قَالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ (٤) فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ

---

(١) قَوْلُهُ : (فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ) فِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن نَافِع وَابْن جُرَيْجٍ فَإِذَا جِبْرِيل ، وَفِي حَدِيث عَلِيّ عِنْد الطَّبَرِيّ بِإِسْنَادٍ حَسَن " فَنَادَاهَا جِبْرِيل فَقَالَ : مَنْ أَنْت ؟ قَالَتْ : أَنَا هَاجَرُ أُمُّ وَلَد إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : فَإِلَى مَنْ وَكَلَكُمَا ؟ قَالَتْ : إِلَى اللَّهِ . قَالَ : وَكَلَكُمَا إِلَى كَاف " . المصدر السابق .

(٢) قَوْلُهُ : (فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ) بِحَاء مُهْمَلَة وَضَاد مُعْجَمَة وَتَشْدِيد أَيْ تَجْعَلهُ مِثْل الْحَوْض، وَفِي رِوَايَة ابْن نَافِع " فَدَهَشَتْ أُمّ إِسْمَاعِيل فَجَعَلَتْ تَحْفِر " وَفِي رِوَايَة " تَحْفِن " بِنُونٍ بَدَل الرَّاء وَالْأَوَّل أَصْوَب ، فَفِي رِوَايَة عَطَاء بْن السَّائِب " فَجَعَلَتْ تَفْحَص الْأَرْض بِيَدَيْهَا " . المصدر السابق .

(٣) قَوْلُهُ : (عَيْنًا مَعِينًا) أَيْ ظَاهِرًا جَارِيًا عَلَى وَجْه الْأَرْض ، وَفِي رِوَايَة ابْن نَافِع " كَانَ الْمَاء ظَاهِرًا " فَعَلَى هَذَا فَقَوْله مَعِينًا صِفَة لِلْمَاءِ فَلِذَلِكَ ذَكَّرَهُ ، وَمَعِين بِفَتْحِ أَوَّله إِنْ كَانَ مِنْ عَانَهُ فَهُوَ بِوَزْنِ مَفْعِل وَأَصْله مَعْيُون فَحُذِفَتْ الْوَاو ، وَإِنْ كَانَ مِنْ الْمَعْن وَهُوَ الْمُبَالَغَة فِي الطَّلَب فَهُوَ بِوَزْنِ فَعِيل ، قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ : كَانَ ظُهُور زَمْزَم نِعْمَة مِنْ اللَّه مَحْضَة بِغَيْرِ عَمَل عَامِل ، فَلَمَّا خَالَطَهَا تَحْوِيط هَاجَرَ دَاخَلَهَا كَسْب الْبَشَر فَقَصُرَتْ عَلَى ذَلِكَ فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ تَوْجِيه تَذْكِير مَعِين ، مَعَ أَنَّ الْمَوْصُوف وَهُوَ الْمَعِين مُؤَنَّث . المصدر السابق .

(٤) قَوْلُهُ : (لَا تَخَافُوا الضَّيْعَة) بِفَتْحِ الْمُعْجَمَة وَسُكُون التَّحْتَانِيَّة أَيْ الْهَلَاك ، وَفِي حَدِيث أَبِي جَهْم " لَا تَخَافِي أَنْ يَنْفَد الْمَاء " وَفِي رِوَايَة " لَا تَخَافِي عَلَى أَهْل هَذَا الْوَادِي ظَمَأً فَإِنَّهَا عَيْن يَشْرَب بِهَا ضِيفَان اللَّه " زَادَ فِي حَدِيث أَبِي جَهْم " فَقَالَتْ بَشَّرَك اللَّهُ بِخَيْرٍ " المصدر السابق .

الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ (١) تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ (٢) مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا (٣) فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا (٤) أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ

---

(١) قَوْلُهُ : (وَكَانَ الْبَيْت مُرْتَفِعًا مِنْ الأَرْض كَالرَّابِيَةِ) بِالْمُوَحَّدَةِ ثُمَّ الْمُثَنَّاة ، وَرَوَى ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ حَدِيث عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاص قَالَ : " لَمَّا كَانَ زَمَن الطُّوفَان رُفِعَ الْبَيْت ، وَكَانَ الأَنْبِيَاء يَحُجُّونَهُ وَلا يَعْلَمُونَ مَكَانه حَتَّى بَوَّأَهُ اللَّه لإِبْرَاهِيم وَأَعْلَمَهُ مَكَانه " وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي " الدَّلائِل " مِنْ طَرِيق أُخْرَى عَنْ عَبْد اللَّه بْن عَمْرو مَرْفُوعًا " بَعَثَ اللَّه جِبْرِيل إِلَى آدَم فَأَمَرَهُ بِبِنَاءِ الْبَيْت فَبَنَاهُ آدَم ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِالطَّوَافِ بِهِ وَقِيلَ لَهُ أَنْتَ أَوَّل النَّاس وَهَذَا أَوَّل بَيْت وُضِعَ لِلنَّاسِ " وَرَوَى عَبْد الرَّزَّاق عَنْ ابْن جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاء " أَنَّ آدَم أَوَّل مَنْ بَنَى الْبَيْت ، وَقِيلَ : بَنَتْهُ الْمَلائِكَة قَبْلَهُ " وَعَنْ وَهْب بْن مُنَبِّه " أَوَّل مَنْ بَنَاهُ شِيثُ بْن آدَم " وَالأَوَّل أَثْبَت . فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٦٣/٦ .

(٢) قَوْلُهُ : (مِنْ جُرْهُم) هُوَ ابْن قَحْطَان بْن عَامِر بْن شَالِخ بْن أَرْفَخْشَد بْن سَام بْن نُوح، وَقِيلَ ابْن يَقْطُن ، قَالَ ابْن إِسْحَاق " وَكَانَ جُرْهُم وَأَخُوهُ قَطُورًا أَوَّل مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ عِنْد تَبَلْبُل الأَلْسُن ، وَكَانَ رَئِيس جُرْهُم مِضَاض بْن عَمْرو وَرَئِيس قَطُورًا السُّمَيْدع وَيُطْلَق عَلَى الْجَمِيع جُرْهُم " وَفِي رِوَايَة عَطَاء بْن السَّائِب " وَكَانَتْ جُرْهُم يَوْمَئِذٍ بِوَادٍ قَرِيب مِنْ مَكَّة ، وَقِيلَ : إِنَّ أَصْلهمْ مِنْ الْعَمَالِقَة " . المصدر السابق .

(٣) قَوْلُهُ : (فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا) بِالْمُهْمَلَةِ وَالْفَاء هُوَ الَّذِي يَحُوم عَلَى الْمَاء وَيَتَرَدَّد وَلا يَمْضِي عَنْهُ . المصدر السابق .

(٤) قَوْلُهُ : (فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا) بِفَتْحِ الْجِيم وَكَسْر الرَّاء وَتَشْدِيد التَّحْتَانِيَّة أَيْ رَسُولاً ، وَقَدْ يُطْلَق عَلَى الْوَكِيل وَعَلَى الأَجِير ، قِيلَ : سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى مُرْسِله أَوْ مُوَكِّله ، أَوْ لأَنَّهُ يَجْرِي مُسْرِعًا فِي حَوَائِجه ، وَقَوْله : " جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ " شَكّ مِنْ الرَّاوِي هَلْ أَرْسَلُوا وَاحِدًا أَوْ اثْنَيْنِ ، وَفِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن نَافِع " فَأَرْسَلُوا رَسُولاً " وَيَحْتَمِل الزِّيَادَة عَلَى الْوَاحِد وَيَكُون الإِفْرَاد بِاعْتِبَارِ الْجِنْس لِقَوْلِهِ " فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ " بِصِيغَةِ الْجَمْع ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الإِفْرَاد بِاعْتِبَارِ الْمَقْصُود بِالإِرْسَالِ وَالْجَمْع بِاعْتِبَارِ مَنْ يَتْبَعهُ مِنْ خَادِم وَنَحْوه . المصدر السابق .

بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ قَالُوا نَعَمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ (١) وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرٍّ نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ قَالَ فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ مَا طَعَامُكُمْ قَالَتْ اللَّحْمُ قَالَ فَمَا شَرَابُكُمْ قَالَتْ الْمَاءُ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ قَالَ فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ

---

(١) قَوْلُهُ : (وَأَنْفَسَهُمْ) بِفَتْحِ الْفَاءِ بِلَفْظِ أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ مِنَ النَّفَاسَةِ أَيْ كَثُرَتْ رَغْبَتُهُمْ فِيهِ ، وَوَقَعَ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ " وَأَنْسَهُمْ " بِغَيْرِ فَاءٍ مِنَ الْأُنْسِ ، وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ : أَنْفَسَهُمْ أَيْ رَغَّبَهُمْ فِي مُصَاهَرَتِهِ لِنَفَاسَتِهِ عِنْدَهُمْ ، وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : أَنْفَسَهُمْ ، عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ : تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ أَيْ رَغَّبَهُمْ فِيهِ إِذْ صَارَ نَفِيسًا عِنْدَهُمْ . المصدر السابق .

نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ وَتُعِينُنِي قَالَ وَأُعِينُكَ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ : { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (١) قَالَ فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ : { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } (٢) .

قال الحافظ ابن حجر مبيناً كيفية بناء إبراهيم وإسماعيل للبيت ، فقال في شرحه للحديث المتقدم عند قوله : (رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ) فِي رِوَايَةِ أَحْمَد عَنْ عَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر عَنْ أَيُّوب عَنْ سَعِيد عَنْ ابْن عَبَّاس " الْقَوَاعِد الَّتِي رَفَعَهَا إِبْرَاهِيم كَانَتْ قَوَاعِد الْبَيْت قَبْل ذَلِكَ " وَفِي رِوَايَة مُجَاهِد عِنْد ابْن أَبِي حَاتِم " أَنَّ الْقَوَاعِد كَانَتْ فِي الْأَرْض السَّابِعَة " وَمِنْ طَرِيق سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ ابْن عَبَّاس " رَفْع الْقَوَاعِد الَّتِي كَانَتْ قَوَاعِد الْبَيْت قَبْل ذَلِكَ " وَمِنْ طَرِيق عَطَاء قَالَ : " قَالَ آدَم يَا رَبّ إِنِّي لَا أَسْمَع أَصْوَات الْمَلَائِكَة ، قَالَ ابْنِ لِي بَيْتًا ثُمَّ احْفُفْ بِهِ كَمَا رَأَيْت الْمَلَائِكَة تَحُفّ بَيْتِي الَّذِي فِي السَّمَاء " وَفِي حَدِيث عُثْمَان وَأَبِي جَهْم " فَبَلَغَ إِبْرَاهِيم مِنْ الْأَسَاس أَسَاس آدَم وَجَعَلَ طُوله فِي السَّمَاء تِسْعَة أَذْرُع وَعَرْضه فِي الْأَرْض - يَعْنِي دَوْره - ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا "

---

(١) سورة البقرة : آية (١٢٧) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء / بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً }وَقَوْلِهِ{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ }وَقَوْلِهِ{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } ١١٣/٤ : ٦١٦ .

وكَانَ ذَلكَ بذِرَاعِهِمْ ، وزَادَ أَبُو جَهْم " وَأَدْخَلَ الْحِجْرَ فِي الْبَيْت ، وكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ زَرْبًا لغَنَمِ إسْمَاعِيل ، وَإِنَّمَا بَنَاهُ بِحِجَارَةٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ولَمْ يَجْعَلْ لَهُ سَقْفًا وَجَعَلَ لَهُ بَابًا وَحَفَرَ لَهُ بِئْرًا عِنْدَ بَابه خِزَانَةً لِلْبَيْتِ يُلْقَى فيهَا مَا يُهْدَى لِلْبَيْت " وَفي حَديثِه أَيْضًا " أَنَّ اللَّه أَوْحَى إِلَى إِبْرَاهِيم أَنْ اتَّبِعْ السَّكِينَةَ ، فَحَلَّقَتْ عَلَى مَوْضِعِ الْبَيْت كَأَنَّهَا سَحَابَة ، فَحَفَرَا يُرِيدَانِ أَسَاسَ آدَمَ الأَوَّل " وَفي حَديث عَلِيّ عِنْدَ الطَّبَرِيّ وَالْحَاكِم " رَأَى عَلَى رَأْسه فِي مَوْضِعِ الْبَيْت مِثْلَ الْغَمَامَة فِيه مِثْلُ الرَّأْس فَكَلَّمَهُ فَقَالَ : يَا إِبْرَاهِيم ابْنِ عَلَى ظِلِّي – أَوْ عَلَى قَدْرِي – وَلاَ تَزِدْ وَلاَ تَنْقُص ، وَذَلِكَ حِين يَقُول اللَّه (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) الآيَة " (١) .

قَوْلُهُ : (جَاءَ بِهَذَا الْحَجَر) يَعْنِي الْمَقَام ، وَفِي رِوَايَة إِبْرَاهِيم بْن نَافِع " حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاء وَضَعُفَ الشَّيْخ عَنْ نَقْل الْحِجَارَة فَقَامَ عَلَى حَجَر الْمَقَام " زَادَ فِي حَدِيث عُثْمَان " وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّكْن وَالْمَقَام فَكَانَ إِبْرَاهِيم يَقُوم عَلَى الْمَقَام يَبْنِي عَلَيْهِ وَيَرْفَعهُ لَهُ إِسْمَاعِيل ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَوْضِع الَّذِي فِيهِ الرُّكْن وَضَعَهُ يَوْمَئِذٍ مَوْضِعه وَأَخَذَ الْمَقَام فَجَعَلَهُ لاصِقًا بِالْبَيْت ، فَلَمَّا فَرَغَ إِبْرَاهِيم مِنْ بِنَاء الْكَعْبَة جَاءَ جِبْرِيل فَأَرَاهُ الْمَنَاسِك كُلّهَا ، ثُمَّ قَامَ إِبْرَاهِيم عَلَى الْمَقَام فَقَالَ : يَا أَيّهَا النَّاس أَجِيبُوا رَبّكُمْ ، فَوَقَفَ إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل تِلْكَ الْمَوَاقِف ، وَحَجَّهُ إِسْحَاق وَسَارَةُ مِنْ بَيْت الْمَقْدِس ، ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيم إِلَى الشَّام فَمَاتَ بِالشَّام " وَرَوَى الْفَاكِهِيّ بِإِسْنَاد صَحِيح مِنْ طَرِيق مُجَاهِد عَنْ ابْن عَبَّاس قَالَ : " قَامَ إِبْرَاهِيم عَلَى الْحَجَر فَقَالَ : يَا أَيّهَا النَّاس كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْحَجّ ، فَأَسْمَعَ مَنْ فِي أَصْلاَب الرِّجَال وَأَرْحَام النِّسَاء ، فَأَجَابَهُ مَنْ آمَنَ وَمَنْ كَانَ سَبَقَ فِي عِلْم اللَّه أَنَّهُ يَحُجّ إِلَى يَوْم الْقِيَامَة : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ " وَفِي حَدِيث أَبِي جَهْم " ذَهَبَ إِسْمَاعِيل إِلَى الْوَادِي يَطْلُب حَجَرًا ، فَنَزَلَ جِبْرِيل بِالْحَجَرِ الأَسْوَد ، وَقَدْ كَانَ رُفِعَ إِلَى السَّمَاء حِين غَرِقَتْ الأَرْض ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيل فَرَأَى الْحَجَر الأَسْوَد قَالَ مِنْ أَيْنَ هَذَا، مَنْ جَاءَك بِه ؟ قَالَ إِبْرَاهِيم : مَنْ لَمْ يَكِلنِي إِلَيْك وَلاَ إِلَى حَجَرك " وَرَوَاهُ ابْن أَبِي حَاتِم مِنْ

---

(١) سورة الحج : آية (٢٦) .

طَرِيق السُّدِّيّ نَحْوه ، وَأَنَّهُ كَانَ بِالْهِنْدِ وَكَانَ يَاقُوتَة بَيْضَاء مِثْـل الثَّغَامَـة . وَهِـيَ بِالْمُثَلَّثَةِ وَالْمُعْجَمَة طَيْر أَبْيَض كَبِير ، وَرَوَى الْفَاكِهِيّ مِنْ طَرِيق أَبِي بِشْر عَنْ سَعِيد بْن جُبَيْر عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ : "**وَاَللَّه مَا بَنَيَاهُ بِقَصَّةٍ** (١) **وَلَا مَدَر**(٢) ، **وَلَا كَانَ لَهُمَا مِـنْ السَّعَة وَالْأَعْوَان مَا يُسَقِّفَانِهِ** " وَمِنْ حَدِيث عَلِيّ " **كَانَ إِبْرَاهِيم يَبْنِي كُلّ يَوْم سَافًا** (٣) " وَمِنْ حَدِيث عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاص عِنْده وَعِنْد اِبْن أَبِي حَاتِم " **أَنَّهُ كَانَ بَنَاهُ مِنْ خَمْسَة أَجْبُل : مِنْ حِرَاء وَثَبِير وَلُبْنَان وَجَبَل الطُّور وَجَبَل الْخَمْر** " قَالَ اِبْن أَبِي حَاتِم : جَبَل الْخَمْر – يَعْنِي بِفَتْحِ الْخَاء الْمُعْجَمَة – هُوَ جَبَل بَيْت الْمَقْدِس . وَقَالَ عَبْد الـرَّزَّاق عَنْ اِبْن جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاء " **إِنَّ آدَم بَنَاهُ مِنْ خَمْسَة أَجْبُل : حِرَاء وَطُور زَيْتَا وَطُـور سَيْنَاء وَالْجُودِيّ وَلُبْنَان ، وَكَانَ رَبَضه مِنْ حِرَاء** " مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن طَلْحَة التَّيْمِـيّ قَالَ : " **سَمِعْت أَنَّهُ أُسِّسَ الْبَيْت مِنْ سِتَّة أَجْبُل : مِنْ أَبِي قُبَيْسٍ وَمِنْ الطُّور وَمِنْ قُدْس وَمِنْ وَرْقَان وَمِنْ رَضْوَى وَمِنْ أُحُد** " (٤) .

---

(١) التَّقْصيصُ : هو التجْصيص وذلك أن الجَصّ يقال له القَصّة يقال : قصّصْت البيـتَ وغيره أي جَصّصْته . لسان العرب . مادة : قصص .

(٢) مَدَرٌ: قِطَعُ طينٍ يابسٍ ، الواحدة مَدَرة. والمَدْرُ: تَطيينُكَ وجْهَ الحوض بالطِّين الحُـرِّ لئلاّ يَنشَفَ الماءُ . والمَدَرةُ : موضِعٌ فيه طين حُرٌّ يُستَعَدُّ لذلك . العين . مادة : مدر

(٣) الساف هو : المدماك . قال الزمخشري : كان إبراهيم وإسـماعيل عليهمـا الصـلاة والسلام يبنيان البيت فيرفعان كل يوم مدماكاً وهو الصفّ من الحجارة أو اللبِن عنـد أهل الحجاز وعند أهل العراق الساف . أساس البلاغة . مادة : دمك .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٦٧/٦ ، ٤٦٨ .

بنيان الكعبة في عهد الرسول ﷺ :

ظلت الكعبة على بنيان إبراهيم عليه السلام إلى أن دهمها سيل جارف ، فأرادت قريش إعادتها كما كانت وفى ذلك يقول ابن إسْحَاقَ : فَلَمّا بَلَغَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ خَمْسًا وَثَلاثِينَ سَنَةً اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِبُنْيَانِ الْكَعْبَةِ ، وَكَانُوا يُهِمّونَ بِذَلِكَ لِيُسَقّفُوهَا وَيَهَابُونَ هَدْمَهَا كَانَتْ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ فَأَرَادُوا رَفْعَهَا وَتَسْقِيفَهَا ، وَذَلِكَ أَنّ نَفَرًا سَرَقُوا كَنْزًا لِلْكَعْبَةِ وَإِنّمَا كَانَ يَكُونُ فِي بِئْرٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ ، وَكَانَ الّذِي وُجِدَ عِنْدَهُ الْكَنْزُ دُوَيْكًا مَوْلًى لِبَنِي مُلَيْحِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ خُزَاعَةَ . وَكَانَ الْبَحْرُ قَدْ رَمَى بِسَفِينَةٍ إلَى جُدّةَ لِرَجُلٍ مِنْ تُجّارِ الرّومِ ، فَتَحَطّمَتْ فَأَخَذُوا خَشَبَهَا ، فَأَعَدّوهُ لِتَسْقِيفِهَا ، وَكَانَ بِمَكّةَ رَجُلٌ قِبْطِيّ نَجّارٌ فَتَهَيّأَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ بَعْضُ مَا يُصْلِحُهَا . وَكَانَتْ حَيّةٌ تَخْرُجُ مِنْ بِئْرِ الْكَعْبَةِ الّتِي كَانَ يُطْرَحُ فِيهَا مَا يُهْدَى لَهَا كُلّ يَوْمٍ فَتَتَشَرّقُ عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ ، وَكَانَتْ مِمّا يَهَابُونَ وَذَلِكَ أَنّهُ كَانَ لاَ يَدْنُو مِنْهَا أَحَدٌ إلاّ احْزَأَلّتْ (٢) وَكَشّتْ (٣) وَفَتَحَتْ فَاهَا ، وَكَانُوا يَهَابُونَهَا . فَبَيْنَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ تَتَشَرّقُ عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ ، كَمَا كَانَتْ تَصْنَعُ بَعَثَ اللّهُ إلَيْهَا طَائِرًا فَاخْتَطَفَهَا ، فَذَهَبَ بِهَا ؛ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : إنّا لَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللّهُ قَدْ رَضِيَ مَا أَرَدْنَا ، عِنْدَنَا عَامِلٌ رَفِيقٌ وَعِنْدَنَا خَشَبٌ وَقَدْ كَفَانَا اللّهُ الْحَيّةَ . فَلَمّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ فِي هَدْمِهَا وَبِنَائِهَا ، قَامَ أَبُو وَهْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ عَبْدِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ فَتَنَاوَلَ مِنْ الْكَعْبَةِ حَجَرًا ، فَوَثَبَ مِنْ يَدِهِ حَتّى رَجَعَ إلَى مَوْضِعِهِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لاَ تُدْخِلُوا فِي بِنَائِهَا مِنْ كَسْبِكُمْ إلاّ طَيّبًا ، لاَ يَدْخُلُ فِيهَا مَهْرُ بَغِيّ وَلاَ بَيْعُ رِبًا ، وَلاَ مَظْلَمَةُ أَحَدٍ مِنْ النّاسِ . ثُمّ إنّ قُرَيْشًا جَزّأَتْ الْكَعْبَةَ ، فَكَانَ شِقّ الْبَابِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَزُهْرَةَ ، وَكَانَ مَا بَيْنَ الرّكْنِ الأَسْوَدِ وَالرّكْنِ الْيَمَانِي لِبَنِي مَخْزُومٍ وَقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ انْضَمّوا إلَيْهِمْ وَكَانَ ظَهْرُ الْكَعْبَةِ

---

(١) احْزَأَلّ ، أي ارتفع. يقال: احْزَأَلّتِ الإبل في السير: ارتفعت . واحْزَأَلّ الجبلُ : ارتفع فوق السراب . مختار الصحاح : مادة : حزل .

(٢) كشّت الأفعى تكش كشيشاً ، إذا احتكت سمعت لجلدها مثل جرش الرحى . العين . مادة : كش .

لِبَنِي جُمَحٍ وَسَهْمٍ ابْنَيْ عَمْرِو بْنِ هُصَيْصِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ ، وَكَانَ شِقُّ الْحَجَرِ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ بْنِ قُصَيّ ، وَلِبَنِي أَسَدِ بْنِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيّ ، وَلِبَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ ، وَهُوَ الْحَطِيمُ . ثُمَّ إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ جَمَعَتْ الْحِجَارَةَ لِبِنَائِهَا، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ ثُمَّ بَنَوْهَا ، حَتَّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ فَاخْتَصَمُوا فِيهِ كُلُّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الأُخْرَى ، حَتَّى تَحَاوَزُوا وَتَحَالَفُوا ، وَأَعَدُّوا لِلْقِتَالِ فَقَرَّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا ، ثُمَّ تَعَاقَدُوا هُمْ وَبَنُو عَدِيّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ عَلَى الْمَوْتِ فَسُمُّوا لَعَقَةَ الدَّمِ . فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا ، ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ وَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا . فَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الرِّوَايَةِ أَنَّ أَبَا أُمَيَّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ ، وَكَانَ عَائِذٌ أَسَنَّ قُرَيْشٍ كُلِّهَا ؛ قَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ فِيهِ فَفَعَلُوا . فَكَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الأَمِينُ رَضِينَا ، هَذَا مُحَمَّدٌ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ قَالَ ﷺ هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا ، فَأُتِيَ بِهِ فَأَخَذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ . ثُمَّ قَالَ لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنْ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا ، فَفَعَلُوا : حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ الأَمِينَ (١) .

وقد شارك النبي ﷺ قومه في هذا البناء وحمل الحجارة معهم فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : (**لَمَّا بُنِيَتْ الْكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنْ الْحِجَارَةِ فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ إِزَارِي إِزَارِي فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ**) (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ١٠٠ : ١٠٣.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : بُنْيَانُ الْكَعْبَةِ ٤/ ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

بنيان ابن الزبير للكعبة :

في عهد يزيد بن معاوية غزا أهل الشام الكعبة فاحترقت ، فقام ابن الزبير ببنائها ، وكان كثيراً ما يتردد على خالته السيدة عائشة ، فكان يسمع منها أن النبي ﷺ كان يريد أن يدخل الحجر إلى البيت والذي منعه من ذلك حداثة الناس بالكفر ، فأتم ابن الزبير أمنية النبي ﷺ ، وأدخل الحجر في البيت ، لكن الحجاج نقض هذه الأمنية ، وهدم ما بناه ابن الزبير .

فعن عطاء بن أبى رباح قال : لَمَّا احْتَرَقَ الْبَيْتُ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ حِينَ غَزَاهَا أَهْلُ الشَّامِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، تَرَكَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ الْمَوْسِمَ ، يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّئَهُمْ أَوْ يُحَرِّبَهُمْ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ أَنْقُضُهَا ثُمَّ أَبْنِي بِنَاءَهَا أَوْ أُصْلِحُ مَا وَهَى مِنْهَا ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي قَدْ فُرِقَ لِي رَأْيٌ فِيهَا أَرَى أَنْ تُصْلِحَ مَا وَهَى مِنْهَا ، وَتَدَعَ بَيْتًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَأَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا ، وَبُعِثَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : لَوْ كَانَ أَحَدُكُمْ احْتَرَقَ بَيْتُهُ مَا رَضِيَ حَتَّى يُجِدَّهُ ، فَكَيْفَ بَيْتُ رَبِّكُمْ ؟ إِنِّي مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلَاثًا ثُمَّ عَازِمٌ عَلَى أَمْرِي ، فَلَمَّا مَضَى الثَّلَاثُ أَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَهَا . فَتَحَامَاهُ النَّاسُ أَنْ يَنْزِلَ ، بِأَوَّلِ النَّاسِ يَصْعَدُ فِيهِ ، أَمْرٌ مِنْ السَّمَاءِ . حَتَّى صَعِدَهُ رَجُلٌ فَأَلْقَى مِنْهُ حِجَارَةً . فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ شَيْءٌ تَتَابَعُوا . فَنَقَضُوهُ حَتَّى بَلَغُوا بِهِ الْأَرْضَ فَجَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمِدَةً . فَسَتَّرَ عَلَيْهَا السُّتُورَ. حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ وَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِنِّي سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (**لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنْ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّي عَلَى بِنَائِهِ لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنْ الْحِجْرِ خَمْسَ أَذْرُعٍ ، وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ**) قَالَ : فَأَنَا الْيَوْمَ أَجِدُ مَا أُنْفِقُ وَلَسْتُ أَخَافُ النَّاسَ . قَالَ : فَزَادَ فِيهِ خَمْسَ أَذْرُعٍ مِنْ الْحِجْرِ حَتَّى أَبْدَى أُسًّا نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ . فَبَنَى عَلَيْهِ الْبِنَاءَ ، وَكَانَ طُولُ الْكَعْبَةِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَلَمَّا زَادَ فِيهِ اسْتَقْصَرَهُ . فَزَادَ فِي طُولِهِ عَشْرَ أَذْرُعٍ ، وَجَعَلَ لَهُ بَابَيْنِ أَحَدُهُمَا يُدْخَلُ مِنْهُ وَالْآخَرُ يُخْرَجُ مِنْهُ ، فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ

وَيُخْبِرُهُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ وَضَعَ الْبِنَاءَ عَلَى أُسٍّ نَظَرَ إِلَيْهِ الْعُدُولُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ : إِنَّا لَسْنَا مِنْ تَلْطِيخِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي شَيْءٍ أَمَّا مَا زَادَ فِي طُولِهِ فَأَقِرَّهُ وَأَمَّا مَا زَادَ فِيهِ مِنْ الْحِجْرِ فَرُدَّهُ إِلَى بِنَائِهِ وَسُدَّ الْبَابَ الَّذِي فَتَحَهُ فَنَقَضَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى بِنَائِهِ (١) .

فهذه الرواية تشير إلى أن الحجاج بن يوسف الثقفي قد نقض بناء ابن الزبير ورده على ما بنى عليه قبل ذلك ، فإذا ما أرخ لبناء الكعبة نجد أنها بنيت أربع مرات بيقين وواحدة على الشك ، أما المرات الأربع فهي : بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وبناء قريش زمن شباب النبي ﷺ ، وبناء ابن الزبير عندما احترقت بسبب جيش يزيد ابن معاوية ، وبناء الحجاج بن يوسف الثقفي بعد قتل ابن الزبير .

أما المرة المشكوك فيها فهي ما قبل بناء الخليل عليه السلام هل كانت مبنية أم لا ؟

فقد ذكرت الروايات أن أول من بنى البيت هو آدم عليه السلام ومما يدل لذلك ما رواه البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال النبي ﷺ : **(بعث الله جبريل عليه السلام إلى آدم وحواء ، فقال لهما : ابنيا لي بناء ، فخط لهما جبريل عليه السلام ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ، نودي من تحته : حسبك يا آدم فلما بنياه أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس ، وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه)** ثم قال البيهقي : تفرد به ابن لهيعة هكذا ، مرفوعا (٢) .

وابن لهيعة ضعفه كثير من الأئمة نظراً لاحتراق كتبه ، أو أنه اختلط بآخره حتى قال الحافظ ابن حجر : صدوق ، خلط بعد احتراق كتبه ورواية ابن المبارك وابن وهب عنه أعدل من غيرهما (٣) .

---

(١) أخرجه مسلم في الحج / باب : نقض الكعبة وبنائها ٢/ ٩٧٠، ٩٧١ ح ١٣٣٣ .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٤٢٤ ح ٣٧٧ .

(٣) تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر ١/ ٤١٧ .

فإذا ما اعتمدنا الروايات السابقة كانت المرات الأربع هي الصحيحة لمراحل بناء البيت ، وقد ثبتت بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : قَالَ الْعُلَمَاء : بُنِيَ الْبَيْت خَمْس مَرَّات بَنَتْهُ الْمَلَائِكَة ، ثُمَّ إِبْرَاهِيم ﷺ ، ثُمَّ قُرَيْش فِي الْجَاهِلِيَّة ، وَحَضَرَ النَّبِيّ ﷺ هَذَا الْبِنَاء ، وَلَهُ خَمْس وَثَلَاثُونَ سَنَة ، وَقِيلَ : خَمْس وَعِشْرُونَ ، وَفِيهِ سَقَطَ عَلَى الْأَرْض حِين وَقَعَ إِزَاره، ثُمَّ بَنَاهُ ابْن الزُّبَيْر ، ثُمَّ الْحَجَّاج بْن يُوسُف ، وَاسْتَمَرَّ إِلَى الْآن عَلَى بِنَاء الْحَجَّاج ، وَقِيلَ : بُنِيَ مَرَّتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، قَالَ الْعُلَمَاء : وَلَا يُغَيَّر عَنْ هَذَا الْبِنَاء ، وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ هَارُون الرَّشِيد سَأَلَ مَالِك بْن أَنَس عَنْ هَدْمهَا وَرَدّهَا إِلَى بِنَاء ابْن الزُّبَيْر ، لِلْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورَة فِي الْبَاب ، فَقَالَ مَالِك : نَاشَدْتُك اللَّه يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا تَجْعَل هَذَا الْبَيْت لُعْبَة لِلْمُلُوكِ لَا يَشَاء أَحَد إِلَّا نَقَضَهُ وَبَنَاهُ فَتَذْهَب هَيْبَته مِنْ صُدُور النَّاس (١) .

إذاً فبناء الخليل ﷺ كان رفعاً للقواعد وعلمه الله إياه ، وأمره أن يؤذن في الناس بالحج ، أما بناء قريش فهو تجديد لبناء إبراهيم ﷺ ولكنهم قصروا عن بناء إبراهيم ﷺ لقلة النفقة عندهم فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**لَوْلاَ حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَتْ الْبَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ وَلَجَعَلْتُ لَهَا خَلْفًا**) (٢) .

وعنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ؟**) قَالَتْ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**لَوْلاَ حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَفَعَلْتُ**) (٣) .

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٨٩/٩ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / فضل مكة وبنيانها ١٥٦/٢ ، ومسلم واللفظ له في الحج / باب : نقض الكعبة وبنائها ٢/ ٩٦٨ ح ١٣٣٣ .

(٣) أخرجاه في الموضعين السابقين .

وعنها أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (**لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ** أَوْ قَالَ – **بِكُفْرٍ لأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ وَلأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ**) (١) .

وعنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ**) (٢) .

قال الإمام النووي عند شرحه لهذه الأحاديث : قَوْله ﷺ : (**لَوْلاَ حَدَاثَةُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَلَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَتِ الْبَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ وَلَجَعَلْتُ لَهَا خَلْفًا**) وَفِي الرِّوَايَة الأُخْرَى اِقْتَصَرُوا عَلَى قَوَاعِد إِبْرَاهِيم ، وَفِي الأُخْرَى (**فَإِنَّ قُرَيْشًا اِقْتَصَرَتْهَا**) وَفِي الأُخْرَى (**اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَان الْبَيْت**) وَفِي الأُخْرَى (**قَصَّرُوا فِي الْبِنَاء**) وَفِي الأُخْرَى (**قَصُرَتْ بِهِمْ النَّفَقَة**) .

قَالَ الْعُلَمَاء : هَذِهِ الرِّوَايَات كُلّهَا بِمَعْنًى وَاحِد ، وَمَعْنَى اِسْتَقْصَرَتْ : قَصَّرَتْ عَنْ تَمَام بِنَائِهَا ، وَاقْتَصَرَتْ عَلَى هَذَا الْقَدْر لِقُصُورِ النَّفَقَة بِهِمْ عَنْ تَمَامهَا .

وَفِي هَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِقَوَاعِد مِنْ الأَحْكَام مِنْهَا : إِذَا تَعَارَضَتْ الْمَصَالِح أَوْ تَعَارَضَتْ مَصْلَحَة وَمَفْسَدَة وَتَعَذَّرَ الْجَمْع بَيْن فِعْل الْمَصْلَحَة وَتَرْك الْمَفْسَدَة بُدِئَ بِالأَهَمِّ ؛ لأَنَّ النَّبِيّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ نَقْض الْكَعْبَة وَرَدّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِد إِبْرَاهِيم ﷺ مَصْلَحَة ، وَلَكِنْ تُعَارِضهُ مَفْسَدَة أَعْظَم مِنْهُ ، وَهِيَ خَوْف فِتْنَة بَعْض مَنْ أَسْلَمَ قَرِيبًا ، وَذَلِكَ لِمَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ فَضْل الْكَعْبَة ، فَيَرَوْنَ تَغْيِيرهَا عَظِيمًا ، فَتَرَكَهَا ﷺ .

وَمِنْهَا فِكْر وَلِيّ الأَمْر فِي مَصَالِح رَعِيَّته ، وَاجْتِنَابه مَا يَخَاف مِنْهُ تَوَلُّد ضَرَر

---

(١) أخرجه مسلم في الحج / باب : نقض الكعبة وبنائها ٢/ ٩٦٩ ح ١٣٣٣ .

(٢) أخرجاه في الموضعين السابقين .

عَلَيْهِمْ فِي دِينَ أَوْ دُنْيَا إِلاَّ الأُمُور الشَّرْعِيَّة كَأَخْذِ الزَّكَاة وَإِقَامَة الْحُدُود وَنَحْو ذَلِكَ. وَمِنْهَا : تَأَلُّف قُلُوب الرَّعِيَّة وَحُسْن حِيَاطَتهمْ وَأَلاَّ يَنْفِرُوا وَلاَ يَتَعَرَّض لِمَا يَخَاف تَنْفِيرهمْ بِسَبَبِهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَرْك أَمْر شَرْعِيّ كَمَا سَبَقَ .

قَوْله ﷺ : (**وَلَجَعَلْت لَهَا خَلْفًا**) هُوَ بِفَتْحِ الْخَاء الْمُعْجَمَة وَإِسْكَان اللاَّم وَبِالْفَاءِ ، هَذَا هُوَ الصَّحِيح الْمَشْهُور ، وَالْمُرَاد بِهِ بَاب مِنْ خَلْفهَا ، وَقَدْ جَاءَ مُفَسَّرًا فِي الرِّوَايَة الأُخْرَى (**وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا**) وَفِي صَحِيح الْبُخَارِيّ قَالَ هِشَام : (**خَلْفًا**) يَعْنِي بَابًا وَفِي الرِّوَايَة الأُخْرَى لِمُسْلِمٍ (**بَابَيْنِ أَحَدهمَا يُدْخَل مِنْهُ وَالآخَر يُخْرَج مِنْهُ**) وَفِي رِوَايَة الْبُخَارِيّ (**وَلَجَعَلْت لَهَا خَلْفَيْنِ**) قَالَ الْقَاضِي : وَقَدْ ذَكَرَ الْحَرْبِيّ هَذَا الْحَدِيث هَكَذَا ، وَضَبَطَهُ (**خِلْفَيْنِ**) بِكَسْرِ الْخَاء ، وَقَالَ : الْخَالِفَة عَمُود فِي مُؤَخَّر الْبَيْت. وَقَالَ الْهَرَوِيُّ : خَلْفَيْنِ بِفَتْحِ الْخَاء ، قَالَ الْقَاضِي : وَكَذَا ضَبَطْنَاهُ عَلَى شَيْخنَا أَبِي الْحُسَيْن ، قَالَ : وَذَكَرَ الْهَرَوِيُّ عَنْ ابْن الأَعْرَابِيّ أَنَّ الْخَلْف الظَّهْر ، وَهَذَا يُفَسِّر أَنَّ الْمُرَاد الْبَاب كَمَا فَسَّرَتْهُ الأَحَادِيث الْبَاقِيَة .

قَوْله ﷺ : (**لَوْلاَ أَنَّ قَوْمك حَدِيثُو عَهْد بِجَاهِلِيَّة أَوْ قَالَ بِكُفْرٍ لأَنْفَقْتُ كَنْز الْكَعْبَة فِي سَبِيل اللَّه**) . فِيهِ : دَلِيل لِتَقْدِيمِ أَهَمّ الْمَصَالِح عِنْد تَعَذُّر جَمِيعهَا ، كَمَا سَبَقَ إِيضَاحه فِي أَوَّل الْحَدِيث : وَفِيهِ دَلِيل لِجَوَازِ إِنْفَاق كَنْز الْكَعْبَة وَنُذُورهَا الْفَاضِلَة عَنْ مَصَالِحهَا فِي سَبِيل اللَّه ، لَكِنْ جَاءَ فِي رِوَايَة : (**لأَنْفَقْتُ كَنْز الْكَعْبَة فِي بِنَائِهَا**) وَبِنَاؤُهَا مِنْ سَبِيل اللَّه ، فَلَعَلَّهُ الْمُرَاد بِقَوْلِهِ فِي الرِّوَايَة الأُولَى (**فِي سَبِيل اللَّه**) . وَمَذْهَبنَا أَنَّ الْفَاضِل مِنْ وَقْف مَسْجِد أَوْ غَيْره لاَ يُصْرَف فِي مَصَالِح مَسْجِد آخَر وَلاَ غَيْره ، بَلْ يُحْفَظ دَائِمًا لِلْمَكَانِ الْمَوْقُوف عَلَيْهِ الَّذِي فَضَلَ مِنْهُ ، فَرُبَّمَا اِحْتَاجَ إِلَيْهِ .

قَوْله ﷺ : (**وَلأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنْ الْحِجْر**) وَفِي رِوَايَة (**وَزِدْت فِيهَا سِتَّة أَذْرُع مِنْ الْحِجْر فَإِنَّ قُرَيْشًا اِقْتَصَرَتْهَا حِين بَنَتْ الْكَعْبَة**) وَفِي رِوَايَة (**خَمْس أَذْرُع**) وَفِي رِوَايَة (**قَرِيبًا مِنْ سَبْع أَذْرُع**) وَفِي رِوَايَة (**قَالَتْ عَائِشَة سَأَلْتُ رَسُول اللَّه ﷺ عَنْ الْجِدَار أَمِنَ الْبَيْت هُوَ؟ قَالَ : نَعَمْ**) وَفِي رِوَايَة (**لَوْلاَ أَنَّ قَوْمك حَدِيث عَهْدهمْ فِي**

الْجَاهِلِيَّة فَأَخَاف أَنْ تُنْكِرهُ قُلُوبهمْ لَنَظَرْت أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْر فِي الْبَيْت) قَالَ أَصْحَابنَا : سِتّ أَذْرُع مِنْ الْحِجْر مِمَّا يَلِي الْبَيْت مَحْسُوبَة مِنْ الْبَيْت بِلَا خِلَاف ، وَفِي الزَّائِد خِلَاف فَإِنْ طَافَ فِي الْحِجْر وَبَيْنه وَبَيْن الْبَيْت أَكْثَر مِنْ سِتَّة أَذْرُع فَفِيهِ وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا

أَحَدهمَا : يَجُوز لِظَوَاهِر هَذِهِ الْأَحَادِيث ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي رَجَّحَهُ جَمَاعَات مِنْ أَصْحَابنَا الْخُرَاسَانِيِّينَ . وَالثَّانِي : لَا يَصِحّ طَوَافه فِي شَيْء مِنْ الْحِجْر وَلَا عَلَى جِدَاره، وَلَا يَصِحّ حَتَّى يَطُوف خَارِجًا مِنْ جَمِيع الْحِجْر ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيح ، وَهُوَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيّ ، وَقَطَعَ بِهِ جَمَاهِير أَصْحَابنَا الْعِرَاقِيِّينَ ، وَرَجَّحَهُ جُمْهُور الْأَصْحَاب ، وَبِهِ قَالَ جَمِيع عُلَمَاء الْمُسْلِمِينَ سِوَى أَبِي حَنِيفَة ، فَإِنَّهُ قَالَ : إِنْ طَافَ فِي الْحِجْر وَبَقِيَ فِي مَكَّة أَعَادَهُ ، وَإِنْ رَجَعَ مِنْ مَكَّة بِلَا إِعَادَة أَرَاقَ دَمًا وَأَجْزَأَهُ طَوَافه ، وَاحْتَجَّ الْجُمْهُور بِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ طَافَ مِنْ وَرَاء الْحِجْر ، وَقَالَ : " لِتَأْخُذُوا مَنَاسِككُمْ " ثُمَّ أَطْبَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ زَمَنه ﷺ إِلَى الْآن ، وَسَوَاء كَانَ كُلّه مِنْ الْبَيْت أَمْ بَعْضه ، فَالطَّوَاف يَكُون مِنْ وَرَائِهِ كَمَا فَعَلَ النَّبِيّ ﷺ .

وَوَقَعَ فِي رِوَايَة **(سِتَّة أَذْرُع)** بِالْهَاءِ ، وَفِي رِوَايَة **(خَمْس)** وَفِي رِوَايَة **(قَرِيبًا مِنْ سَبْع)** بِحَذْفِ الْهَاء ، وَكِلَاهُمَا صَحِيح ، فَفِي الذِّرَاع لُغَتَانِ مَشْهُورَتَانِ التَّأْنِيث وَالتَّذْكِير ، وَالتَّأْنِيث أَفْصَح (١) .

أما بناء ابن الزبير فكان على ما أراد وتمنى النبي ﷺ لما سمعه من خالته السيدة عائشة رضي الله عنها ، لكن الحجاج بن يوسف الثقفي اعتبر هذا ابتداعاً من ابن الزبير فكتب بذلك إلى عبد الملك بن مروان فأمره برده إلى مكان عليه من بناء قريش، وقد ندم عبد الملك بن مروان لما استوثق من سماع ابن الزبير لهذه الأحاديث من خالته السيدة عائشة رضي الله عنها .

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٩/٨٨: ٩١ بتصرف .

فعن عَبْد اللَّه بْنُ عُبَيْدٍ قال : وَفَدَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خِلافَتِهِ فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : مَا أَظُنُّ أَبَا خُبَيْبٍ - يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ - سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مَا كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهَا . قَالَ الْحَارِثُ : بَلَى أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْهَا قَالَ : سَمِعْتَهَا تَقُولُ مَاذَا؟ قَالَ : قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **(إِنَّ قَوْمَكِ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَانِ الْبَيْتِ وَلَوْلاَ حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشِّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ فَإِنْ بَدَا لِقَوْمِكِ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لأُرِيَكِ مَا تَرَكُوا مِنْهُ فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ)** هَذَا حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدٍ وَزَادَ عَلَيْهِ الْوَلِيدُ بْنُ عَطَاءٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : **(وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الأَرْضِ شَرْقِيًّا وَغَرْبِيًّا ، وَهَلْ تَدْرِينَ لِمَ كَانَ قَوْمُكِ رَفَعُوا بَابَهَا ؟)** قَالَتْ قُلْتُ : لاَ قَالَ : **(تَعَزُّزًا أَنْ لاَ يَدْخُلَهَا إِلاَّ مَنْ أَرَادُوا ، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدَعُونَهُ يَرْتَقِي حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ)** قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِلْحَارِثِ أَنْتَ سَمِعْتَهَا تَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ : فَنَكَتَ سَاعَةً بِعَصَاهُ . ثُمَّ قَالَ : وَدِدْتُ أَنِّي تَرَكْتُهُ وَمَا تَحَمَّلَ (١) .

---

(١) أخرجه مسلم في الحج / باب : نقض الكعبة وبنائها ٢/ ٩٧١ ، ٩٧١ ح ١٣٣٣ .

دخول الأصنام إلى الكعبة :

اتخذ أهل مكة وغيرها من البلاد والقبائل المحيطة بها آلهة يعبدونها من دون الله ، على زعم منهم أنها تنفع وتضر ، أو أنهم يتقربون بها إلى الله . قال تعالى : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)(١).

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ فِي بَعْضِ أُمُورِهِ فَلَمَّا قَدِمَ مَآبَ مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ ، وَبِهَا يَوْمَئِذٍ الْعَمَالِيقُ - وَهُمْ وَلَدُ عِمْلَاقٍ . وَيُقَالُ عِمْلِيقُ بْنُ لَاوِذْ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ - رَآهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَقَالَ لَهُمْ : مَا هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي أَرَاكُمْ تَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا لَهُ : هَذِهِ أَصْنَامٌ نَعْبُدُهَا ، فَنَسْتَمْطِرُهَا فَتُمْطِرُنَا ، وَنَسْتَنْصِرُهَا فَتَنْصُرُنَا ، فَقَالَ لَهُمْ أَفَلَا تُعْطُونَنِي مِنْهَا صَنَمًا ، فَأَسِيرَ بِهِ إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ ، فَيَعْبُدُوهُ ؟ فَأَعْطَوْهُ صَنَمًا يُقَالُ لَهُ هُبَلُ فَقَدِمَ بِهِ مَكَّةَ ، فَنَصَبَهُ وَأَمَرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ وَتَعْظِيمِهِ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَاتَّخَذَ أَهْلُ كُلِّ دَارٍ فِي دَارِهِمْ صَنَمًا يَعْبُدُونَهُ ، فَإِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ سَفَرًا تَمَسَّحَ بِهِ حِينَ يَرْكَبُ ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ مَا يَصْنَعُ حِينَ يَتَوَجَّهُ إِلَى سَفَرِهِ ، وَإِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ تَمَسَّحَ بِهِ فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا يَبْدَأُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى أَهْلِهِ ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالتَّوْحِيدِ قَالَتْ قُرَيْشٌ : { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }(٢) وَكَانَتْ الْعَرَبُ قَدْ اتَّخَذَتْ مَعَ الْكَعْبَةِ طَوَاغِيتَ ، وَهِيَ بُيُوتٌ تُعَظِّمُهَا كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ ، لَهَا سَدَنَةٌ وَحُجَّابٌ ، وَتُهْدِي لَهَا كَمَا تُهْدِي لِلْكَعْبَةِ

(١) سورة الزمر : آية (٣) .
(٢) وجاء ذلك في سورة ص : آية (٥) .

وَتَطُوفُ بِهِ كَطَوَافِهَا بِهَا ، وَتَنْحَرُ عِنْدَهَا . وَهِيَ تَعْرِفُ فَضْلَ الْكَعْبَةِ عَلَيْهَا ، لأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَمَسْجِدُهُ (١) .

والصنم ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس . والجمع أصنام وقيل هو ما كان له جسم أو صورة فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن (٢) .

قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة (٣) .

والوثنية ببلاد العرب ترجع إلى عهد بعيد جداً . قيل إن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ، ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد لالتماس المعاش .

وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمنا منهم وصبابة بالحرم وحباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل

ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم وانتجثوا(٤)

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٧/١ : ٥٠ .

(٢) لسان العرب . مادة : صنم .

(٣) النهاية في غريب الحديث . مادة : وثن .

(٤) أي : استخرجوا .

ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

وقد جاء في القرآن ذكر الأصنام الخمسة التي كان يعبدها قوم نوح . قال تعالى : { قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً - وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً - وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً - وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً } (١).

ومن الأصنام المشهورة القديمة إساف ونائلة عبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب .

ومناة كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج . وقد ورد ذكر مناة في القرآن قال تعالى { وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى } (٢) وكانت لهذيل وخزاعة ، وقد هدمها علي ﷺ عند فتح مكة بأمر رسول الله ﷺ .

والفلس وهو صنم طيئ هدمه علي ﷺ بأمر رسول الله ﷺ .

واللات وهي أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكانت قريش كلها تعظمها وهي بالطائف . ذكرها الله في القرآن فقال { أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى }(٣) ولم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار .

ومن أصنامهم العزى ويقال إنها أحدث من اللات ومناة . كانت بواد نخلة الشآمية ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانوا يزورونها ويهدون لها ، ويتقربون عندها

---

(١) سورة نوح : الآيات (٢١ : ٢٤) .
(٢) سورة النجم : آية (٢٠) .
(٣) سورة النجم : آية (١٩) .

بالذبح . قال ابن حبيب : العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان . وفي التنزيل {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى }(١) .

ولم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه ﷺ فعابها وغيرها من الأصنام ، ونهاهم عن عبادتها ، ونزل القرآن فيها فأشتد ذلك على قريش ، ومرض أبو أحيحة سعيد بن العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرضه الذي مات فيه ، فدخل عليه أبولهب فوجده يبكي فقال له ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه ؟ فقال : لا . ولكني أخاف ألا تعبد (العزى) بعدي ! . فقال له أبو لهب : ما عبدت في حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لي خليفة وأعجبته شدة نصبه في عبادتها .

وتدل القصة على شدة التمسك بعبادة الأصنام ، فلما افتتح النبي ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فهدمها ، وكانت لقريش أصنام حول الكعبة وفي جوفها ، وكان أعظمها عندهم هبل . قيل : إنه كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان ، مكسورة اليد اليمنى . أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ، وكان أول من نصبه : خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر ، وكان يقال له هبل خزيمة . وعنده ضرب عبدالمطلب على ابنه عبد الله بالقداح .

فلما ظهر رسول الله ﷺ يوم فتح مكة أخرجت من المسجد وحرقت وكان يبلغ عددها ٣٦٠ صنماً (٢) .

(١) سورة النجم : آية (١٩ ، ٢٠) .

(٢) محمد ﷺ . ص : ٥٥ بتصرف .

- **عام الفيل**
- **تصدى قبائل العرب لأصحاب الفيل**
- **رسل أبرهة إلى أهل مكة**
- **خروج عبد المطلب من مكة ودخوله على أبرهة**
- **أهل مكة وأصحاب الفيل**

عام الفيل :

هذا هو العام الذي أرخ العلماء لميلاد النبي ﷺ فيه ، وقد ذكر الله تعالى قصة أصحاب الفيل في القرآن الكريم في سورة تحمل اسم الفيل بطل هذه القصة ، فقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ - أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ - وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ - تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ - فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) (١) .

وسبب هذه القصة أن أبرهة الأشرم أحد قواد النجاشي على اليمن قد بنى كنيسة تسمى القليس ، فجاء أحد الأعراب فأحدث فيها ، امتهاناً واحتقاراً لها حينما سمع أن أبرهة بناها ليضاهي بها بيت الله الحرام وليصرف العرب عن حجه والذهاب إليها بدلاً منه ، فغضب أبرهة وأقسم ليهدمن الكعبة بيت الله الحرام .

يقول ابن إسحاق : ثُمّ إنّ أَبْرَهَةَ بَنَى الْقُلّيْس بِصَنْعَاءَ ، فَبَنَى كَنِيسَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي زَمَانِهَا بِشَيْءٍ مِنْ الأَرْضِ ثُمّ كَتَبَ إلَى النّجَاشِيّ : إنّي قَدْ بَنَيْتُ لَك أَيّهَا الْمَلِكُ كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا لِمَلِك كَانَ قَبْلَك ، وَلَسْت بِمُنْتَهٍ حَتّى أَصْرِفَ إلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ ، فَلَمّا تَحَدّثَتْ الْعَرَبُ بِكِتَابِ أَبْرَهَةَ ذَلِكَ إلَى النّجَاشِيّ غَضِبَ رَجُلٌ مِنْ النّسَأَةِ . أَحَدُ بَنِي فُقَيْمِ بْنِ عَدِيّ ابْنِ عَامِرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إلْيَاسَ مِنْ مُضَرَ .

وَمَعْنَى النّسَأَةُ : هُمْ الّذِينَ كَانُوا يَنْسَئُونَ الشّهُورَ عَلَى الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيّةِ فَيُحِلّونَ الشّهْرَ مِنْ الأَشْهُرِ الْحُرُمِ وَيُحَرّمُونَ مَكَانَهُ الشّهْرَ مِنْ أَشْهُرِ الْحِلّ وَيُؤَخّرُونَ ذَلِكَ الشّهْرَ فَفِيهِ أَنْزَلَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : { إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ

---

(١) سورة الفيل .

كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ (١) }(٢) .

وعن كيفية بناء هذه الكنيسة وما حل بها يقول الإمام السهيلي : وَهِيَ الْكَنِيسَةُ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهَا حَجَّ الْعَرَبِ ، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْكَنِيسَةُ : الْقُلَّيْسَ لارْتِفَاعِ بِنَائِهَا وَعُلُوِّهَا ، وَمِنْهُ الْقَلانِسُ لأَنَّهَا فِي أَعْلَى الرُّءُوسِ ، وَيُقَالُ تَقَلْنَسَ الرَّجُلُ وَتَقَلَّسَ ، وَكَانَ أَبْرَهَةُ قَدْ اسْتَذَلَّ أَهْلَ الْيَمَنِ فِي بُنْيَانِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ ، وَجَشَّمَهُمْ فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ السُّخْرِ ، وَكَانَ يَنْقُلُ إِلَيْهَا الْعَدَدَ مِنَ الرُّخَامِ الْمُجَزَّعِ ، وَالْحِجَارَةُ الْمَنْقُوشَةُ بِالذَّهَبِ مِنْ قَصْرِ بِلْقِيسَ صَاحِبَةِ سُلَيْمَانَ ﷺ ، وَكَانَ فِي مَوْضِعِ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ عَلَى فَرَاسِخَ ، وَكَانَ فِيهِ بَقَايَا مِنْ آثَارِ مُلْكِهَا ، فَاسْتَعَانَ بِذَلِكَ عَلَى مَا أَرَادَهُ فِي هَذِهِ الْكَنِيسَةِ مِنْ بَهْجَتِهَا وَبَهَائِهَا ، وَنَصَبَ فِيهَا صُلْبَانًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمَنَابِرَ مِنَ الْعَاجِ وَالآبَنُوسِ ، وَكَانَ أَرَادَ أَنْ يَرْفَعَ فِي بِنَائِهَا حَتَّى يُشْرِفَ مِنْهَا عَلَى عَدَنَ ، وَكَانَ حُكْمُهُ فِي الْعَامِلِ إِذَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ فِي عَمَلِهِ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ ، فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ حَتَّى طَلَعَتْ الشَّمْسُ فَجَاءَتْ مَعَهُ أُمُّهُ وَهِيَ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ فَتَضَرَّعَتْ إِلَيْهِ تَسْتَشْفِعُ لابْنِهَا ، فَأَبَى إِلاَّ أَنْ يَقْطَعَ يَدَهُ ، فَقَالَتْ اضْرِبْ بِمِعْوَلِكَ الْيَوْمَ فَالْيَوْمُ لَكَ ، وَغَدًا لِغَيْرِكَ ، فَقَالَ وَيْحَكِ مَا قُلْتِ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ كَمَا صَارَ هَذَا الْمُلْكُ مِنْ غَيْرِكَ إِلَيْكَ ، فَكَذَلِكَ يَصِيرُ مِنْكَ إِلَى غَيْرِكَ ، فَأَخَذَتْهُ مَوْعِظَتُهَا ، وَأَعْفَى النَّاسَ مِنَ الْعَمَلِ فِيهَا بَعْدُ . فَلَمَّا هَلَكَ وَمُزِّقَتْ الْحَبَشَةُ كُلَّ مُمَزَّقٍ وَأُقْفِرَ مَا حَوْلَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ فَلَمْ يَعْمُرْهَا أَحَدٌ ، وَكَثُرَتْ حَوْلَهَا السِّبَاعُ وَالْحَيَّاتُ وَكَانَ كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنْهَا أَصَابَتْهُ الْجِنُّ ، فَبَقِيَتْ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْعُدَدِ وَالْخَشَبِ الْمُرَصَّعِ بِالذَّهَبِ وَالآلاتِ الْمُفَضَّضَةِ الَّتِي تُسَاوِي قَنَاطِيرَ مِنَ الْمَالِ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا شَيْئًا إِلَى زَمَنِ أَبِي الْعَبَّاسِ فَذُكِرَ لَهُ أَمْرُهَا ، وَمَا يُتَهَيَّبُ مِنْ جِنِّهَا وَحَيَّاتِهَا ، فَلَمْ يَرُعْهُ ذَلِكَ . وَبَعَثَ إِلَيْهَا بِابْنِ الرَّبِيعِ عَامِلِهِ عَلَى الْيَمَنِ مَعَهُ أَهْلُ الْحَزْمِ وَالْجَلادَةِ فَخَرَّبَهَا ، وَحَصَّلُوا مِنْهَا مَالاً كَثِيرًا بِبَيْعِ مَا أَمْكَنَ بَيْعُهُ مِنْ رُخَامِهَا

(١) سورة التوبة : آية (٣٧) .

(٢) سيرة ابن هشام ٣٠/١ .

وَآلاتِهَا ، فَعَفَا بَعْدَ ذَلِكَ رَسْمُهَا ، وَانْقَطَعَ خَبَرُهَا ، وَدُرِسَتْ آثَارُهَا ، وَكَانَ الَّذِي يُصِيبُهُمْ مِنَ الْجِنِّ يَنْسُبُونَهُ إِلَى كُعَيْبٍ وَامْرَأَتِهِ صَنَمَيْنِ كَانَتْ الْكَنِيسَةُ عَلَيْهِمَا ، فَلَمَّا كُسِرَ كُعَيْبٌ وَامْرَأَتُهُ أُصِيبَ الَّذِي كَسَرَهُ بِجُذَامٍ فَافْتُتِنَ بِذَلِكَ رَعَاعُ الْيَمَنِ وَطَغَامُهُمْ وَقَالُوا : أَصَابَهُ كُعَيْبٌ وَذَكَرَ أَبُو الْوَلِيدِ الأَزْرَقِيّ أَنَّ كُعَيْبًا كَانَ مِنْ خَشَبٍ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا (١) .

وعن السبب في توجه أبرهة لهدم بيت الله الحرام يقول ابن إسحاق : خَرَجَ الْكِنَانِيّ حَتَّى أَتَى الْقُلَّيْس فَقَعَدَ فِيهَا – قَالَ ابْنُ هِشَامٍ يَعْنِي أَحْدَثَ فِيهَا – قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثُمَّ خَرَجَ فَلَحِقَ بِأَرْضِهِ فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ أَبْرَهَةُ فَقَالَ مَنْ صَنَعَ هَذَا ؟ فَقِيلَ لَهُ صَنَعَ هَذَا رَجُلٌ مِنْ الْعَرَبِ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي تَحُجّ الْعَرَبُ إِلَيْهِ بِمَكَّةَ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَك : " أَصْرِفُ إِلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ " غَضِبَ فَجَاءَ فَقَعَدَ فِيهَا ، أَيْ أَنَّهَا لَيْسَتْ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ . فَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ أَبْرَهَةُ وَحَلَفَ لَيَسِيرَنَ إِلَى الْبَيْتِ حَتَّى يَهْدِمَهُ ثُمّ أَمَرَ الْحَبَشَةَ فَتَهَيّأَتْ وَتَجَهّزَتْ ثُمّ سَارَ وَخَرَجَ مَعَهُ بِالْفِيلِ وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ الْعَرَبُ ، فَأَعْظَمُوهُ وَفَظِعُوا بِهِ وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقًّا عَلَيْهِمْ حِينَ سَمِعُوا بِأَنّهُ يُرِيدُ هَدْمَ الْكَعْبَةِ ، بَيْتِ اللّهِ الْحَرَامِ (٢) .

تصدى قبائل العرب لأصحاب الفيل :

على الرغم من وثنية معظم قبائل العرب آنذاك ، إلا أن بيت الله الحرام كان يمثل قيمة عليا في قلوبهم ، فكانوا يعظمونه ، ويهابون منه ، وكانوا يعلمون جيداً حرمته وقداسته ، وأنه البيت الذي بناه الخليل عليه السلام ، وأنهم نالوا شرف الانتساب لهذا البيت العتيق ، الذي يعدونه من مفاخر الآباء والأجداد .

وعن تصدى قبائل العرب لأصحاب الفيل يقول ابن إسحاق : فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ يُقَالُ لَهُ ذُو نَفْرٍ ، فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ

---

(١) الروض الأنف ١/١١١ ، ١١٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٣١ .

الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ وَجِهَادِهِ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَإِخْرَابِهِ فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ مَنْ أَجَابَهُ ثُمّ عَرَضَ لَهُ فَقَاتَلَهُ فَهُزِمَ ذُو نَفْرٍ وَأَصْحَابُهُ وَأُخِذَ لَهُ ذُو نَفْرٍ فَأُتِيَ بِهِ أَسِيرًا ، فَلَمّا أَرَادَ قَتْلَهُ قَالَ لَهُ ذُو نَفْرٍ : أَيّهَا الْمَلِكُ لاَ تَقْتُلْنِي فَإِنّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَائِي مَعَك خَيْرًا لَك مِنْ قَتْلِي ، فَتَرَكَهُ مِنْ الْقَتْلِ وَحَبَسَهُ عِنْدَهُ فِي وَثَاقٍ وَكَانَ أَبْرَهَةُ رَجُلاً حَلِيمًا .

ثُمّ مَضَى أَبْرَهَةُ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ يُرِيدُ مَا خَرَجَ لَهُ حَتّى إذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمَ عَرَضَ لَهُ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيّ فِي قَبِيلَيْ خَثْعَمَ : شَهْرَانِ وَنَاهِسُ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، فَقَاتَلَهُ فَهَزَمَهُ أَبْرَهَةُ وَأُخِذَ لَهُ نُفَيْلٌ أَسِيرًا فَأُتِيَ بِهِ فَلَمّا هَمّ بِقَتْلِهِ قَالَ لَهُ نُفَيْلٌ أَيّهَا الْمَلِكُ لاَ تَقْتُلْنِي فَإِنّي دَلِيلُك بِأَرْضِ الْعَرَبِ ، وَهَاتَانِ يَدَايَ لَك عَلَى قَبِيلَيْ خَثْعَمَ: شَهْرَانِ وَنَاهِسُ بِالسّمْعِ وَالطّاعَةِ فَخَلّى سَبِيلَهُ .

وَخَرَجَ بِهِ مَعَهُ يَدُلّهُ حَتّى إذَا مَرّ بِالطّائِفِ خَرَجَ إلَيْهِ مَسْعُودُ بْنُ مُعَتّبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَرْوِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفٍ فِي رِجَالِ ثَقِيفٍ ، فَقَالُوا لَهُ أَيّهَا الْمَلِكُ إنّمَا نَحْنُ عَبِيدُك سَامِعُونَ لَك مُطِيعُونَ لَيْسَ عِنْدَنَا لَك خِلاَفٌ . وَلَيْسَ بَيْتُنَا هَذَا الْبَيْتَ الّذِي تُرِيدُ - يَعْنُونَ اللاّتِي - إنّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الّذِي بِمَكّةَ . وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَك مَنْ يَدُلّك عَلَيْهِ فَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ .

فَبَعَثُوا مَعَهُ أَبَا رِغَالٍ يَدُلّهُ عَلَى الطّرِيقِ إلَى مَكّةَ فَخَرَجَ أَبْرَهَةُ ومعه أَبُو رِغَالٍ حَتّى أَنْزَلَهُ الْمُغَمّسَ ؛ فَلَمّا أَنْزَلَهُ بِهِ مَاتَ أَبُو رِغَالٍ هُنَالِكَ فَرَجَمَتْ قَبْرَهُ الْعَرَبُ ، فَهُوَ الْقَبْرُ الّذِي يَرْجُمُ النّاسُ بِالْمُغَمّسِ (١) .

رسل أبرهة إلى أهل مكة :

لما اقترب أبرهة من مكة أرسل رسلاً يأتونه بأخبار هذا البلد يقول ابن إسحاق :

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٢/١ ، ٣٣ .

فَلَمَّا نَزَلَ أَبْرَهَةُ الْمُغَمَّسَ (مكان بطريق الطائف) بَعَثَ رَجُلاً مِنْ الْحَبَشَةِ يُقَالُ لَهُ الأَسْوَدُ بْنُ مَقْصُود عَلَى خَيْلٍ لَهُ حَتَّى انْتَهَى إلَى مَكَّةَ ، فَسَاقَ إلَيْهِ أَمْوَالَ (أَهْلِ) تِهَامَةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ وَأَصَابَ فِيهَا مِائَتَيْ بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا فَهَمَّتْ قُرَيْشٌ وَكِنَانَةُ وَهُذَيْلٌ وَمَنْ كَانَ بِذَلِكَ الْحَرَمِ (مِنْ سَائِرِ النَّاسِ) بِقِتَالِه . ثُمّ عَرَفُوا أَنّهُمْ لاَ طَاقَةَ لَهُمْ بِه فَتَرَكُوا ذَلِكَ .

وَبَعَثَ أَبْرَهَةُ – حُنَاطَةَ الْحِمْيَرِيّ إلَى مَكّةَ ، وَقَالَ لَهُ سَلْ عَنْ سَيّدِ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ وَشَرِيفِهَا ثُمّ قُلْ (لَهُ) : إنّ الْمَلِكَ يَقُولُ لَك : إنّي لَمْ آتِ لِحَرْبِكُمْ إنّمَا جِئْت لِهَدْمِ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنْ لَمْ تَعْرِضُوا دُونَهُ بِحَرْبٍ فَلاَ حَاجَةَ لِي بِدِمَائِكُمْ فَإِنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي فَأْتِنِي بِه. فَلَمّا دَخَلَ حُنَاطَةُ مَكّةَ سَأَلَ عَنْ سَيّدِ قُرَيْشٍ وَشَرِيفِهَا فَقِيلَ لَهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ بْنُ هَاشِمِ ابْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيّ فَجَاءَهُ فَقَالَ لَهُ مَا أَمَرَهُ بِه أَبْرَهَةُ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ : وَاَللّهِ مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ هَذَا بَيْتُ اللّهِ الْحَرَامُ وَبَيْتُ خَلِيلِه إبْرَاهِيمَ عليه السلام – أَوْ كَمَا قَالَ – فَإِنْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ وَحَرَمُهُ . وَإِنْ يُخَلّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَوَاَللّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعٌ فَقَالَ (لَهُ) حُنَاطَةُ : فَانْطَلِقْ مَعِي إلَيْهِ فَإِنّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ آتِيَهُ بِك (١) .

خروج عبد المطلب من مكة ودخوله على أبرهة :

خرج عبد المطلب بن هاشم لطلب الإبل من أبرهة ، أما الدفاع عن البيت فعقيدة أهل مكة وسكان الجزيرة العربية أن هذا البيت هو بيت الله تكفل بحمايته وحراسته ممن يريد أن يعتدي عليه ، لذا كانت وجهة عبد المطلب إلى أبرهة واحدة يقصد من ورائها الإبل فقط ، أما البيت فله رب يحميه ، وهذه عقيدة راسخة عندهم .

يقول ابن إسحاق : فَانْطَلَقَ مَعَهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ ، وَمَعَهُ بَعْضُ بَنِيهِ حَتّى أَتَى الْعَسْكَرَ فَسَأَلَ عَنْ ذِي نَفْرٍ وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا ، حَتّى دَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَحْبِسِه فَقَالَ لَهُ يَا ذَا نَفْرٍ هَلْ عِنْدَك مِنْ غَنَاءٍ فِيمَا نَزَلَ بِنَا ؟ فَقَالَ لَهُ ذُو نَفْرٍ : وَمَا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ بِيَدَيْ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ غُدُوّا أَوْ عَشِيّا ، مَا عِنْدَنَا غَنَاءٌ فِي شَيْءٍ مِمّا نَزَلَ بِك إلاّ أَنّ أُنَيْسًا

(١) سيرة ابن هشام ٣٢/١ ، ٣٣ .

سَائسَ الْفيلِ صَديقٌ لِي ، وَسَأُرْسِلُ إِلَيْهِ فَأُوصِيهِ بِك ، وَأُعْظِمُ عَلَيْهِ حَقَّك ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَك عَلَى الْمَلِك فَتُكَلِّمُهُ بِمَا بَدَا لَك . وَيَشْفَعُ لَك عِنْدَهُ بِخَيْرٍ إنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ ، فَقَالَ : حَسْبِي . فَبَعَثَ ذُو نَفَرٍ إلَى أُنَيْسٍ فَقَالَ لَهُ : إنّ عَبْدَ الْمُطّلِبِ سَيّدُ قُرَيْشٍ ، وَصَاحِبُ عِيرِ مَكّةَ ، يُطْعِمُ النّاسَ بِالسّهْلِ وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ ، وَقَدْ أَصَابَ لَهُ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ فَاسْتَأْذِنْ لَهُ عَلَيْهِ . وَانْفَعْهُ عِنْدَهُ بِمَا اسْتَطَعْت ، فَقَالَ : أَفْعَلُ . فَكَلّمَ أُنَيْسٌ أَبْرَهَةَ فَقَالَ لَهُ : أَيّهَا الْمَلِكُ هَذَا سَيّدُ قُرَيْشٍ بِبَابِك يَسْتَأْذِنُ عَلَيْك ، وَهُوَ صَاحِبُ عِيرِ مَكّةَ ، وَهُوَ يُطْعِمُ النّاسَ فِي السّهْلِ وَالْوُحُوشَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ فَأْذَنْ لَهُ عَلَيْك ، فَيُكَلّمك فِي حَاجَتِه (وَأَحْسِنْ إلَيْهِ) قَالَ : فَأَذِنَ لَهُ أَبْرَهَةُ . وَكَانَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ أَوْسَمَ النّاسِ وَأَجْمَلَهُمْ وَأَعْظَمَهُمْ ، فَلَمّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَجَلّهُ وَأَعْظَمَهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ أَنْ يُجْلِسَهُ تَحْتَهُ وَكَرِهَ أَنْ تَرَاهُ الْحَبَشَةُ يَجْلِسُ مَعَهُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِه ، فَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ عَلَى بِسَاطِهِ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَيْهِ إلَى جَنْبِهِ ، ثُمّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ : قُلْ لَهُ حَاجَتُك ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ التّرْجُمَانُ . فَقَالَ : حَاجَتِي أَنْ يَرُدّ عَلَيّ الْمَلِكُ مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي ، فَلَمّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ قَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ : كُنْتَ أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُك ، ثُمّ قَدْ زَهِدت فِيك حِين كَلّمْتَنِي، أَتُكَلّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ أَصَبْتُهَا لَك ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُك وَدِينُ آبَائِك قَدْ جِئْتُ أَهْدِمُهُ لاَ تُكَلّمُنِي فِيهِ ؟ قَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ : إنّي أَنَا رَبّ الإِبِلِ وَإِنّ لِلْبَيْتِ رَبّا سَيَمْنَعُهُ ، قَالَ مَا كَانَ لِيَمْتَنِعَ مِنّي ، قَالَ أَنْتَ وَذَاكَ ، فَرَدّ أَبْرَهَةُ عَلَى عَبْدِ الْمُطّلِبِ الإِبِلَ الّتِي أَصَابَ لَهُ (١) .

أهل مكة وأصحاب الفيل :

أدرك عبد المطلب خلال لقاءه مع أبرهة أنه عازم على هدم البيت لا محالة ، وخصوصاً أن كثيراً من قبائل العرب نصحوه بالرجوع فلم يستمع لنصحهم ومضى في غيه وضلاله.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٣/١ ، ٣٤ .

قال ابن إسحاق : فَلَمّا انصَرَفُوا عَنْهُ انصَرَفَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ إلَى قُرَيْشٍ ، فَأَخْبَرَهُمْ الْخَبَرَ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكّةَ ، وَالتّحَرّزِ فِي شَعَفِ الْجِبَالِ وَالشّعَابِ تَخَوّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرّةِ الْجَيْشِ ثُمّ قَامَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ ، فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللّهَ ويستنصرونه عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ .

فَلَمّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيّأَ لِدُخُولِ مَكّةَ ، وَهَيّأَ فِيلَهُ وَعَبّى جَيْشَهُ وَكَانَ اسْمُ الْفِيلِ مَحْمُودًا وَأَبْرَهَةُ مُجْمِعٌ لِهَدْمِ الْبَيْتِ ، ثُمّ الانصراف إلَى الْيَمَنِ فَلَمّا وَجّهُوا الْفِيلَ إلَى مَكّةَ ، أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ (الْخَثْعَمِيّ) حَتّى قَامَ إلَى جَنْبِ الْفِيلِ ثُمّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ . فَقَالَ ابْرُكْ مَحْمُودُ أَوْ ارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْت ، فَإِنّك فِي بَلَدِ اللّهِ الْحَرَامِ ثُمّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ فَبَرَكَ الْفِيلُ وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدّ حَتّى أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى ، فَضَرَبُوا (فِي) رَأْسِهِ بِالطّبَرْزِينِ لِيَقُومَ فَأَبَى فَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقّهِ فَبَزَغُوهُ بِهَا لِيَقُومَ فَأَبَى ، فَوَجّهُوهُ رَاجِعًا إلَى الْيَمَنِ ، فَقَامَ يُهَرْوِلُ وَوَجّهُوهُ إلَى الشّامِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجّهُوهُ إلَى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ وَوَجّهُوهُ إلَى مَكّةَ فَبَرَكَ فَأَرْسَلَ الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طَائِرٍ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا : حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ أَمْثَالُ الْحِمّصِ وَالْعَدَسِ ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إلّا هَلَكَ وَلَيْسَ كُلّهُمْ أَصَابَتْ . وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطّرِيقَ الّذِي مِنْهُ جَاءُوا ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ لِيَدُلّهُمْ عَلَى الطّرِيقِ إلَى الْيَمَنِ ، فَقَالَ نُفَيْلٌ حِينَ رَأَى مَا أَنْزَلَ اللّهُ بِهِمْ مِنْ نِقْمَتِهِ :

أَيْنَ الْمَفَرّ وَالْإِلَهُ الطّالِبُ *** وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وَأُصِيبَ أَبْرَهَةُ فِي جَسَدِهِ وَخَرَجُوا بِهِ مَعَهُمْ تَسْقُطُ (أنامله) أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً كُلّمَا سَقَطَتْ أُنْمُلَةٌ أَتْبَعَتْهَا مِنْهُ مِدّةٌ تَمُثّ قَيْحًا وَدَمًا ، حَتّى قَدِمُوا بِهِ صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ فَرْخِ الطّائِرِ فَمَا مَاتَ حَتّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ فِيمَا يَزْعُمُونَ (١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤ ، ٣٥ .

- مكة أم القرى

- مكانة قريش بين قبائل العرب

مكة أم القرى :

هي تلك البلدة التي استقبلت ميلاد خير البشرية ﷺ ، وهى البلدة التي شرفها الله ببيته العتيق ، وهى أم القرى ، وهى البلدة التي دعا لها الخليل عليه السلام .

قال ابن إسحاق : وكَانَتْ مَكَّةُ فِي الْجَاهِلِيّةِ لاَ تُقِرّ فِيهَا ظُلْمًا وَلاَ بَغْيًا ، وَلاَ يَبْغِي فِيهَا أَحَدٌ إلاّ أَخْرَجَتْهُ فَكَانَتْ تُسَمّى النّاسّةَ (١) ، وَلاَ يُرِيدُهَا مَلِكٌ يَسْتَحِلّ حُرْمَتَهَا إلاّ هَلَكَ مَكَانَهُ ، فَيُقَالُ إنّهَا مَا سُمّيَتْ بِبَكّةِ إلاّ أَنّهَا كَانَتْ تَبُكّ أَعْنَاقَ الْجَبَابِرَةِ إذَا أَحْدَثُوا فِيهَا شَيْئًا(٢) .

وذكرها الله باسمها صراحة تشريفاً وتكريماً لها فقال تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ) (٣) .

وقال : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (٤) .

وقال : (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (٥) .

---

(١) كانت العرب تسمي مكة النّاسّة لأن من بغى فيها أو أحدث فيها حدثاً أخرج عنها فكأنها ساقته ودفعته عنها . لسان العرب . مادة : نسس .
(٢) سيرة ابن هشام ٦٣/١، ٦٤ .
(٣) سورة آل عمران : آية (٩٦) .
(٤) سورة الفتح : آية (٢٤) .
(٥) سورة الأنعام : آية (٩٢) .

وقال : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (١) .

وقال مبيناً دعاء الخليل ﷺ لها فقال تعالى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (٢)

وقال : (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (٣) .

وقد ورد من السنة ما يبين تحريم الله لها فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ خُزَاعَةَ قَتَلُوا رَجُلاً مِنْ بَنِي لَيْثٍ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَتِيلٍ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَخَطَبَ فَقَالَ : (**إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْقَتْلَ - أَوْ - الْفِيلَ**) قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ : كَذَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ ، وَاجْعَلُوهُ عَلَى الشَّكِّ (**الْفِيلَ أَوْ الْقَتْلَ**) وَغَيْرُهُ يَقُولُ : (**الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ، أَلاَ وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي ، أَلاَ وَإِنَّهَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، أَلاَ وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ ، لاَ يُخْتَلَى شَوْكُهَا ، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا ، وَلاَ تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ ، فَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ : إِمَّا أَنْ**

---

(١) سورة الشورى : آية (٧) .
(٢) سورة البقرة : آية (١٢٦) .
(٣) سورة إبراهيم : آية (٣٧) .

يُعْقَلَ وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلُ الْقَتِيلِ) فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ : اكْتُبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ : (اكْتُبُوا لأَبِي فُلاَنٍ) فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ : إِلاَّ الإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنَّا نَجْعَلُهُ فِي بُيُوتِنَا وَقُبُورِنَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِلاَّ الإِذْخِرَ إِلاَّ الإِذْخِرَ) (١) .

وفي رواية مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ قَامَ فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : (إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّهَا لَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي ، وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَإِنَّهَا لَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي ، فَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا وَلاَ يُخْتَلَى شَوْكُهَا ، وَلاَ تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ، وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُفْدَى ، وَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ) فَقَالَ الْعَبَّاسُ : إِلاَّ الإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّا نَجْعَلُهُ فِي قُبُورِنَا وَبُيُوتِنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِلاَّ الإِذْخِرَ) فَقَامَ أَبُو شَاهٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ : اكْتُبُوا لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (اكْتُبُوا لأَبِي شَاهٍ) (٢) .

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : (لاَ هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا) وَقَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلاَ يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلاَّ مَنْ عَرَّفَهَا ، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ) فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري واللفظ له في العلم / بَاب كِتَابَةِ الْعِلْمِ ٣٦/١ ، ومسلم في الحج / بَاب تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلَاهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ ٩٨٨/٢ ح ١٣٥٥ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في العلم / بَاب كِتَابَةِ الْعِلْمِ ٣٦/١ ، ومسلم واللفظ له في الحج / بَاب تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلاَهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ ٩٨٨/٢ ح ١٣٥٥ .

وَلِبُيُوتِهِمْ. قَالَ : (إِلاَّ الإِذْخِرَ) (١) .

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ : ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلاً قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : (**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ فَلاَ يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**) (٢) .

وقد ذكر ابن القيم عدة خواص اختصت بها مكة بلد الله الحرام عن غيرها :

أولها : تَحْرِيمَ اسْتِقْبَالِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَاسْتِدْبَارِهِ عِنْدَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ حَتَّى فِي الْبُنْيَانِ :

قال مِنْ خَوَاصِّهَا أَنَّهُ يَحْرُمُ اسْتِقْبَالُهَا وَاسْتِدْبَارُهَا عِنْدَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ دُونَ سَائِرِ بِقَاعِ الأَرْضِ . وَأَصَحُّ الْمَذَاهِبِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ لاَ فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْفَضَاءِ وَالْبُنْيَانِ لِبِضْعَةَ عَشَرَ دَلِيلاً قَدْ ذَكَرْتُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مَعَ الْمُفَرِّقِ مَا يُقَاوِمُهَا الْبَتَّةَ ، مَعَ تَنَاقُضِهِمْ فِي مِقْدَارِ الْفَضَاءِ وَالْبُنْيَانِ ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِيفَاءِ الْحِجَاجِ مِنْ الطَّرَفَيْنِ .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجزية / بَاب : إِثْمِ الْغَادِرِ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ٤/٧٢، ومسلم في الحج / بَاب : تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلاَهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ ٢/٩٨٦ ح ١٣٥٣ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في العلم / بَاب : لِيُبَلِّغْ الْعِلْمَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ ٣٤/١، ٣٥ ، ومسلم في الحج / بَاب : تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلاَهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ ٢/٩٨٧ ح ١٣٥٤ .

ثانيها : الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ أَوَّلُ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ :

وَمِنْ خَوَاصِّهَا أَيْضًا أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ كَمَا فِي "الصَّحِيحَيْنِ " عَنْ أَبِي ذَر " قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ؟ فَقَالَ : (**الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**) قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ : (**الْمَسْجِدُ الأَقْصَى**) قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : (**أَرْبَعُونَ عَامًا**) (١) .

وَقَدْ أَشْكَلَ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْمُرَادَ بِهِ فَقَالَ مَعْلُومٌ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ هُوَ الَّذِي بَنَى الْمَسْجِدَ الأَقْصَى وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ عَامٍ ، وَهَذَا مِنْ جَهْلِ هَذَا الْقَائِلِ ، فَإِنَّ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا كَانَ لَهُ مِنْ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى تَجْدِيدُهُ لاَ تَأْسِيسُهُ ، وَالَّذِي أَسَّسَهُ هُوَ : يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَآلِهِمَا وَسَلَّمَ بَعْدَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْكَعْبَةَ بِهَذَا الْمِقْدَارِ ، ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أَخْبَرَ أَنَّهَا أُمّ الْقُرَى ، فَالْقُرَى كُلُّهَا تَبَعٌ لَهَا ، وَفَرْعٌ عَلَيْهَا ، وَهِيَ أَصْلُ الْقُرَى ، فَيَجِبُ أَلاَّ يَكُونَ لَهَا فِي الْقُرَى عَدِيلٌ ، فَهِيَ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الْفَاتِحَةِ أَنَّهَا أُمّ الْقُرْآنِ ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ عَدِيلٌ .

ثالثها : لاَ يَجُوزُ دُخُولُهَا لِغَيْرِ أَصْحَابِ الْحَوَائِجِ الْمُتَكَرِّرَةِ إلاّ بِإِحْرَامٍ :

وَمِنْ خَصَائِصِهَا أَنَّهَا لاَ يَجُوزُ دُخُولُهَا لِغَيْرِ أَصْحَابِ الْحَوَائِجِ الْمُتَكَرِّرَةِ إلاّ بِإِحْرَامٍ ، وَهَذِهِ خَاصِّيَّةٌ لاَ يُشَارِكُهَا فِيهَا شَيْءٌ مِنْ الْبِلاَدِ ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَلَقَّاهَا النَّاسُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ لاَ يُحْتَجّ بِهِ مَرْفُوعًا : " لاَ يَدْخُلُ أَحَدٌ مَكَّةَ إلاّ بِإِحْرَامٍ مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا " ذَكَرَهُ أَبُو أَحْمَدَ بْنُ عَدِيٍّ وَلَكِنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ أَرْطَاةَ فِي الطَّرِيقِ وَآخَرُ قَبْلَهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ .

وَلِلْفُقَهَاءِ فِي الْمَسْأَلَةِ ثَلاَثَةُ أَقْوَالٍ : النَّفْيُ وَالإِثْبَاتُ وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ هُوَ دَاخِلُ الْمَوَاقِيتِ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء / بَاب : قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } ٤/ ١١٧ ، بَاب : قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } ٤/ ١٣٦ ، ومسلم في أول المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠ ح ٥٢٠ .

وَمَنْ هُوَ قَبْلَهَا ، فَمَنْ قَبْلَهَا لاَ يُجَاوِزُهَا إلاّ بِإحْرَامٍ ، وَمَنْ هُوَ دَاخِلَهَا فَحُكْمُهُ حُكْمُ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَالقَوْلاَنِ الأَوَّلاَنِ لِلشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ .

رابعها : الْمُعَاقَبَةُ فِيهِ عَلَى الْهَمّ بِالسَّيِّئَاتِ :

وَمِنْ خَوَاصِّه أَنَّهُ يُعَاقَبُ فِيهِ عَلَى الْهَمِّ بِالسَّيِّئَاتِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا قَالَ تَعَالَى : {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج : ٢٥] فَتَأَمَّلْ كَيْفَ عَدَّى فِعْلَ الإِرَادَةِ هَاهُنَا بِالْبَاءِ وَلاَ يُقَالُ أَرَدْتُ بِكَذَا إلاّ لِمَا ضُمِّنَ مَعْنَى فِعْلِ " هَمَّ " فَإِنَّهُ يُقَالُ هَمَمْتُ بِكَذَا فَتَوَعَّدَ مَنْ هَمَّ بِأَنْ يَظْلِمَ فِيهِ بِأَنْ يُذِيقَهُ الْعَذَابَ الأَلِيمَ . .

خامسها : مُضَاعَفَةُ مَقَادِيرِ السَّيِّئَاتِ فِيهِ :

وَمِنْ هَذَا تَضَاعُفُ مَقَادِيرِ السَّيِّئَاتِ فِيهِ لاَ كَمِّيَّاتُهَا ، فَإِنَّ السَّيِّئَةَ جَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ لَكِنْ سَيِّئَةٌ كَبِيرَةٌ جَزَاؤُهَا مِثْلُهَا ، وَصَغِيرَةٌ جَزَاؤُهَا مِثْلُهَا ، فَالسَّيِّئَةُ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَبَلَدِهِ وَعَلَى بِسَاطِهِ آكَدُ وَأَعْظَمُ مِنْهَا فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الأَرْضِ ، وَلِهَذَا لَيْسَ مَنْ عَصَى الْمَلِكَ عَلَى بِسَاطِ مُلْكِهِ كَمَنْ عَصَاهُ فِي الْمَوْضِعِ الْبَعِيدِ مِنْ دَارِهِ وَبِسَاطِهِ ، فَهَذَا فَصْلُ النِّزَاعِ فِي تَضْعِيفِ السَّيِّئَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

سادسها : انْجِذَابُ الأَفْئِدَةِ إِلَى الْبَلَدِ الْحَرَامِ :

وَقَدْ ظَهَرَ سِرُّ هَذَا التَّفْضِيلِ وَالاخْتِصَاصِ فِي انْجِذَابِ الأَفْئِدَةِ وَهَوَى الْقُلُوبِ وَانْعِطَافِهَا وَمَحَبَّتِهَا لِهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ، فَجَذْبُهُ لِلْقُلُوبِ أَعْظَمُ مِنْ جَذْبِ الْمِغْنَاطِيسِ لِلْحَدِيدِ فَهُوَ الأَوْلَى بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

مَحَاسِنُهُ هَيُولَى كُلِّ حُسْنٍ *** وَمِغْنَاطِيسُ أَفْئِدَةِ الرِّجَالِ

وَلِهَذَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ مَثَابَةٌ لِلنَّاسِ أَيْ يَثُوبُونَ إِلَيْهِ عَلَى تَعَاقُبِ الأَعْوَامِ مِنْ جَمِيعِ الأَقْطَارِ ، وَلاَ يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا ، بَلْ كُلَّمَا ازْدَادُوا لَهُ زِيَارَةً ازْدَادُوا لَهُ اشْتِيَاقًا .

لاَ يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهَا حِينَ يَنْظُرُهَا *** حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقَا

فَلِلَّهِ كَمْ لَهَا مِنْ قَتِيلٍ وَسَلِيبٍ وَجَرِيحٍ ، وَكَمْ أُنْفِقَ فِي حُبِّهَا مِنَ الأَمْـوَالِ وَالأَرْوَاحِ ، وَرَضِيَ الْمُحِبّ بِمُفَارَقَةِ فِلَذِ الأَكْبَادِ وَالأَهْلِ وَالأَحْبَابِ وَالأَوْطَانِ ، مُقَدِّمًا بَيْنَ يَدَيْهِ أَنْوَاعَ الْمَخَاوِفِ وَالْمَتَالِفِ وَالْمَعَاطِفِ وَالْمَشَاقِّ ، وَهُوَ يَسْتَلِذُّ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَسْتَطِيبُهُ وَيَرَاهُ – لَـوْ ظَهَرَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ فِي قَلْبِهِ – أَطْيَبَ مِنْ نِعَمِ الْمُتَحَلِّيَةِ وَتَرَفِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ .

وَلَيْسَ مُحِبًّا مَنْ يُعَدّ شَقَاؤُهُ *** عَذَابًا إِذَا مَا كَانَ يَرْضَى حَبِيبُهُ

وَهَذَا كُلُّهُ سِرّ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقَوْلِـهِ { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ } [الْحَـجّ ٢٦] فَاقْتَضَتْ هَذِهِ الإِضَافَةُ الْخَاصَّةُ مِنْ هَذَا الإِجْلاَلِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْمَحَبَّةِ مَا اقتضـته ، كمـا اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك ، وكذلك إضـافته عبـاده المؤمنين إليه ، كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم ، فكل ما أَضَافَهُ الـرَّبّ تَعَالَى إِلَى نَفْسه فَلَهُ مِنْ الْمَزِيَّة وَالاخْتِصَاصِ عَلَى غَيْرِه مَا أَوْجَـبَ لَـهُ الاصْـطِفَاءَ وَالاجْتِبَاءَ ، ثُمّ يَكْسُوهُ بِهَذِهِ الإِضَافَةِ تَفْضِيلاً آخَرَ ، وَتَخْصِيصًا وَجَلاَلَةً زَائِدًا عَلَى مَـا كَانَ لَهُ قَبْلَ الإِضَافَةِ (١) .

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ١/ ٨ ، ٩ بتصرف .

مكانة قريش بين قبائل العرب :

تميزت قبيلة قريش بالمكانة المرموقة بين قبائل العرب ، وذلك نظراً لاتصالها في النسب بسيدنا إسماعيل عليه السلام ، ورعايتها للكعبة بيت الله مدار فخر العرب أجمعين . ولهذه المكانة ذكرهم الله في كتابه العزيز في سورة من سور القرآن تحمل اسمهم ، فقال تعالى : (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ – إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ – فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ – الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (١) .

وعن وَاثِلَةَ بْنَ الأَسْقَعِ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**) (٢) .

قال الإمام النووي رحمه الله : اسْتَدَلَّ بِهِ أَصْحَابنَا عَلَى أَنَّ غَيْر قُرَيْش مِنْ الْعَرَب لَيْسَ بِكُفْءٍ لَهُمْ ، وَلَا غَيْر بَنِي هَاشِم كُفُؤ لَهُمْ إِلَّا بَنِي الْمُطَّلِب ، فَإِنَّهُمْ هُمْ وَبَنُو هَاشِم شَيْءٌ وَاحِدٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيث الصَّحِيح وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٣) .

قالَ ابن إسحاق : وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا مِنْ التَّقَرُّشِ وَالتَّقَرُّشُ التِّجَارَةُ وَالِاكْتِسَابُ . قَالَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ :

قَدْ كَانَ يُغْنِيهِمْ عَنْ الشُّغُوشِ *** وَالْخَشْلِ مِنْ تَسَاقُطِ الْقُرُوشِ

شَحْمٌ وَمَحْضٌ لَيْسَ بِالْمَغْشُوشِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَالشُّغُوشُ قَمْحٌ يُسَمَّى : الشُّغُوشَ . وَالْخَشْلُ : رُءُوسُ الْخَلَاخِيلِ

---

(١) سورة قريش .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل / باب : فضل نسب النبي ﷺ ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٤/١٧٨٢ ح ٢٢٧٦ .

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ٣٦ .

وَالأَسْورَةِ وَنَحْوِهِ. وَالْقُرُوشُ : التِّجَارَةُ وَالاكْتِسَابُ . يَقُولُ قَدْ كَانَ يُغْنِيهِمْ عَـنْ هَـذَا شَحْمٌ وَمَحْضٌ . وَالْمَحْضُ : اللَّبَنُ الْحَلِيبُ الْخَالِصُ . وَهَذِهِ الأَبْيَاتُ فِي أُرْجُوزَةٍ لَهُ .

وَقَالَ أَبُو جِلْدَةَ الْيَشْكُرِيّ ، وَيَشْكُرُ بْنُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ :

إِخْوَةٌ قَرَشُوا الذُّنُوبَ عَلَيْنَا *** فِي حَدِيثٍ مِنْ عُمْرِنَا وَقَدِيمِ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَيُقَالُ : إنّمَا سُمّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشًا لِتَجَمّعِهَا مِنْ بَعْدِ تَفَرّقِهَـا ، وَيُقَـالُ لِلتّجَمّعِ التّقَرّشُ (١) .

وقريش في نسب النبي ﷺ يسمى النضر بن كنانة بن خُزَيمـة إلـى آخـر النسـب الشريف .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : النّضْرُ قُرَيْشٌ ، فَمَنْ كَانَ مِنْ وَلَدِهِ فَهُوَ قُرَشِيّ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِـنْ وَلَدِهِ فَلَيْسَ بِقُرَشِيّ (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٥٥/١

(٢) نفسه .

- نسب خير البشر وأكرم الخلق ﷺ
- مآثر هاشم بن عبد مناف
- عبد المطلب جد الرسول ﷺ
- أولاد عبد المطلب وزوجاته
- عبد الله والد الرسول وزواجـــه بالســـيدة آمنة

نسب خير البشر وأكرم الخلق ﷺ :

هو الطاهر المطهر الشفيع المشفع النبي الخاتم : " محمد بن عبد الله بـن عبـد المطّلب ، واسم عبد المطّلب (شيبة الحمد) ابن هاشم ، واسمه (عمرو) ابن عبـد مناف ، واسمه (المغيرة) ابن قُصيّ ، واسمه (زيد) ابن كِلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النّضْر بن كِنانة بن خُزَيمة بن مُدْركـة ، واسـمه (عامر) ابن إلياس بن مُضَر بن نزَار بن مَعَدّ بن عدنان ، وعدنان من ولد إسـماعيل ابن إبراهيم ، صلّى الله عليهما وعلى نبيّنا وسلّم ، بإجماع النّاس .

لكن اختلفوا فيما بين عدنان وبين إسماعيل من الآباء ، فقيل : بينهما تسعة آبـاء ، وقيل : سبعة ، وقيل : مثل ذلك عن جماعة – لكن اختلفوا في أسماء بعض الآبـاء – وقيل : بينهما خمسة عشر أباً ، وقيل بينهما أربعون أباً وهو بعيد ، وقـد ورد عـن طائفة من العرب ذلك .

وأما عروة بن الزّبير فقال: ما وجدنا من يعرف ما وراء عـدنان ولا قحطـان إلاّ تخرّصاً (أي : ظناً وتخميناً) .

وعن ابن عبّاس قال: بين معد بن عدنان وبين إسماعيل ثلاثون أباً قاله هشام بـن الكلبيّ النسّابة ، عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن ابن عبّاس ، ولكـن هشـام وأبـوه متروكان .

وجاء بهذا الإسناد أن النّبيّ ﷺ كان إذا انتهى إلى عدنان أمسـك ويقـول: (كـذب **النسّابون**) قال الله تعالى: (وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً) (١) .

وقال أبو الأسود يتيم عروة : سمعت أبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة ، وكان من أعلم قريش بأنسابها وأشعارها يقول: ما وجدنا أحداً يعلم ما وراء معدّ بن عدنان فـي

---

(١) سورة الفرقان : آية (٣٨) .

شعر شاعر ولا علم عالم .

قال هشام بن الكلبيّ: سمعت من يقول: إنّ معدّاً كان على عهد عيسى ابن مريم عليه السلام .

وقال أبو عمر بن عبد البر: كان قوم من السّلف منهم عبد الله بن مسعود ، ومحمد ابن كعب القرظيّ ، وعمرو بن ميمون الأودي إذا تلوا: ﴿ وَالَّذِينَ مِن بَعْـدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (١) قالوا: كذب النّسّابون . قال أبو عمر: ومعنى هذا عندنا على غير ما ذهبوا إليه ، وإنّما المعنى فيها والله أعلم : تكذيب من ادّعى إحصاء بني آدم . وأما أنساب العرب فإن أهل العلم بأيامها وأنسابها قد وعوا وحفظوا جماهيرها وأمّهات قبائلها ، واختلفوا في بعض فروع ذلك .

والذي عليه أئمة هذا الشأن أنّه : عدنان بن أُدَد بن مقوّم بن ناحور بن تَيْرَح بن يَعرُب، ابن يَشْجُب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل بن آزر – واسمه تارَح – ابن ناحور بن ساروح بن رَاعُو بن فالخ بن عَيْبر بن شالَخ بن أرْفَخشذ بن سام بن نوح عليه السلام بن لامك بن مَتُوشلَخ بن خَنُوخ – وهو إدريس عليه السلام – ابن يَرَد بن مهليل بن قَيْنن ابن يانِش بن شيث بن آدم أبي البَشَر عليه السلام . قال : وهذا الذي اعتمده محمد بن إسحاق في السيرة ، وقد اختلف أصحاب ابن إسحاق عليه في بعض الأسماء .

قلت: وسائر هذه الأسماء أعجميّة ، وبعضها لا يمكن ضبطه بالخطّ إلاّ تقريباً. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ (٢): فصيلة(٣) النّبيّ ﷺ بنو عبد

---

(١) سورة إبراهيم من الآية (٩) .

(٢) سورة المعارج : آية (١٣) .

(٣) قال ابن منظور : فَصِيلة الرجل عشيرته ورَهْطه الأدْنَوْن وقيل أقرب آبائه إليه عن ثعلب وكان يقال لعباس فَصيلة النبي ﷺ . قال ابن الأثير الفَصِيلة من أقرب عَشيرة الإنسان وأصل الفَصِيلة قطعة من لحم الفخذ حكاه عن الهروي وفي التنزيل العزيز (وفَصِيلته التي تُؤْويه) وقال الليث الفَصِيلة فخذ الرجل من قومه الذين هو منهم يقال جاؤوا بفَصِيلَتهم أي بأجمعهم . لسان العرب . مادة : فصل .

المطّلب أعمامه وبنو أعمامه ، وأمّا فخذه (١) فبنو هاشم قال: وبنو عبد مناف بطنه(٢)، وقريش عمارته، وبنو كنانة قبيلته ، ومضر شعبه(٣).

وأمّه آمنة بنت وهب بن عبد مَناف بن زُهْرة بن كِلاب ، فهي أقرب نسباً إلى كِلاب من زوجها عبد الله برجل " (٤) .

مآثر هاشم بن عبد مناف :

هاشم بن عبد مناف هو الجد الثاني لرسول الله ﷺ ، ووالد عبد المطلب جد الرسول المباشر ، واتصف بمكارم الأخلاق وحسنها ، وتولى الرفادة والسقاية ، وهي أمور مهمة فيمن يتولى سدنة البيت أي خدمته .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَلِيَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ الرّفَادَةَ وَالسّقَايَةَ وَذَلِك أَنّ عَبْدَ شَمْسٍ كَانَ رَجُلاً سِفَارًا قَلّمَا يُقِيمُ بِمَكّةَ وَكَانَ مُقِلاّ ذَا وَلَدٍ وَكَانَ هَاشِمٌ مُوسِرًا فَكَانَ – فِيمَا

---

(١) قال الزمخشري فخذ الرجل : كسرت فخذه فهو مفخوذ . ومن المجاز: هذا فخذي بالتذكير أي أدنى عشيرتي . وفلان من فخذ من أفخاذ بني تميم ، وفخّذ قبيلته : جعلهم فخذاً فخذاً . وفخذت بني فلان فلم أرَ عندهم خيراً أي أتيتهم فخذاً فخذاً فسألتهم في حمالة أو غيرها . ولما أنزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى : " وأنذر عشيرتك الأقربين" بات يفخّذ عشيرته أي يدعوهم فخذاً فخذاً . أساس البلاغة . مادة : فخذ .

(٢) قال الفيومي : الْبَطْنُ خِلَافُ الظَّهْرِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ وَالْجَمْعُ بُطُونٌ وَأَبْطُنٌ وَالْبَطْنُ دُونَ الْقَبِيلَةِ مُؤَنَّثَةٌ وَإِنْ أُرِيدَ الْحَيُّ فَمُذَكَّرٌ . المصباح المنير . مادة : بطن .

(٣) قال ابن منظور : قال الشيخ ابن بري الصحيح في هذا ما رتّبه الزُّبَيرُ ابنُ بكّار وهو الشّعْبُ ثم القبيلةُ ثم العِمارةُ ثم البطنُ ثم الفَخذُ ثم الفصيلة قال أَبو أُسامة هذه الطّبَقات على ترتيب خَلْق الإنسانِ فالشّعبُ أَعظمُها مُشْتَقٌّ من شَعْب الرَّأْسِ ثم القبيلةُ من قبيلة الرَّأْسِ لاجتماعها ثم العِمارةُ وهي الصَّدرُ ثم البَطْنُ ثم الفخذُ ثم الفصيلة وهي الساقُ والشعْبُ بالكسر ما انْفَرَجَ بينَ جبلين وقيل هو الطَّريقُ في الجَبَلِ والجمعُ الشِّعابُ . لسان العرب . مادة : شعب .

(٤) السيرة النبوية لشمس الدين الذهبي ١/٢٩، ٣٠ بتصرف .

يَزْعُمُونَ – إِذَا حَضَرَ الْحَاجَّ قَامَ فِي قُرَيْشٍ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّكُمْ جِيـــرَانُ اللَّهِ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَإِنَّهُ يَأْتِيكُمْ فِي هَذَا الْمَوْسِمِ زُوَّارُ اللَّهِ وَحُجَّاجُ بَيْتِهِ . وَهُمْ ضَـيْفُ اللَّـهِ وَأَحَقّ الضَّيْفِ بِالْكَرَامَةِ ضَيْفُهُ فَاجْمَعُوا لَهُمْ مَا تَصْنَعُونَ لَهُمْ بِهِ طَعَامًا أَيَّامَهُمْ هَذِهِ الَّتِي لاَ بُدّ لَهُمْ مِنْ الإِقَامَةِ بِهَا ، فَإِنّهُ وَاَللّهِ لَوْ كَانَ مَالِي يَسَعُ لِذَلِكَ مَا كَلّفْتُكُمُـوهُ فَيُخْرِجُـونَ لِذَلِكَ خَرْجًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ كُلّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ فَيَصْنَعُ بِهِ لِلْحُجّاجِ طَعَامًا حَتّى يَصْدُرُوا مِنْهَا .

وَكَانَ هَاشِمٌ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَوّلَ مَنْ سَنّ الرّحْلَتَيْنِ لِقُرَيْشٍ رِحْلَتَيْ الشّـتَاءِ وَالصّـيْفِ وَأَوّلَ مَنْ أَطْعَمَ الثّرِيدَ بِمَكّةَ وَإِنّمَا كَانَ اسْمُهُ عَمْرًا ، فَمَا سُمّيَ هَاشِمًا إلاّ بِهَشْمِهِ الْخُبْزَ بِمَكّةَ لِقَوْمِهِ . فَقَالَ شَاعِرٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَوْ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ :

عَمْرُو الّذِي هَشَمَ الثّرِيدَ لِقَوْمِهِ *** قَوْمٌ بِمَكّةَ مُسْنِتِينَ عِجَافِ

سُنّتْ إلَيْهِ الرّحْلَتَانِ كِلاَهُمَا *** سَفَرُ الشّتَاءِ وَرِحْلَةُ الأَصْيَافِ (١) .

عبد المطلب جد الرسول ﷺ :

اسمه شيبة الحمد وهو جد الرسول ﷺ الحنون عليه الذي كفله بعد موت والده عبد الله ، وكان يحبه ويجله وهو طفل صغير ، فكان يجلسه على فراشه بجوار الكعبة ، وهـذه المكانة لا ينالها من هو أكبر من النبي ﷺ ، وكان يقول : إن لابني هذا شأناً .

وأمه " سلمى بنت عمرو النجارية " تزوجها هاشم في إحدى رحلاته بالتجارة إلـى الشام ، فولدت له عبد المطلب " شيبة الحمد " .

قال ابن إسحاق : وَكَانَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَتَزَوّجَ سَلْمَى بِنْتَ عَمْـرٍو أَحَدِ بَنِي عَدِيّ بْنِ النّجّارِ وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ أُحَيْحَةَ بْنِ الْجُلاَحِ بْنِ الْحَرِيشِ ، فَوَلَدَتْ لَـهُ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٧٤/١ .

عَمْرَو بْنَ أُحَيْحَةَ وَكَانَتْ لاَ تَنْكِحُ الرِّجَالَ لِشَرَفِهَا فِي قَوْمِهَا حَتَّى يَشْتَرِطُوا لَهَا أَنَّ أَمْرَهَا بِيَدِهَا ، إِذَا كَرِهَتْ رَجُلاً فَارَقَتْهُ ، فَوَلَدَتْ لِهَاشِمٍ : عَبْدَ الْمُطَّلِبِ ، فَسَمَّتْهُ شَيْبَةَ . فَتَرَكَهُ هَاشِمٌ عِنْدَهَا حَتَّى كَانَ وَصِيفًا أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ عَمُّهُ الْمُطَّلِبُ لِيَقْبِضَهُ فَيُلْحِقَهُ بِبَلَدِهِ وَقَوْمِهِ فَقَالَتْ لَهُ سَلْمَى : لَسْتُ بِمُرْسِلَتِهِ مَعَكَ ، فَقَالَ لَهَا الْمُطَّلِبُ إِنِّي غَيْرُ مُنْصَرِفٍ حَتَّى أخرج به معي ، إن ابن أَخِي قَدْ بَلَغَ وَهُوَ غَرِيبٌ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ شَرَفٍ فِي قَوْمِنَا ، نَلِي كَثِيرًا مِنْ أُمُورِهِمْ وَقَوْمُهُ وَبَلَدُهُ وَعَشِيرَتُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الإِقَامَةِ فِي غَيْرِهِمْ أَوْ كَمَا قَالَ . وَقَالَ شَيْبَةُ لِعَمِّهِ الْمُطَّلِبِ – فِيمَا يَزْعُمُونَ – : لَسْتُ بِمُفَارِقِهَا إِلاَّ أَنْ تَأْذَنَ لِي ، فَأَذِنَتْ لَهُ وَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِ فَاحْتَمَلَهُ فَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ مُرْدِفَهُ مَعَهُ عَلَى بَعِيرِهِ فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ابْتَاعَهُ فَبِهَا سُمِّيَ شَيْبَةُ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ . فَقَالَ الْمُطَّلِبُ وَيْحَكُمْ إِنَّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ قَدِمْتُ بِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ ثُمَّ وَلِيَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ السِّقَايَةَ وَالرِّفَادَةَ بَعْدَ عَمِّهِ الْمُطَّلِبِ فَأَقَامَهَا لِلنَّاسِ وَأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا كَانَ آبَاؤُهُ يُقِيمُونَ قَبْلَهُ لِقَوْمِهِمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَشَرُفَ فِي قَوْمِهِ شَرَفًا لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ وَأَحَبَّهُ قَوْمُهُ وَعَظُمَ خَطَرُهُ فِيهِمْ (١) .

أولاد عبد المطلب وزوجاته :

ولى عبد المطلب الرفادة والسقاية بعد موت عمه المطلب بن عبد مناف واكتمل له من الولد عشرا ومن البنات ست .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : فَوَلَدَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ عَشَرَةَ نَفَرٍ وَسِتَّ نِسْوَةٍ الْعَبَّاسَ وَحَمْزَةَ وَعَبْدَاللَّهِ وَأَبَا طَالِبٍ – وَاسْمُهُ عَبْدُ مَنَافٍ – وَالزُّبَيْرَ وَالْحَارِثَ وَحَجْلاً ، وَالْمُقَوِّمَ وَضِرَارًا ، وَأَبَا لَهَبٍ – وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى – وَصَفِيَّةَ وَأُمَّ حَكِيمٍ الْبَيْضَاءَ وَعَاتِكَةَ ، وَأُمَيْمَةَ ، وَأَرْوَى ، وبَرَّةَ .

قال ابن هشام : فأم العباس وَضِرَارٍ : نُتَيْلَةُ بِنْتُ جَنَابِ بْنِ كُلَيْبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَمْرِو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٧٦ .

ابْنِ عَامِرِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ عَامِرٍ - وَهُوَ الضَّحْيَانُ - بْنُ سَعْدِ بْنِ الْخَزْرَجِ بْنِ تَيْمِ اللاَّتِ بْنِ النَّمِرِ بْنِ قَاسِطِ بْنِ هِنْبِ بْنِ أَفْصَى بْنِ جَدِيلَةَ بْنِ أَسَدِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نِزَارٍ . وَيُقَالُ أَفْصَى بْنُ دُعْمِيِّ بْنِ جَدِيلَةَ .

وَأُمّ حَمْزَةَ وَالْمُقَوّمِ وَحَجْلٍ وكَانَ يُلَقّبُ بِالْغَيْدَاقِ لِكَثْرَةِ خَيْرِهِ وَسَعَةِ مَالِهِ وَصَفِيّةَ هَالَةُ بِنْتُ وُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلاَبِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ .

وَأُمّ عَبْدِ اللّهِ وَأَبِي طَالِبٍ وَالزّبَيْرِ وَجَمِيعِ النّسَاءِ غَيْرَ صَفِيّةَ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النّضْرِ . وَأُمّهَا : صَخْرَةُ بِنْتُ عَبْدِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النّضْرِ . وَأُمّ صَخْرَةَ تَخْمُرُ بِنْتُ عَبْدِ بْنِ قُصَيّ بْنِ كِلاَبِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النّضْرِ .

وَأُمّ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ : سَمْرَاءُ بِنْتُ جُنْدُبِ بْنِ جُحَيْرِ بْنِ رِئَابِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ سُوَاءَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ عِكْرِمَةَ . وأم أَبِي لَهَبٍ لُبْنَى بِنْتُ هَاجَرَ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ ضَاطِرَ بْنِ حُبْشِيّةَ بْنِ سَلُولَ بْنِ كَعْبِ ابْنِ عَمْرٍو الْخُزَاعِيّ (١) .

عبد الله والد الرسول وزواجه بالسيدة آمنة :

عبد الله هو أحد أولاد عبد المطلب والذي وقعت عليه قرعة الذبح كما يقول علماء السيرة والقصة مشهورة عندهم ، وهو الاسم الوحيد في أولاد عبد المطلب المضاف إلى لفظ الجلالة .

يقول ابن هشام بعد أن ذكر قصة فداء عبد الله من الذبح إيفاءً لنذر عبد المطلب ،

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦١/١ .

قال : فَخَرَجَ بِهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَتَّى أَتَى بِهِ وَهْبَ بْنَ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ نَسَبًا وَشَرَفًا ، فَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ أَفْضَلُ امْرَأَةٍ فِي قُرَيْشٍ نَسَبًا وَمَوْضِعًا .

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، أَبُو رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ هَلَكَ وَأُمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَامِلٌ بِهِ (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٨٣/١ ، ٨٤ .

- ميلاد خير البشر محمد ﷺ
- رضاعه ﷺ
- الرسول ﷺ كما تحدث عن نفسه
- أسماؤه ﷺ
- حادث شق صدره ﷺ
- وفاة أمه ﷺ
- النبي ﷺ في كفالة جده وعمه

ميلاد خير البشر محمد ﷺ :

كانت البشرية في حاجة ملحة لميلاد خير البشرية ﷺ بعد أن طغت الوثنية المادية على العقول ، وتمكن الإلحاد من القلوب ، وانصرف العباد عن ربهم ، وعبدوا أصناماً لا حياة ولا عقل لها ، وشاعت فوضى الانحلالية في المجتمع من نكاح محرم ، ووأد وكراهية للبنات ، وشرب للخمر إلى غير ذلك من أفعال يند لها الجبين ، ويقشعر من استنكارها البدن ، فكان لابد لهذا الظلام أن ينقشع ، ولهذه الضلالات والسخافات أن تمحي وتندثر ، ولشمس الحقيقة والهدى أن تشرق بنور الحق على مجتمع كثر فساده وقل نظامه .

ولك أن تتصور هذا من خلال ما ذكره جعفر بن أبى طالب ﷺ للنجاشي ملك الحبشة عندما سأله عن أمر النبي ﷺ ، فرد عليه جعفر فقال : (**أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ ، وَأَمَرَ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ**) (١) .

لهذا كانت الحاجة ملحة لميلاد خير البشر ﷺ ، فأخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الحق والبرهان ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد سبحانه وتعالى .

وقد اختلفت الأقوال في تحديد يوم مولده ﷺ ، ويظهر – والله أعلم – أن هذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٠١/١ : ٢٠٣ من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ وسنده حسن .

الاختلاف والتضارب ناتج عن تصحيف وتحريف في تناقل الأقوال ، واختلاف بين الناقلين ، وقد سرد الحافظ الذهبي رحمه الله هذه الأقوال وبين قويها من غثها في كتابه : السيرة النبوية فقال رحمه الله : أخبرنا أبو المعالي أحمد بن إسحاق ، قال أخبرنا أحمد بن أبي الفتح ، والفتح بن عبد الله قالا: أخبرنا محمد بن عمر الفقيه ، قال أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن النَّقُّور، أخبرنا عليّ بن عمر الحربيّ ، حدثنا أحمد بن الحسن الصّوفيّ ، قال: حدثنا يحيى بن معين ، قال حدثنا حجّاج بن محمد ، قال حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبيه ، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس " أنّ النّبيّ ﷺ ولد عام (١) الفيل " صحيح.

وقال ابن إسحاق (٢) : حدثني المطّلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة ، عن أبيه ، عن جدّه قيس بن مخرمة بن عبد المطّلب قال: " ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل ، فنحن لِدَتّان . أخرجه الترمذي (٣) ، وإسناده حسن.

وقال إبراهيم بن المنذر الحزاميّ: حدثنا سليمان النّوفليّ ، عن أبيه ، عن محمد بن جبير بن مُطْعِم قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، وكانت عُكَاظ بعد الفيل بخمس عشرة ، وبُني البيتُ على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل. وتنبأ رسولُ الله ﷺ على رأس أربعين سنة من الفيل .

قال شباب العُصْفُريّ (٤) : حدثنا يحيى بن محمد ، قال حدثنا عبد العزيز بن عمران ، قال حدثني الزّبير بن موسى ، عن أبي الحُويرث ، سمعت قباث بن أشْيَم يقول: " أنا أسنّ من رسول الله ﷺ وهو أكبر منّي ، وقفت بي أميّ على روث الفيل

(١) في نسخة أخرى " يوم " .
(٢) سيرة ابن هشام ٨٤/١ .
(٣) الترمذي (٣٦٩٨) وليس فيه " فنحن لِدَتّان " وقال حسن غريب .
(٤) هو : خليفة بن خياط صاحب التاريخ والطبقات .

محيلاً (١) أعقله ، وولد رسول الله ﷺ عام الفيل " (٢) .
يحيى أبو زُكير، وشيخه متروك الحديث .

وقال موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال: بعث الله محمداً ﷺ على رأس خمس عشرة سنة من بنيان الكعبة ، وكان بينه وبين مبعثه وبين أصحاب الفيل سبعون سنة. كذا قال .

وقد قال إبراهيم بن المنذر وغيره : هذا وهم لا يشكّ فيه أحد من علمائنا. إنّ رسول الله ولد عام الفيل وبعث على رأس أربعين سنة من الفيل .

وقال يعقوب القُمّيّ ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن ابن أبزَى قال: كان بين الفيل وبين مولد رسول الله ﷺ عشر سنين . وهذا قول منقطع .

وأضعف منه ما روى محمد بن عثمان بن أبي شيبة وهو ضعيف قال: حدثنا عقبة بن مُكْرَم ، قال حدثنا المسيّب بن شَريك ، عن شعيب بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدّه قال: حمل برسول الله ﷺ في عاشوراء المحرّم ، وولد يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثلاث وعشرين من غزوة أصحاب الفيل وهذا حديث ساقط كما نرى .

وأوهى منه ما يُروى عن الكلبيّ ، وهو متّهم ساقط ، عن أبي صالح باذام ، عن ابن عبّاس قال: ولد رسول الله ﷺ قبل الفيل بخمس عشرة سنة. قد تقدّم ما يبيّن كذب هذا القول عن ابن عبّاس بإسناد صحيح .

قال خليفة بن خيّاط (٣) : المجمع عليه أنه ولد عام الفيل .

---

(١) أي : متغيراً .
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ص : ٥٢ .
(٣) نفسه . ص : ٥٣ .

وقال الزّبير بن بكّار: حدثنا محمد بن حسن ، عن عبد السّلام بن عبد الله ، عن معروف بن خَرَّبُوذ وغيره من أهل العلم قالوا : ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، وسمّيت قريش " آل الله " وعظُمت في العرب ، ولد لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول وقيل : من رمضان يوم الاثنين حين طلع الفجر.

وقال أبو قتادة الأنصاريّ: سأل أعرابيّ رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ قال: " ذاك يوم ولدت فيه وفيه أوحي إليّ ". أخرجه مسلم (١) .

وقال عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي ، عن الزّهري ، عن سعيد بن المسيّب وغيره ، أنّ رسول الله ﷺ ولد في ليلة الاثنين من ربيع الأول عند ابهرار النّهار.

وروى ابن إسحاق قال: حدّثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زُرَارة قال: حدّثني من شئت من رجال قومي ، عن حسّان بن ثابت ، قال: إني والله لغُلامٌ يَفَعَة ، إذ سمعت يهودياً وهو على أُطُمة (٢) بيثرب يصرخ : يا معشر يهود ، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ويلك ما لك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يُبْعَث به اللّيلة (٣) .

وقال ابن لهيعة ، عن خالد بن أبي عمران ، عن حَنَش ، عن ابن عبّاس قال: ولد نبيّكم ﷺ يوم الاثنين ونبّئ يوم الاثنين. وخرج من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وفتح مكة يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ، وتُوُفّيّ يوم الاثنين. رواه أحمد في مسنده (٤) ، وأخرجه الفسوي في تاريخه (٥).

وقال شيخنا أبو محمد الدّمياطي في السيرة من تأليفه ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام / بَاب : اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ ١٦٧/٣ ، ١٦٨ . عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ .

(٢) أي : حصن .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٨٤/١ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢٧٧/١ .

(٥) كتاب المعرفة والتاريخ ٢١٥/٣

قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لعشر ليال خلون من ربيع الأول ، وكان قُدُوم أصحاب الفيل قبل ذلك في النّصف من المحرّم.

وقال أبو معشر نَجِيح : ولد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول .

قال الدّمياطيّ : والصّحيح قول أبي جعفر ، قال: ويقال: إنّه ولد في العشرين من نَيْسان (إبريل) .

وقال أبو أحمد الحاكم : ولد بعد الفيل بثلاثين يوماً. قاله بعضهم: قال: وقيل بعده بأربعين يوماً.

قلت: لا أُبعدُ أنّ الغلط وقع من هنا على من قال ثلاثين عاماً أو أربعين عاماً ، فكأنّه أراد أن يقول يوماً فقال عاماً.

وقال الوليد بن مسلم ، عن شعيب بن أبي حمزة ، عن عطاء الخراسانيّ ، عن عكرمة ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ عبد المطّلب خَتَنَ النّبيّ ﷺ يوم سابعه، وصنع له مأدبَةً وسمّاه محمداً.

وهذاً أصحّ ممّا رواه ابن سعد (١) : أخبرنا يونس بن عطاء المكّي ، قال حدثنا الحكم بن أبان العدني ، قال حدثنا عكرمة ، عن ابن عبّاس ، عن أبيه العباس قال: ولد النّبيّ ﷺ مختوناً مسروراً ، فأعجب ذلك عبد المطّلب وحظي عنده وقال: ليكونَنّ لابني هذا شأن .

تابعه سليمان بن سلمة الخبائري ، عن يونس ، لكن أدخل فيه بين يونس والحكم: عثمان بن ربيعة الصُّدَائي .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٣/١ .

قال شيخنا الدّمياطيّ: ويروى عن أبي بكرة قال: ختَن جبريلُ رسول الله ﷺ لما طَهَّرَ قلبه. قلت: هذا منكر(١) .

رضاعه ﷺ :

على عادة العرب آنذاك فقد التمسوا له الرضعاء من أهل البادية ليستقيم لسانه وتظهر نجابته ، ولا يخالطه زخرف المدنية وفساد أحوالها .

قال الإمام السهيلي : وَأَمّا دَفْعُ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ أَوْلَادَهُمْ إلَى الْمَرَاضِعِ فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ لِوُجُوهِ .

أَحَدُهَا : تَفْرِيغُ النّسَاءِ إلَى الأَزْوَاجِ كَمَا قَالَ عَمّارُ بْنُ يَاسِرٍ لأُمّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا - وَكَانَ أَخَاهَا مِنْ الرّضَاعَةِ حِينَ انْتَزَعَ مِنْ حِجْرِهَا زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ ، فَقَالَ: دَعِي هَذِهِ الْمَقْبُوحَةَ الْمَشْقُوحَةَ (٢) الّتِي آذَيْت بِهَا رَسُولَ اللّهِ ﷺ (٣) .
وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَيْضًا لِيَنْشأَ الطِّفْلُ فِي الأَعْرَابِ ، فَيَكُونَ أَفْصَحَ لِلِسَانِهِ ، وَأَجْلَدَ لِجِسْمِهِ ، وَأَجْدَرَ أَنْ لاَ يُفَارِقَ الْهَيْئَةَ الْمَعَدّيّةَ كَمَا قَالَ عُمَرُ ﷺ : " تَمَعْدَدُوا وَتَمَعْزَزُوا

---

(١) السيرة النبوية للحافظ الذهبي ٣٣/١ : ٣٧ بتصرف يسير .

(٢) قال ابن منظور : العرب تقول قُبْحاً له وشَقْحاً وقَبْحاً له وشَقْحاً كلاهما إتباع ، وقيل : هما واحد ، وقَبيح شَقيح قال الأزهري : ولا تكاد العرب تقول الشُّقْح من القُبْح وقَبُحَ الرجلُ وشَقُحَ قَباحةً وشَقاحةً ، وقد أومأ سيبويه إلى أن شَقيحاً ليس بإتباع فقال : وقالوا شَقيحٌ ودميم وجاء بالقَباحة والشَّقاحة قال أبو زيد شَقَحَ اللهُ فلاناً وقَبَحَه فهو مَشْقُوحٌ مثل قَبَحه الله فهو مَقْبُوحٌ ، والشُّقْحُ البُعْدُ ، والشُّقْحُ الشحُّ ، والمَشْقُوحُ المكسور أو المُبْعَدُ وفي حديثه قال لأُم سلَمة : دَعِي هذه المَقْبوحة المَشْقوحة يعني بنتها زينب وأَخذها من حجرها وكانت طفلةً . لسان العرب . مادة : شقح

(٣) أخرجه أحمد والحاكم وأبو يعلى ، أخرجه أحمد في المسند ٢١٤/٦ ، والحاكم في المستدرك ١٨/٤ ح ٦٧٥٩ وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وأبو يعلى في المسند ٣٣٤/١٢ ح ٦٩٠٧ .

وَاخْشَوْشِنُوا"(١) وَقَدْ قَالَ - ﷺ - لأَبِي بَكْرٍ - ﷺ - حِينَ قَالَ لَهُ : مَا رَأَيْتَ أَفْصَحَ مِنْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ !! فَقَالَ : (وَمَا يَمْنَعُنِي ، وَأَنَا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ؟)(٢) فَهَذَا وَنَحْوُهُ كَانَ يَحْمِلُهُمْ عَلَى دَفْعِ الرُّضَعَاءِ إِلَى الْمَرَاضِعِ الأَعْرَابِيَّاتِ (٣) .

قال الحافظ الذهبي : أرضعته ثويبة جارية أبي لهب ، مع عمّه حمزة ، ومع أبي سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ رضي الله عنهما.

قال شُعَيْبٌ ، عَنْ الزُّهْرِيِّ ، عَنْ عُرْوَةَ إِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ وَأُمَّهَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ أَخْبَرَتْهُمَا قَالَتْ : قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، انْكِحْ أُخْتِي بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ فَقَالَ : (أَوَتُحِبِّينَ ذَلِكِ؟) قُلْتُ : نَعَمْ لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيَةٍ وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرٍ أُخْتِي . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنَّ ذَلِكِ لاَ يَحِلُّ لِي) قُلْتُ : فَإِنَّا نُحَدَّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ دُرَّةَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ ؟ قَالَ : (بِنْتَ أُمِّ سَلَمَةَ؟) قُلْتُ : نَعَمْ فَقَالَ : (لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ رَبِيبَتِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي . إِنَّهَا لاَبْنَةُ أَخِي مِنْ الرَّضَاعَةِ . أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ فَلاَ تَعْرِضْنَ عَلَيَّ بَنَاتِكُنَّ وَلاَ أَخَوَاتِكُنَّ) أخرجه البخاري (٤) .

---

(١) أخرجه ابن حبان ، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان لابن بلبان ٢٦٨/١٢ ح ٥٤٥٤ وسنده صحيح .

(٢) عزاه المناوي لابن عساكر في تاريخه وقال : إسناده ضعيف ، وقال السخاوي : ضعيف وإن اقتصر شيخنا - - يعني ابن حجر - على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه . وقال ابن تيمية : لا يعرف له سند ثابت . فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢٢٤/١ ح ٣١٠ .

(٣) الروض الأنف ٧٧/١ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري في النكاح / باب : { وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ } وَيَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنْ النَّسَبِ ١٢٥/٦ ، وباب : { وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ } ١٢٧/٦ ، وباب : { وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} ١٢٧/٦ ، ١٢٨ وفي النفقات / باب : الْمَرَاضِعِ مِنْ الْمَوَالِيَاتِ وَغَيْرِهِنَّ ١٩٥/٦ ، ومسلم في الرضاع / باب : تَحْرِيمِ الرَّبِيبَةِ وَأُخْتِ الْمَرْأَةِ ١٠٧٢/٢ ح ١٤٤٩ .

وقال عروة في سياق البخاري : ثويبة مولاة أبي لهب ، أعتقها ، فأرضعت النبيّ ﷺ فلما مات أبو لهب رآه بعض أهله في النّوم بشرّ حيبة – يعني حالة – فقال لــه : ماذا لقيت ؟ قال : لم ألق بعدكم رخاءً ، غير أنّي أسقيت في هذه منّي بعتاقتي ثويبــة. وأشار إلى النّقرة التي بين الإبهام والتي تليها (١) .

وعن رضاعه ﷺ في بنى سعد بن بكر وما حدث لهم من البركات والكرامات يقول ابن إسحاق : فَاسْتَرْضَعَ لَهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، يُقَالُ لَهَا : حَلِيمَةُ ابْنَــةُ أَبِــي ذُوَيْبٍ . وَأَبُو ذُوَيْبٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ شِجْنَةَ بْنِ جَابِرِ بْنِ رِزَامِ بْنِ نَاصِرَةَ بْــنِ فُصَيَّةَ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ بْنِ مَنْصُورِ بْنِ عِكْرِمَةَ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ ابْنِ عَيْلَانَ .

ثم روى بسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . أَوْ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْــهُ قَــالَ كَانَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُوَيْبٍ السَّعْدِيَّةُ أُمّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ تُحَدِّثُ أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا ، وَابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، تَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ قَالَتْ وَذَلِك فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ لَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْئًا . قَالَتْ فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَــانٍ لِــي قَمْرَاءَ (٢) مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا ، وَاَللَّهِ مَا تَبِضّ بِقَطْرَةٍ وَمَا نَنَامُ لَيْلَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيّنَا الَّــذِي مَعَنَا ، مِنْ بُكَائِهِ مِنْ الْجَوْعِ مَا فِي ثَدْيَيّ مَا يُغْنِيهِ وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغَذّيهِ ، وَلَكِنّا كُنّــا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانِي تِلْكَ فَلَقَدْ أَدَمْتُ بِالرّكْبِ حَتّى شَقّ ذَلِكَ عَلَــيْهِمْ ضَعْفًا وَعَجَفًا ، حَتّى قَدِمْنَا مَكّةَ نَلْتَمِسُ الرّضَعَاءَ فَمَا مِنّا امْرَأَةٌ إلّا وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَــا رَسُولُ اللّهِ ﷺ فتأباه ، إذا قِيلَ لَهَا إنّهُ يَتِيمٌ وَذَلِك أَنّا إنّمَا كُنّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِــي الصّبِيّ فَكُنّا نَقُولُ يَتِيمٌ !! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمّهُ وَجَدّهُ ؟ فَكُنّا نَكْرَهُهُ لِذَلِك ، فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إلّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي ، فَلَمّا أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ قُلْــتُ لِصَــاحِبِي :

---

(١) السيرة النبوية للحافظ الذهبي ١/٤٩ ، ٥٠ .

(٢) القُمرة بالضم : لون إلى الخضرة أو بياض فيه كدرة ، وأتان قمــراء أي بيضـــاء . لسان العرب . مادة : قمر

وَاللَّهِ إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا ، وَاللَّهِ لأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فَلآخُذَنَّهُ قَالَ لاَ عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً . قَالَتْ فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَأَخَذْتُه ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ قَالَتْ فَلَمَّا أَخَذْتُهُ رَجَعْت بِهِ إِلَى رَحْلِي ، فَلَمَّا وَضَعْته فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبَ حَتَّى رَوِيَ وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوِيَ ثُمَّ نَامَا " وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْكَ . فَإِذَا إِنَّهَا لَحَافِلٌ فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا رِيًّا وَشِبَعًا ، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَة . قَالَتْ يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا : تَعَلَّمِي وَاللَّهِ يَا حَلِيمَةُ لَقَدْ أَخَذْت نَسَمَةً مُبَارَكَةً قَالَتْ فَقُلْت : وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو ذَلِكَ . قَالَتْ ثُمَّ خَرَجْنَا وَرَكِبْت (أَنَا) أَتَانِي ، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا مَعِي ، فَوَاللَّهِ لَقَطَعَتْ بِالرَّكْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شيئ من حمرهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى : يا ابنة أَبِي ذُؤَيْبٍ ، وَيْحَك !! ارْبَعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَك الَّتِي كُنْت خَرَجْت عَلَيْهَا ؟ فَأَقُولُ لَهُنَّ بَلَى وَاللَّهِ إِنَّهَا لَهِيَ هِيَ فَيَقُلْنَ وَاللَّهِ إِنَّ لَهَا لَشَأْنًا . قَالَتْ ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلادِ بَنِي سَعْدٍ وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللَّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا ، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنًا ، فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ وَمَا يَحْلُبُ إنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ وَلا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ وَيْلَكُمْ !! اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَّنًا . فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنْ اللَّهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ وَكَانَ يَشِبُّ شَبَابًا لاَ يَشِبُّهُ الْغِلْمَانُ فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّى كَانَ غُلاَمًا جَفْرًا(١) قَالَتْ فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا ، لِمَا كُنَّا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ . فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ وَقُلْت لَهَا : لَوْ تَرَكْت بُنَيَّ عِنْدِي حَتَّى يَغْلُظَ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَأَ مَكَّةَ ، قَالَتْ فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّى رَدَّتْهُ مَعَنَا . قَالَتْ فَرَجَعْنَا بِهِ(٢).

---

(١) جَفْرًا : قال ابن الأثير : استَجْفَر الصَّبيّ إذا قَوِي على الأكل . وأصلُه في أولاد المَعَز إذا بَلَغ أربعة أشهُر وفُصِل عن أمّه وأخذ في الرَّعْي قيل له جَفْر والأنثى جَفْرة . النهاية في غريب الحديث . مادة : جفر .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٨٥ ، ٨٦ .

الرسول ﷺ كما تحدث عن نفسه :

إن قدر النبي ﷺ عظيم ، ومقامه فوق كل مقام ، ولا يعرف قدره إلا خالقه سبحانه وتعالى ، فقد حباه بعطايا لم تكن لغيره من الأنبياء ، وأعطاه من المعجزات ما يؤيده في دعواه ما لم يعط غيره ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً . والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد ذلك بصراحة ووضوح ، لا يحتاج إلى بيان وتفسير ، ولا ينكره إلا جاحد حاقد حاسد ، وقد تحدث كثيراً بنعم الله عليه ﷺ .

بداية نجده ﷺ يعرف بنفسه كما روي ابن إسحاق في السيرة عنه حيث قال : حَدّثَنِي ثَوْرُ بْنُ يَزِيدَ ، عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَلاَ أَحْسَبُهُ إلاّ عَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ الْكَلاَعِيّ أَنّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ قَالُوا لَهُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَخْبِرْنَا عَنْ نَفْسِك ؟ قَالَ نَعَمْ : (أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى (أخي) عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمّي حِينَ حَمَلَتْ بِي أَنّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ الشّامِ ، وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، فَبَيْنَا أَنَا مَعَ أَخٍ لِي خَلْفَ بُيُوتِنَا نَرْعَى بَهْمًا لَنَا ، إذْ أَتَانِي رَجُلاَنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثَلْجًا ، ثُمّ أَخَذَانِي فَشَقّا بَطْنِي ، وَاسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقّاهُ فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا ، ثُمّ غَسَلاَ قَلْبِي وَبَطْنِي بِذَلِكَ الثّلْجِ حَتّى أَنْقَيَاهُ ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ زِنْهُ بِعَشَرَةٍ مِنْ أُمّتِهِ فَوَزَنَنِي بِهِمْ فَوَزَنْتهمْ ثُمّ قَالَ زِنْهُ بِمِئَةٍ مِنْ أُمّتِهِ فَوَزَنَنِي بِهِمْ فَوَزَنْتهمْ ثُمّ قَالَ زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْ أُمّتِهِ فَوَزَنَنِي بِهِمْ فَوَزَنْتهمْ فَقَالَ دَعْهُ عَنْك ، فَوَاَللّهِ لَوْ وَزَنْتَهُ بِأُمّتِهِ لَوَزَنَهَا) (١) .

وقد ورد من القرآن ما يؤيد هذا ، فقد ورد دعاء سيدنا إبراهيم ﷺ ببعث نبي من العرب إلى الناس لتعليمهم الكتاب والحكمة وتزكيتهم كما نطق القرآن بذلك حيث قال تعالى : { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }(٢) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٨٧ .

(٢) سورة البقرة : آية (١٢٩) .

وتحدث عن بشارة سيدنا عيسى عليه السلام به فقال تعالى : {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}(١) .

قال الحافظ ابن كثير : يقول تعالى إخبارًا عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، أي من ذرية إبراهيم . وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد – صلوات الله وسلامه عليه – رسولاً في الأميين إليهم، إلى سائر الأعجمين ، من الإنس والجن .

والمراد أن أول من نوّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره في الناس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتى أفصح بأسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسبًا ، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام حيث قام في بني إسرائيل خطيبًا ، وقال: { إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } [الصف : ٦] (٢) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } (٣) قَالَ فِي التَّوْرَاةِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ وَلاَ سَخَّابٍ بِالأَسْوَاقِ وَلاَ يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ

---

(١) سورة الصف : آية (٦) .

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ١/ ٢٤٣ بتصرف .

(٣) سورة الأحزاب : آية (٤٥) .

اللَّهُ فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا (١) .

الشرح والبيان :

قَوْله : (إِنَّ هَذِهِ الآيَة الَّتِي فِي الْقُرْآن (يَا أَيُّهَا النَّبِيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

قَالَ فِي التَّوْرَاة : (يَا أَيُّهَا النَّبِيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا) أَيْ شَاهِدًا عَلَى الأُمَّة وَمُبَشِّرًا لِلْمُطِيعِينَ بِالْجَنَّةِ وَلِلْعُصَاةِ بِالنَّارِ ، أَوْ شَاهِدًا لِلرُّسُلِ قَبْلَهُ بِالإِبْلاَغِ .

قَوْله : (وَحِرْزًا) بِكَسْرِ الْمُهْمَلَة وَسُكُون الرَّاء بَعْدَهَا زَاي أَيْ حِصْنًا ، وَحَافِظًا ، وَأَصْل الْحِرْز الْمَوْضِع الْحَصِين ، وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ ، وَالأُمِّيِّينَ هُمْ الْعَرَب.

قَوْله : (سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّل) أَيْ عَلَى اللَّه لِقَنَاعَتِهِ بِالْيَسِيرِ ، وَالصَّبْر عَلَى مَا كَانَ يَكْرَه.

قَوْله : (بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظ)هُوَ مُوَافِق لِقَوْلِهِ تَعَالَى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (٢) وَلاَ يُعَارِض قَوْله تَعَالَى (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (٣) لأَنَّ النَّفْي مَحْمُول عَلَى طَبْعه الَّذِي جُبِلَ عَلَيْهِ ، وَالأَمْر مَحْمُول عَلَى الْمُعَالَجَة ، أَوْ النَّفْي بِالنِّسْبَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالأَمْر بِالنِّسْبَةِ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ كَمَا هُوَ مُصَرَّح بِهِ فِي نَفْس الآيَة .

قَوْله : (وَلاَ سَخَّاب) كَذَا فِيهِ بِالسِّينِ الْمُهْمَلَة وَهِيَ لُغَة أَثْبَتَهَا الْفَرَّاء وَغَيْره ، وَبِالصَّاد أَشْهَر.

قَوْله : (وَلاَ يَدْفَع السَّيِّئَة بِالسَّيِّئَةِ) هُوَ مِثْل قَوْله تَعَالَى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع / بَاب : كَرَاهِيَةِ السَّخَبِ فِي السُّوقِ ٣/ ٢١ ، وفي التفسير / بَاب : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا } ٦/ ٤٤ ، ٤٥ ،

(٢) سورة آل عمران : آية (١٥٩) .

(٣) سورة التوبة : آية (٧٣) وسورة التحريم : آية.(٩) .

أَحْسَن)(١) زَادَ فِي رِوَايَة كَعْب " **مَوْلده بِمَكَّةَ وَمُهَاجَره طَيْبَة وَمُلْكه بِالشَّامِ** " .

قوله : (**وَلَنْ يَقْبِضه**) أَيْ يُمِيته .

قَوْله : (**حَتَّى يُقِيم بِهِ**) أَيْ حَتَّى يَنْفِيَ الشِّرْك وَيُثْبِت التَّوْحِيد .

وَقَوْله (**حَتَّى يُقِيم بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ**) أَيْ مِلَّةَ الْعَرَب وهي مِلَّة الْكُفْر ، وَوَصَفَهَا بِالْعِوَجِ لِمَا دَخَلَ فِيهَا مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَام ، وَالْمُرَاد بِإِقَامَتِهَا أَنْ يَخْرُجَ أَهْلُهَا مِنْ الْكُفْر إِلَى الإِيمَان .

قَوْله : (**فَيَفْتَح بِهَا**) أَيْ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيد (**أَعْيُنًا عُمْيًا**) أَيْ عَنْ الْحَقّ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى حَقِيقَته ، وَفِي رِوَايَة " **أَعْيُن عُمْي** " بِالإِضَافَة ، وَكَذَا الْكَلاَم فِي الآذَان وَالْقُلُوب . وَفِي مُرْسَل جُبَيْر بْن نُفَيْر بِإِسْنَاد صَحِيح عِنْدَ الدَّارِمِيّ " **لَيْسَ بِوَهْنٍ وَلاَ كَسَل ، لِيَخْتِنَ قُلُوبًا غُلْفًا ، وَيَفْتَح أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَيُسْمِع آذَانًا صُمًّا ، وَيُقِيم أَلْسِنَة عَوْجَاء حَتَّى يُقَال لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّه وَحْدَهُ** "

وَقَوْله : (**وَقُلُوبًا غُلْفًا**) قَالَ أَبُو عَبْد اللَّه يَعْنِي الْمُصَنِّف (البخاري) : الْغُلْف كُلّ شَيْء فِي غِلاَف ، يُقَال سَيْف أَغْلَفُ وَقَوْسٌ غَلْفَاءُ وَرَجُلٌ أَغْلَفُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَخْتُونًا (٢) .

وقد وردت في السنة أحاديث كثيرة تحدث فيها ﷺ عن فضل الله وإنعامه عليه بعطايا كثيرة ، فضله بها عن غيره من سائر بني آدم .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**) (٣) .

---

(١) سورة فصلت : آية (٣٤) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٠٢/٤ ، ٤٠٣ ، ٤٥٠/٨ ، ٤٥١ بتصرف .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل / بَاب : تَفْضِيلِ نَبِيِّنَا ﷺ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ١٧٨٢/٤ ح ٢٢٧٨.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ) (١) .

الشرح والبيان :

قال الإمام النووي رحمه الله : قَوْله ﷺ : (**أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم يَوْم الْقِيَامَة ، وَأَوَّل مَنْ يَنْشَقّ عَنْهُ الْقَبْر ، وَأَوَّل شَافِع وَأَوَّل مُشَفَّع**) .

قَالَ الْهَرَوِيُّ : السَّيِّد هُوَ الَّذِي يَفُوقُ قَوْمه فِي الْخَيْر ، وَقَالَ غَيْره : هُوَ الَّذِي يُفْزَعُ إِلَيْهِ فِي النَّوَائِب وَالشَّدَائِد ، فَيَقُومُ بِأَمْرِهِمْ ، وَيَتَحَمَّلُ عَنْهُمْ مَكَارِههمْ ، وَيَدْفَعُهَا عَنْهُمْ .

وَأَمَّا قَوْله ﷺ : (**يَوْم الْقِيَامَة**) مَعَ أَنَّهُ سَيِّدهمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة ، فَسَبَبُ التَّقْيِيدِ أَنَّ فِي يَوْم الْقِيَامَة يَظْهَرُ سُؤْدُده لِكُلِّ أَحَد ، وَلَا يَبْقَى مُنَازِع ، وَلَا مُعَانِد ، وَنَحْوه ، بِخِلَاف الدُّنْيَا فَقَدْ نَازَعَهُ ذَلِكَ فِيهَا مُلُوكُ الْكُفَّار وَزُعَمَاء الْمُشْرِكِينَ .

وَهَذَا التَّقْيِيد قَرِيب مِنْ مَعْنَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾(٢) مَعَ أَنَّ الْمُلْكَ لَهُ سُبْحَانه قَبْل ذَلِكَ ، لَكِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا مَنْ يَدَّعِي الْمُلْكَ ، أَوْ مَنْ يُضَافُ إِلَيْهِ مَجَازًا ، فَانْقَطَعَ كُلّ ذَلِكَ فِي الْآخِرَة .

قَالَ الْعُلَمَاء : وَقَوْله ﷺ : (**أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم**) لَمْ يَقُلْهُ فَخْرًا ، بَلْ صَرَّحَ بِنَفْيِ الْفَخْر فِي غَيْر مُسْلِم فِي الْحَدِيث الْمَشْهُور (**أَنَا سَيِّد وَلَد آدَم وَلَا فَخْرَ**) وَإِنَّمَا قَالَهُ لِوَجْهَيْنِ :

أَحَدهمَا : امْتِثَال قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٣) .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب / بَاب : فِي فَضْلِ النَّبِيِّ ﷺ ٥٤٨/٥ ح ٣٦١٥ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٢) سورة غافر : آية (١٦) .

(٣) سورة الضحى : آية (١١) .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ مِنْ الْبَيَان الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ تَبْلِيغه إِلَى أُمَّته لِيَعْرِفُوهُ ، وَيَعْتَقِدُوهُ ، وَيَعْمَلُوا بِمُقْتَضَاهُ ، وَيُوَقِّرُوهُ ﷺ بِمَا تَقْتَضِي مَرْتَبَتَهُ كَمَا أَمَرَهُمْ اللَّه تَعَالَى .

وَهَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِتَفْضِيلِهِ ﷺ عَلَى الْخَلْق كُلّهمْ ؛ لأَنَّ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة أَنَّ الآدَمِيِّينَ أَفْضَل مِنْ الْمَلائِكَة ، وَهُوَ ﷺ أَفْضَل الآدَمِيِّينَ وَغَيْرهمْ .

وَأَمَّا الْحَدِيث الآخَر : " **لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاء** " فَجَوَابه مِنْ خَمْسَة أَوْجُه :

أَحَدهمَا : أَنَّهُ ﷺ قَالَهُ قَبْل أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ سَيِّد وَلَد آدَم ، فَلَمَّا عَلِمَ أَخْبَرَ بِهِ .

وَالثَّانِي : قَالَهُ أَدَبًا وَتَوَاضُعًا .

وَالثَّالِث : أَنَّ النَّهْيَ إِنَّمَا هُوَ عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى تَنْقِيص الْمَفْضُول .

وَالرَّابِع : إِنَّمَا نَهْيٌ عَنْ تَفْضِيلٍ يُؤَدِّي إِلَى الْخُصُومَة وَالْفِتْنَة كَمَا هُوَ الْمَشْهُور فِي سَبَب الْحَدِيث .

وَالْخَامِس : أَنَّ النَّهْيَ مُخْتَصٌّ بِالتَّفْضِيلِ فِي نَفْس النُّبُوَّة ، فَلاَ تَفَاضُلَ فِيهَا ، وَإِنَّمَا التَّفَاضُل بِالْخَصَائِصِ وَفَضَائِل أُخْرَى وَلاَ بُدَّ مِنْ اِعْتِقَادِ التَّفْضِيل ، فَقَدْ قَالَ اللَّه تَعَالَى { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } (١) .

قَوْله ﷺ : (**وَأَوَّل شَافِع وَأَوَّل مُشَفَّع**) إِنَّمَا ذَكَرَ الثَّانِي لأَنَّهُ قَدْ يَشْفَعُ اِثْنَانِ ، فَيَشْفَعُ الثَّانِي مِنْهُمَا قَبْل الأَوَّل . وَاللَّه أَعْلَم (٢) .

أسماؤه ﷺ :

ذكر القرآن الكريم لرسول الله ﷺ أسماء كثيرة منها : محمد ، وأحمد ، والمزمل ، والمدثر ، وغيرها ، وورد في السنة أسماء أخرى ﷺ .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٥٣) .
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥ / ٣٧ ، ٣٨ .

فَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ**)(١)

وجاء عنه في رواية مسلم : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**إِنَّ لِي أَسْمَاءً أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ رَءُوفًا رَحِيمًا**)(٢) .

الشرح والبيان :

قال الحافظ ابن حجر : قَوْله : (**لِي خَمْسَة أَسْمَاء**) فِي رِوَايَة نَافِع بْن جُبَيْر عِنْد اِبْن سَعْد أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَبْد الْمَلِك بْن مَرْوَان فَقَالَ لَهُ : أَتُحْصِي أَسْمَاء رَسُول اللَّه ﷺ الَّتِي كَانَ جُبَيْر بْن مُطْعِم يَعُدُّهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، هِيَ سِتّ . فَذَكَرَ الْخَمْسَة الَّتِي ذَكَرَهَا مُحَمَّد بْن جُبَيْر وَزَادَ الْخَاتَم ، لَكِنْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي " الدَّلَائِل " مِنْ طَرِيق اِبْن أَبِي حَفْصَة عَنْ الزُّهْرِيّ فِي حَدِيث مُحَمَّد بْن جُبَيْر بْن مُطْعِم " **وَأَنَا الْعَاقِب** " قَالَ : يَعْنِي الْخَاتَم ، وَفِي حَدِيث حُذَيْفَة " **أَحْمَد وَمُحَمَّد وَالْحَاشِر وَالْمُقَفَّى وَنَبِيّ الرَّحْمَة** " (٣) وَكَذَا فِي حَدِيث أَبِي مُوسَى (٤) إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُر الْحَاشِر ، وَزَعَمَ بَعْضهمْ أَنَّ الْعَدَد لَيْسَ مِنْ قَوْل النَّبِيّ ﷺ وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ الرَّاوِي بِالْمَعْنَى ،

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري المناقب / بَاب : مَا جَاءَ فِي أَسْمَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ١٦٢/٤ ، وفي التفسير / بَاب : قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } ٦٢/٦ ، ومسلم في الفضائل / بَاب : فِي أَسْمَائِهِ ﷺ ١٨٢٨/٤ ح ٢٣٥٤ .

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٤٠٥/٥ وسنده حسن لذاته .

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل / بَاب : فِي أَسْمَائِهِ ﷺ ١٨٢٨/٤ ، ١٨٢٩ ح ٢٣٥٥ .

وَفِيهِ نَظَر لِتَصْرِيحِهِ فِي الْحَدِيث بِقَوْلِه : " إِنَّ لِي خَمْسَة أَسْمَاء " وَالَّذِي يَظْهَر أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ لِي خَمْسَة أَسْمَاء أَخْتَصّ بِهَا لَمْ يُسَمَّ بِهَا أَحَد قَبْلِي ، أَوْ مُعَظَّمَة أَوْ مَشْهُورَة فِي الأُمَم الْمَاضِيَة ، لاَ أَنَّهُ أَرَادَ الْحَصْر فِيهَا .

قَالَ عِيَاض : حَمَى اللَّه هَذِهِ الأَسْمَاء أَنْ يُسَمَّى بِهَا أَحَد قَبْله ، وَإِنَّمَا تَسَمَّى بَعْض الْعَرَب مُحَمَّدًا قُرْب مِيلَاده لِمَا سَمِعُوا مِنْ الْكُهَّان وَالأَحْبَار أَنَّ نَبِيًّا سَيُبْعَثُ فِي ذَلِكَ الزَّمَان يُسَمَّى مُحَمَّدًا فَرَجَوْا أَنْ يَكُونُوا هُمْ فَسَمَّوْا أَبْنَاءَهُمْ بِذَلِكَ ، قَالَ : وَهُمْ سِتَّة لاَ سَابِع لَهُمْ ، كَذَا قَالَ ، وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي " الرَّوْض " لاَ يُعْرَف فِي الْعَرَب مَنْ تَسَمَّى مُحَمَّدًا قَبْل النَّبِيّ ﷺ إِلاَّ ثَلاَثَة : مُحَمَّد بْن سُفْيَان بْن مُجَاشِع ، وَمُحَمَّد بْن أُحَيْحَة بْن الْجُلَاح ، وَمُحَمَّد بْن حُمْرَان بْن رَبِيعَة .

وَسَبَقَ السُّهَيْلِيَّ إِلَى هَذَا الْقَوْل أَبُو عَبْد اللَّه بْن خَالَوَيْهِ فِي كِتَاب " لَيْسَ " وَهُوَ حَصْر مَرْدُود .

وَقَدْ جَمَعْت أَسْمَاء مَنْ تَسَمَّى بِذَلِكَ فِي جُزْء مُفْرَد فَبَلَغُوا نَحْو الْعِشْرِينَ لَكِنْ مَعَ تَكَرُّر فِي بَعْضهمْ وَوَهْم فِي بَعْض ، فَيَتَلَخَّص مِنْهُمْ خَمْسَة عَشَر نَفْسًا ، وَعَجِبَ مِنْ السُّهَيْلِيِّ كَيْف لَمْ يَقِف عَلَى مَا ذَكَرَهُ عِيَاض مَعَ كَوْنه كَانَ قَبْله ، وَقَدْ تَحَرَّرَ لَنَا مِنْ أَسْمَائِهِمْ قَدْر الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي مَرَّتَيْنِ بَلْ ثَلاَث مِرَار فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي السِّتَّة الَّذِينَ جَزَمَ بِهِمْ مُحَمَّد بْن مَسْلَمَة ، وَهُوَ غَلَط فَإِنَّهُ وُلِدَ بَعْد مِيلَاد النَّبِيّ ﷺ بِمُدَّة فَفَضَلَ لَهُ خَمْسَة وَقَدْ خَلَصَ لَنَا خَمْسَة عَشَر وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

قَوْله : (وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّه بِي الْكُفْر)

قِيلَ الْمُرَاد إِزَالَة ذَلِكَ مِنْ جَزِيرَة الْعَرَب ، وَفِيهِ نَظَرٌ ؛ لأَنَّهُ وَقَعَ فِي رِوَايَة عَقِيل وَمَعْمَر " **يَمْحُو بِي اللَّه الْكَفَرَة** " (١) وَيُجَاب بِأَنَّ الْمُرَاد إِزَالَة الْكُفْر بِإِزَالَة أَهْله ، وَإِنَّمَا قُيِّدَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَب لأَنَّ الْكُفْر مَا انْمَحَا مِنْ جَمِيع الْبِلَاد ، وَقِيلَ : إِنَّهُ مَحْمُول عَلَى الأَغْلَب أَوْ أَنَّهُ يَنْمَحِي بِسَبَبِهِ أَوَّلاً فَأَوَّلاً إِلَى أَنْ يَضْمَحِلّ فِي زَمَن عِيسَى ابْن مَرْيَم فَإِنَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل / باب : في أسمائه ﷺ ١٨٢٨/٤ ح ٢٣٥٤ .

يَرْفَع الْجِزْيَة وَلاَ يَقْبَل إِلاَّ الإِسْلاَم ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ السَّاعَة لاَ تَقُوم إِلاَّ عَلَى شِرَار النَّاس ، وَيُجَاب بِجَوَاز أَنْ يَرْتَدّ بَعْضهمْ بَعْد مَوْت عِيسَى وَتُرْسَل الرِّيح فَتَقْبِض رُوح كُلّ مُؤْمِن وَمُؤْمِنَة فَحِينَئِذٍ فَلاَ يَبْقَى إِلاَّ الشِّرَار ، وَفِي رِوَايَة نَافِع بْن جُبَيْر " **وَأَنَا الْمَاحِي فَإِنَّ اللَّه يَمْحُو بِهِ سَيِّئَات مَنْ اتَّبَعَهُ** " وَهَذَا يُشْبِه أَنْ يَكُون مِنْ قَوْل الرَّاوِي .

قَوْله : (**وَأَنَا الْحَاشِر الَّذِي يُحْشَر النَّاس عَلَى قَدَم** أَيْ عَلَى أَثَرِي أَيْ إِنَّهُ يُحْشَر قَبْل النَّاس ، وَهُوَ مُوَافِق لِقَوْلِهِ فِي الرِّوَايَة الأُخْرَى : "**يُحْشَر النَّاس عَلَى عَقِبِي** " وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِالْقَدَمِ الزَّمَان أَيْ وَقْت قِيَامِي عَلَى قَدَمِي بِظُهُور عَلاَمَات الْحَشْر ، إِشَارَة إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بَعْده نَبِيّ وَلاَ شَرِيعَة . وَاسْتُشْكِلَ التَّفْسِير بِأَنَّهُ يَقْضِي بِأَنَّهُ مَحْشُور فَكَيْف يُفَسَّر بِهِ حَاشِر وَهُوَ اِسْم فَاعِل ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ إِسْنَاد الْفِعْل إِلَى الْفَاعِل إِضَافَةٌ وَالإِضَافَةُ تَصِحُّ بِأَدْنَى مُلاَبَسَة ، فَلَمَّا كَانَ لاَ أُمَّة بَعْد أُمَّته لأَنَّهُ لاَ نَبِيّ بَعْده نُسِبَ الْحَشْر إِلَيْهِ لأَنَّهُ يَقَع عَقِبه ، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَوَّل مَنْ يُحْشَر كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيث الآخَر " **أَنَا أَوَّل مَنْ تَنْشَقّ عَنْهُ الأَرْض** " وَقِيلَ مَعْنَى الْقَدَم السَّبَب ، وَقِيلَ الْمُرَاد عَلَى مُشَاهَدَتِي قَائِمًا لِلَّهِ شَاهِدًا عَلَى الأُمَم . وَوَقَعَ فِي رِوَايَة نَافِع بْن جُبَيْر " وَأَنَا حَاشِر **بُعِثْت مَعَ السَّاعَة** " وَهُوَ يُرَجِّح الأَوَّل .

قَوْله : (**وَأَنَا الْعَاقِب**) زَادَ يُونُس بْن يَزِيد فِي رِوَايَته عَنْ الزُّهْرِيّ " **الَّذِي لَيْسَ بَعْده نَبِيّ ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّه رَءُوفًا رَحِيمًا** " قَالَ الْبَيْهَقِيُّ فِي " الدَّلاَئِل " قَوْله : " وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّه إِلَخْ " مُدْرَج مِنْ قَوْل الزُّهْرِيّ . قُلْت : وَهُوَ كَذَلِكَ وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى مَا فِي آخِر سُورَة بَرَاءَة .

وَأَمَّا قَوْله : " **الَّذِي لَيْسَ بَعْده نَبِيّ** " فَظَاهِره الإِدْرَاج أَيْضًا ، لَكِنْ وَقَعَ فِي رِوَايَة سُفْيَان بْن عُيَيْنَةَ عِنْد التِّرْمِذِيّ وَغَيْره بِلَفْظِ " **الَّذِي لَيْسَ بَعْدِي نَبِيّ** " وَوَقَعَ فِي رِوَايَة نَافِع بْن جُبَيْر أَنَّهُ عَقِب الأَنْبِيَاء ، وَهُوَ مُحْتَمِلٌ لِلرَّفْعِ وَالْوَقْف . وَمِمَّا وَقَعَ مِنْ أَسْمَائِهِ فِي الْقُرْآن بِالاتِّفَاقِ " الشَّاهِد الْمُبَشِّر النَّذِير الْمُبِين الدَّاعِي إِلَى اللَّه السِّرَاج الْمُنِير " وَفِيهِ أَيْضًا : " الْمُذَكِّر وَالرَّحْمَة وَالنِّعْمَة وَالْهَادِي وَالشَّهِيد وَالأَمِين وَالْمُزَّمِّل وَالْمُدَّثِّر " وَتَقَدَّمَ فِي حَدِيث عَبْد اللَّه بْن عَمْرو بْن الْعَاصِ " الْمُتَوَكِّل " ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الْمَشْهُورَة " الْمُخْتَار

وَالْمُصْطَفَى وَالشَّفِيعُ الْمُشَفَّعُ وَالصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ " وَغَيْرُ ذَلِكَ قَالَ ابْنُ دِحْيَةَ فِي تَصْنِيفٍ لَهُ مُفْرَدٍ فِي الأَسْمَاءِ النَّبَوِيَّةِ : قَالَ بَعْضُهُمْ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ عَدَدَ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا ، قَالَ : وَلَوْ بَحَثَ عَنْهَا بَاحِثٌ لَبَلَغَتْ ثَلاثَمِائَةِ اسْمٍ ، وَذَكَرَ فِي تَصْنِيفِهِ الْمَذْكُورِ أَمَاكِنَهَا مِنْ الْقُرْآنِ وَالأَخْبَارِ وَضَبَطَ أَلْفَاظَهَا وَشَرَحَ مَعَانِيهَا وَاسْتَطْرَدَ كَعَادَتِهِ إِلَى فَوَائِدَ كَثِيرَةٍ ، وَغَالِبُ الأَسْمَاءِ الَّتِي ذَكَرَهَا وُصِفَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَرِدْ الْكَثِيرُ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ التَّسْمِيَةِ ، مِثْلُ عَدِّهِ اللَّبِنَةَ بِفَتْحِ اللامِ وَكَسْرِ الْمُوَحَّدَةِ ثُمَّ النُّونِ فِي أَسْمَائِهِ لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ فِي الْبَابِ بَعْدَهُ فِي الْقَصْرِ الَّذِي مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ قَالَ : " **فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ** " كَذَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ " **مَوْضِعِ اللَّبِنَةِ** " وَهُوَ الْمُرَادُ . وَنَقَلَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي شَرْحِ التِّرْمِذِيِّ عَنْ بَعْضِ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ لِلَّهِ أَلْفَ اسْمٍ وَلِرَسُولِهِ أَلْفَ اسْمٍ :

وَقِيلَ : الْحِكْمَةُ فِي الاقْتِصَارِ عَلَى الْخَمْسَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهَا أَشْهَرُ مِنْ غَيْرِهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ وَبَيْنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ (١) .

يقول ابن القيم : وَكُلُّهَا نُعُوتٌ لَيْسَتْ أَعْلامًا مَحْضَةً لِمُجَرَّدِ التَّعْرِيفِ بَلْ أَسْمَاءٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ صِفَاتٍ قَائِمَةٍ بِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَدْحَ وَالْكَمَالَ :
فَمِنْهَا : مُحَمَّدٌ ، وَهُوَ أَشْهَرُهَا وَبِهِ سُمِّيَ فِي التَّوْرَاةِ صَرِيحًا . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اسْمَهُ مُحَمَّدٌ فِي التَّوْرَاةِ صَرِيحًا بِمَا يُوَافِقُ عَلَيْهِ كُلُّ عَالِمٍ مِنْ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ .
وَمِنْهَا : أَحْمَد ، وَهُوَ الاسْمُ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ الْمَسِيحُ .
وَمِنْهَا : الْمُتَوَكِّلُ .
وَمِنْهَا : الْمَاحِي ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْعَاقِبُ ، وَالْمُقَفِّي ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ ، وَنَبِيُّ الْمَلْحَمَةِ ، وَالْفَاتِحُ ، وَالأَمِينُ .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/٦٤٢ :٦٤٥ بتصرف .

وَيَلْحَقُ بِهَذِهِ الأَسْمَاءِ : الشَّاهِدُ ، وَالْمُبَشِّرُ ، وَالْبَشِيرُ ، وَالنَّذِيرُ ، وَالْقَاسِمُ ، وَالضَّحُوكُ ، وَالْقَتَّالُ ، وَعَبْدُ اللَّهِ ، وَالسِّرَاجُ الْمُنِيرُ ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَصَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ ، وَصَاحِبُ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَسْمَاءِ ، لأَنَّ أَسْمَاءَهُ إِذَا كَانَتْ أَوْصَافَ مَدْحٍ فَلَهُ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ اسْمٌ لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْوَصْفِ الْمُخْتَصِّ بِهِ أَوْ الْغَالِبِ عَلَيْهِ ، وَيُشْتَقُّ لَهُ مِنْهُ اسْمٌ ، وَبَيْنَ الْوَصْفِ الْمُشْتَرَكِ فَلاَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُ اسْمٌ يَخُصُّهُ .

وَأَسْمَاؤُهُ ﷺ نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا : خَاصٌ لاَ يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ كَمُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَالْعَاقِبِ وَالْحَاشِرِ وَالْمُقَفِّي وَنَبِيِّ الْمَلْحَمَةِ .

وَالثَّانِي : مَا يُشَارِكُهُ فِي مَعْنَاهُ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ وَلَكِنْ لَهُ مِنْهُ كَمَالُهُ فَهُوَ مُخْتَصٌّ بِكَمَالِهِ دُونَ أَصْلِهِ كَرَسُولِ اللَّهِ وَنَبِيِّهِ وَعَبْدِهِ وَالشَّاهِدِ وَالْمُبَشِّرِ وَالنَّذِيرِ وَنَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيِّ التَّوْبَةِ .

وَأَمَّا إِنْ جُعِلَ لَهُ مِنْ كُلِّ وَصْفٍ مِنْ أَوْصَافِهِ اسْمٌ تَجَاوَزَتْ أَسْمَاؤُهُ الْمِائَتَيْنِ كَالصَّادِقِ وَالْمَصْدُوقِ وَالرَّءُوفِ الرَّحِيمِ إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ لِلَّهِ أَلْفَ اسْمٍ وَلِلنَّبِيِّ ﷺ أَلْفَ اسْمٍ قَالَهُ أَبُو الْخَطَّابِ بْنُ دِحْيَةَ وَمَقْصُودُهُ الأَوْصَافُ (١) .

حادث شق صدره ﷺ :

يقصد بهذه الحادثة عملية شق صدره ﷺ ، والتى قصد منها تطهير قلبه وصدره من حظ ونزغ الشيطان ، فأراد الله سبحانه أن يطهره لمهمة الرسالة التي تنتظره .

تقول السيدة حليمة كما روى ابن إسحاق عنها : فَوَاللَّهِ إِنَّهُ بَعْدَ مَقْدِمِنَا بِهِ بِأَشْهُرٍ مَعَ أَخِيهِ لَفِي بَهْمٍ لَنَا خَلْفَ بُيُوتِنَا ، إِذْ أَتَانَا أَخُوهُ يَشْتَدُّ ، فَقَالَ لِي وَلأَبِيهِ ذَاكَ أَخِي الْقُرَشِيُّ قَدْ أَخَذَهُ رَجُلاَنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَاهُ فَشَقَّا بَطْنَهُ فَهُمَا يَسُوطَانِهِ . قَالَتْ

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ١/ ٢٠ .

فخَرَجْتُ أنَا وَأبُوهُ نَحْوَهُ فَوَجَدْنَاهُ قَائِمًا مُنْتَقِعًا وَجْهُهُ . قَالَتْ فَالْتَزَمْته وَالْتَزَمَهُ أَبُوهُ فَقُلْنَا لَهُ مَا لَك يَا بُنَيّ؟ قَالَ جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَانِي وَشَقّا بَطْنِي ، فَالْتَمَسَا فِيهِ شَيْئًا لاَ أَدْرِي مَا هُوَ . قَالَتْ فَرَجَعْنَا بِهِ إلَى خِبَائِنَا . قَالَتْ وَقَالَ لِي أَبُوهُ يَا حَلِيمَةُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلاَمُ قَدْ أُصِيبَ فَأَلْحِقِيهِ بِأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ بِهِ . قَالَتْ : فَاحْتَمَلْنَاهُ فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمّهِ فَقَالَتْ : مَا أَقْدَمَك بِهِ يَا ظِئْرُ وَقَدْ كُنْت حَرِيصَةً عَلَيْهِ وَعَلَى مُكْثِهِ عِنْدَك ؟ قَالَتْ فَقُلْت : قَدْ بَلَغَ اللّهُ بِابْنِي وَقَضَيْتُ الّذِي عَلَيّ وَتَخَوّفْت الْأَحْدَاثَ عَلَيْهِ فَأَدّيْته إلَيْك كَمَا تُحِبّينَ قَالَتْ مَا هَذَا شَأْنُك ، فَاصْدُقِينِي خَبَرَك . قَالَتْ فَلَمْ تَدَعْنِي حَتّى أَخْبَرْتُهَا . قَالَتْ أَفَتَخَوّفْتِ عَلَيْهِ الشّيْطَانَ ؟ قَالَتْ قُلْت نَعَمْ . قَالَتْ : كَلاّ !! ، وَاَللّهِ مَا لِلشّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ وَإِنّ لِبُنَيّ لَشَأْنًا ، أَفَلاَ أُخْبِرُك خَبَرَهُ ؟ قَالَتْ : قُلْت : بَلَى ، قَالَتْ : رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أَنّهُ خَرَجَ مِنّي نُورٌ أَضَاءَ لِي قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشّامِ ، ثُمّ حَمَلْتُ بِهِ فَوَاَللّهِ مَا رَأَيْت مِنْ حَمْلٍ قَطّ كَانَ أَخَفّ عَلَيّ وَلاَ أَيْسَرَ مِنْهُ وَوَقَعَ حِينَ وَلَدْته وَإِنّهُ لَوَاضِعٌ يَدَيْهِ بِالأَرْضِ ، رَافِعٌ رَأْسَهُ إلَى السّمَاءِ ، دَعِيهِ عَنْك وَانْطَلِقِي رَاشِدَةً (١) .

ثم إن لهذه الحادثة ما يؤيدها من السنة الصحيحة فقد روى الإمام مسلم ﷺ بسنده إلى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ : (**أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً ، فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ**) قَالَ أَنَسٌ : وَقَدْ كُنْتُ أَرْئِي أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ (٢) .

وهذه الحادثة وقعت لرسول الله ﷺ مرتين ، مرة في صغره كما تقدم وذلك لنزع

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٨٥ ، ٨٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان / بَاب : الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ ١/١٤٧ ح ١٦٢

حظ الشيطان منه حتى لا يكون له سلطان عليه ، أما المرة الثانية فذلك ليلة الإسراء والمعراج ، وذلك والله أعلم حتى لا يضيق نفسه وهو يصعد في السماء ، ولتطهيره لملاقاة رب الأرباب ، والإطلاع على العالم العلوي ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ كَانَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (**فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ**)(١) .

قال الإمام السهيلي : وَهَذَا الْخَبَرُ يُرْوَى عَنْهُ – ﷺ – عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ شُقَّ عَنْ قَلْبِهِ وَهُوَ مَعَ رَابَّتِهِ وَمُرْضِعَتِهِ فِي بَنِي سَعْدٍ ، وَأَنَّهُ جِيءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ ثَلْجٌ فَغُسِلَ بِهِ قَلْبُهُ ، وَالثَّانِي فِيهِ أَنَّهُ غُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ حِينَ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَمَا بُعِثَ بِأَعْوَامٍ ، وَفِيهِ أَنَّهُ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأُفْرِغَ فِي قَلْبِهِ . وَذَكَرَ بَعْضُ مَنْ أَلَّفَ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ أَنَّهُ تَعَارَضَ فِي الرِّوَايَتَيْنِ وَجَعَلَ يَأْخُذُ فِي تَرْجِيحِ الرُّوَاةِ وَتَغْلِيطِ بَعْضِهِمْ وَلَيْسَ الأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ كَانَ هَذَا التَّقْدِيسُ وَهَذَا التَّطْهِيرُ مَرَّتَيْنِ .

الأُولَى : فِي حَالِ الطُّفُولَةِ لِيُنَقَّى قَلْبُهُ مِنْ مَغْمَزِ الشَّيْطَانِ وَلِيُطَهَّرَ وَيُقَدَّسَ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ حَتَّى لاَ يَتَلَبَّسَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُعَابُ عَلَى الرِّجَالِ وَحَتَّى لاَ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ إِلاَّ التَّوْحِيدُ وَلِذَلِكَ قَالَ : " فَوَلَّيَا عَنِّي " ، يَعْنِي : الْمَلَكَيْنِ وَكَأَنِّي أُعَايِنُ الأَمْرَ مُعَايَنَةً .

وَالثَّانِيَةُ : فِي حَالِ اكْتِهَالٍ وَبَعْدَمَا نُبِّئَ وَعِنْدَمَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى الْحَضْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي لاَ يَصْعَدُ إِلَيْهَا إِلاَّ مُقَدَّسٌ ، وَعُرِجَ بِهِ هُنَالِكَ لِتُفْرَضَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَلِيُصَلِّيَ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري والحديث بطوله في كتاب الصلاة / بَاب : كَيْفَ فُرِضَتْ الصَّلاةُ فِي الإِسْرَاءِ ١/٩١ ، ٩٢ ، وفي أحاديث الأنبياء / بَاب : ذِكْرِ إِدْرِيسَ ﷺ وَهُوَ جَدُّ أَبِي نُوحٍ وَيُقَالُ جَدُّ نُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلام ٤/١٠٦ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ ١/١٤٨ ح ١٦٣

بِمَلاَئِكَةِ السماوات ، وَمِنْ شَأْنِ الصَلاَةِ الطَّهُورُ فَقُدِّسَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَغُسِلَ بِمَاءِ زَمْزَمَ .

وَفِي الْمَرَّةِ الأُولَى بِالثَّلْجِ لِمَا يُشْعِرُ الثَلْجُ مِنْ ثَلْجِ الْيَقِينِ وَبَرْدِهِ عَلَى الْفُؤَادِ وَكَذَلِكَ هُنَاكَ حَصَلَ لَهُ الْيَقِينُ بِالأَمْرِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ وَبِوَحْدَانِيَّةِ رَبِّهِ .

وَأَمَّا فِي الثَّانِيَةِ فَقَدْ كَانَ مُوقِنًا مُنَبَّئًا ، فَإِنَّمَا طُهِّرَ لِمَعْنَى آخَرَ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ دُخُولِ حَضْرَةِ الْقُدْسِ وَالصَلاَةِ فِيهَا ، وَلِقَاءِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ فَغَسَلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ بِمَاءِ زَمْزَمَ الَّتِي هِيَ هزمة روح الْقُدُسِ ، وَهَمْزَةُ عَقِبِهِ لأَبِيهِ إِسْمَاعِيلَ ﷺ – وَجِيءَ بِطَسْتٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَأُفْرِغَ فِي قَلْبِهِ وَقَدْ كَانَ مُؤْمِنًا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) [الفَتْح : ٤] وَقَالَ : (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) [المُدَثِّر : ٣١] .

فَإِنْ قِيلَ : وَكَيْفَ يَكُونُ الإِيمَانُ وَالْحِكْمَةُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَالإِيمَانُ عَرَضٌ ، وَالأَعْرَاضُ لاَ يُوصَفُ بِهَا إِلاَّ مَحَلُّهَا الَّذِي تَقُومُ بِهِ ، وَلاَ يَجُوزُ فِيهِ الانْتِقَالُ ، لأَنَّ الانْتِقَالَ مِنْ صِفَةِ الأَجْسَامِ لاَ مِنْ صِفَةِ الأَعْرَاضِ ؟ قُلْنَا : إِنَّمَا عَبَّرَ عَمَّا كَانَ فِي الطَّسْتِ بِالْحِكْمَةِ وَالإِيمَانِ كَمَا عَبَّرَ عَنِ اللَّبَنِ الَّذِي شَرِبَهُ وَأَعْطَى فَضْلَهُ عُمَرَ – ﷺ – بِالْعِلْمِ فَكَانَ تَأْوِيلُ مَا أُفْرِغَ فِي قَلْبِهِ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، وَلَعَلَّ الَّذِي كَانَ فِي الطَّسْتِ كَانَ ثَلْجًا وَبَرَدًا – كَمَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ الأَوَّلِ – فَعَبَّرَ عَنْهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ بِمَا يَئُولُ إِلَيْهِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ فِي الْمَرَّةِ الأُولَى بِصُورَتِهِ الَّتِي رَآهَا ، لأَنَّهُ فِي الْمَرَّةِ الأُولَى كَانَ طِفْلاً ، فَلَمَّا رَأَى الثَّلْجَ فِي طَسْتِ الذَّهَبِ اعْتَقَدَهُ ثَلْجًا ، حَتَّى عَرَفَ تَأْوِيلَهُ بَعْدُ . وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ كَانَ نَبِيًّا ، فَلَمَّا رَأَى طَسْتَ الذَّهَبِ مَمْلُوءًا ثَلْجًا عَلِمَ التَّأْوِيلَ لِحِينِهِ وَاعْتَقَدَهُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ حِكْمَةً وَإِيمَانًا ، فَكَانَ لَفْظُهُ فِي الْحَدِيثَيْنِ عَلَى حَسَبِ اعْتِقَادِهِ فِي الْمَقَامَيْنِ(١) .

---

(١) الروض الأنف ١/٧٨ ، ٧٩ .

وهذا من امتنان الله على نبيه ﷺ وقد ذكر شرح صدره في سورة الشرح من الكتاب العزيز ، فقال تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ - وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ - الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ - وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ - فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً - إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً - فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ - وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (١) .

وفاة أمه ﷺ :

شاءت إرادة الله تعالى أن يموت والده ﷺ وهو حمل في بطن أمه ، أو بعد ولادته بقليل ، ثم لم يلبث أن توفيت والدته وهو ابن ست سنين فنشأ بين فقدان الأب وحرمان حنان الأم ليتلطف به ربه ويغنيه عنهما بقوله : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى - وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى - وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى - فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ - وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ - وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (٢) .

يقول ابْنُ إِسْحَاقَ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَ أُمِّهِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ وَجَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ابْنِ هَاشِمٍ فِي كَلَاءَةِ اللَّهِ وَحفظه يُنْبِتُهُ اللَّهُ نَبَاتًا حَسَنًا لِمَا يُرِيدُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتَّ سِنِينَ تُوُفِّيَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ .

ثم قَالَ : حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ : أَنَّ أُمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آمِنَةَ تُوُفِّيَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنُ سِتِّ سِنِينَ بِالأَبْوَاءِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، كَانَتْ قَدْ قَدِمَتْ بِهِ عَلَى أَخْوَالِهِ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ تُزِيرُهُ إِيَّاهُمْ فَمَاتَتْ وَهِيَ رَاجِعَةٌ بِهِ إِلَى مَكَّةَ (٣) .

---

(١) سورة الشرح .

(٢) سورة الضحى الآيات (٦: ١١) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٨٨/١ .

النبي ﷺ في كفالة جده وعمه :

كل هذه الأحداث جعلت قلب عبد المطلب يتقد حناناً وشوقاً إلى رؤية حفيده من ابنه عبد الله ، فأحاطه بالرعاية والحنان والدفء ، فأثر ذلك الحب في شخصية النبي ﷺ عندما كبر ، فكان دائماً يعلن عن نفسه بأنه ابن عبد المطلب كما حدث في غزوة حنين عندما انجفل الناس من شبح الهزيمة ، فأخذ ﷺ يلملم شملهم ، ويوحد صفوفهم ، ويقول : **(أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)** (١) .

توقد قلب عبد المطلب جد الرسول ﷺ حناناً وحباً لحفيده محمد ، وأخذ يحوطه بالرعاية والاهتمام ، وغرضه من ذلك تعويض الطفل اليتيم حنان والده الفقيد ، وفي ذلك تسلية لقلب عبد المطلب على فراق ابنه عبد الله ، فبحث له من يرضعه واطمأن عليه في يد السيدة حليمة السعدية ، وتابع خطوات الطفل الرضيع ، وكثيراً ما أوصى أمه آمنة به خيراً ، وكذلك حاضنته أم أيمن ، وعمه أبا طالب .

والسبب في ذلك ما رواه محمد بن سعد في الطبقات بسنده عن جماعة من العلماء منهم نافع بن جبير والزهري ومجاهد وغيرهم قالوا : كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمّه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام ، وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك : ادعوا ابني إنه ليؤنس ملكاً .

وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب : احتفظ به فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه ، فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء ، فكان أبو طالب يحتفظ به ، وقال عبد المطلب لأم أيمن ، وكانت تحضن رسول الله ﷺ : يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، وإن أهل الكتاب يزعمون أن

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجهاد / باب : من قاد دابة غيره في الحرب٣/٢١٨ ، ومسلم في الجهاد / باب : في غزوة حنين ٣/١٤٠٠ ح ١٧٧٦ . من حديث البراء بن عازب ﷺ .

ابني هذا نبي هذه الأمة ، وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا قال : عليّ بابني ، فيؤتى به إليه ، فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته ، ومات عبد المطلب وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين، وسئل رسول الله ﷺ : أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال : **(نعم . أنا يومئذ ابن ثماني سنين)** قالت أم أيمن : رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب. (١) .

إن الدلائل في هذه القصة على حب عبد المطلب للنبي ﷺ واضحة لا تحتاج إلى بيان ، وقد أسف النبي ﷺ على فقد جده ، فهو الشيخ الكبير الحاني عليه ، والظهر القوى الذي يحتمي به أهل مكة جمعاء ، ويهابه القريب والبعيد ، لما يحمله من مكارم الأخلاق ، والتي تبدت واضحة في رثاء ابنته أميمة عمة النبي ﷺ له ، فكان مما قالت:

أعَينَيَّ جُودا بِدَمْعٍ دِرَرْ ... على طَيِّبِ الخِيمِ والمُعْتَصَرْ

على ماجِدِ الجَدّ واري الزِّناد ... جَميل المُحَيّا عَظيمِ الخَطَرْ

على شَيْبَةِ الحَمْدِ ذي المكرُماتِ ... وذي المَجدِ والعِزّ والمُفْتَخَرْ

وذي الحلم والفضل في النائبات ... كثير المكارم جَمّ الفَخَرْ

له فضلُ مَجْدٍ على قَومِهِ ... مُبينٍ يَلوُحُ كضوءِ القَمَرْ

أتتهُ المنايا فلم تُشْوِهِ ... بصرف الليالي وريب القَدَرْ (٢) .

مات عبد المطلب ولم يزل الرسول ﷺ في سن صغيرة يحتاج فيها إلى الرعاية والاهتمام ، فغلام في سن الثامنة من عمره لا يستطيع أن يستقل بنفسه ، فلابد له من

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١١٨ ، ١١٩ .
(٢) نفسه .

كافل يكفله ويرعاه ، وإن كانت عناية الله سبحانه وتعالى ترعـاه منـذ اللحظـة الأولى ، إلا أن هذا لا تعقله عقول قريش وأهل مكة ، فقد طغت عليهم الوثنية بماديتها الجافة المفرطة ، فكفله عمه أبو طالب ، وهو العم الشقيق له ، وكان ينـال مـن الاحتـرام والتقدير ما ناله عبد المطلب ، وقد وسد إليه أمر قريش بعد مـوت أبيـه ، وكان مهاباً تجله قريش وقبائل مكة .

روى ابن سعد بسنده عن عمرو بن سعيد قال : كان أبو طالب تُلقى له وسادة يقعد عليها ، فجاء النبي ﷺ وهو غلام فقعد عليها ، فقال أبو طالب وإله ربيعة إن ابن أخي ليُحسن بنعيم (١) .

فهذا النص يدل دلالة واضحة على سيادة أبي طالب ، وتزعمه لقبيلته قريش بعد موت أبيه عبد المطلب ، وهذه السيادة لها أهميتها في حياة النبي ﷺ حيث قرنت كفالته بسيادة ومهابة بين قريش وسائر القبائل الموجودة آنذاك ، واتضح هذا الدور بجلاء بعد بعثته ﷺ فقد كان أبو طالب هو حائط الدفاع القوى عن النبي ﷺ ، فكان لا يستطيع أي إنسان أن يخترق هذا الحاجز المنيع .

" ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه وضمه إلى ولده وقدمه عليهم واختصه بفضل احترام وتقدير . وظل فوق أربعين سنة يعز جانبـه ويبسـط عليـه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله ، ودرج محمد عليه الصلاة والسلام في بيت أبى طالب والسن تمضى إلى الوعي العميق بما حوله ، فأصر على أن يشارك عمه هموم العيش ، إذ كان أبو طالب – على كثرة أولاده – قليل المال ، فلما قرر أن يمضى على سنن آبائه في متابعة الرحيل إلى الشام للاتجار والربح قرر أن يكون معـه ، وكـان عمره نحو الثلاث عشرة سنة " (٢) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٢٠ .

(٢) فقه السيرة للشيخ / محمد الغزالي . ص : ٧٠ .

روى ابن سعد بسنده إلى ابن عباس ومجاهد وغيرهما أنه : لما توفى عبد المطلب قبض أبو طالب رسول الله ﷺ إليه فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده ، وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصبّ به أبو طالب صبابة لم يصبّ مثلها بشيء قط ، وكان يخصه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا ، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان إذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يحضر ابني ، فيأتي رسول الله ﷺ فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم ، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : إنك لمبارك . وكان الصبيان يصبحون رمصاً شعثاً ، ويصبح رسول الله ﷺ دهيناً كحيلاً (١) .

لقد كان أبو طالب يشارك الكفار في عقيدتهم الوثنية ، وكان ذلك نوعاً من القرابة بينهم وبينه ، ولم يكن عدواً لهم يعارض كل ميولهم واتجاهاتهم ، ولم يكن في نفس الوقت من أصدقائهم ، ويمكن أن يتآمر على الرسول معهم ، ولكنه كان صديقاً شخصياً للرسول الكريم ، لأنه كان يعرف عنه أكثر مما يعرف الناس ، وكان يرتبط به بنوع من المودة الكافية لإحساسه بأهميته وجلال قدره ، وقد يكون غريباً أن يشير التاريخ إلى مواقف متعارضة يقوم بها أعمام الرسول ﷺ نحو شخصه ودينه ، فأبو طالب يعيش حياته معظماً للرسول ﷺ ومتفقاً معه ومع ذلك لم يؤمن برسالته ، ويظل خادماً للإسلام كما كان يخدمه الصحابة المخلصون ومع ذلك يرفض الاعتراف به وهو في طريقه إلى الموت ، وكان أبو لهب يهاجم الرسول أمام الناس ، وكأنه لم يكن يشعر نحوه بأثر القرابة القريبة ، ثم يموت من الغم والأسف بعد انتصار الرسول في حرب بدر الشهيرة (٢) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١١٩ ، ١٢٠

(٢) عصر الرسالة . ص : ٢٠٧ .

- أحداث مهمة في حياة النبي ﷺ
- رعيه ﷺ للغنم
- عمله ﷺ بالتجارة وسفره إلى الشام
- حرب الفجار
- حلف الفضول
- مشاركته ﷺ في بناء الكعبة
- زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها
- أولاده ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها
- مناقب السيدة خديجة رضي الله عنها

لقد مرت حياة النبي ﷺ بأحداث مهمة أثرت فيها تأثيراً واضحاً ، ويمكن سرد هذه الأحداث على النحو التالي :

أولاً : رعيه ﷺ للغنم :

أعلن ﷺ عن نفسه أنه كان يرعى الغنم ، وأن كثيراً من إخوانه الأنبياء كان يرعاها ، وفي هذا تلميح منه ﷺ إلى رابط وثيق الصلة بينه وبين غيره من الأنبياء ، وهو اجتماعهم صلوات الله وسلامه عليهم على عمل واحد ، وإن كانوا جميعاً تربطهم الأخوة الدينية ، فدينهم واحد وأمهاتهم شتى كما أخبر بذلك النبي ﷺ .

فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ **(أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لعلات** (١) **أمهاتهم شتى ودينهم واحد)** (٢) .

وأخبر ﷺ عن عمله وعمل غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فعن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال **(ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم)** . فقال أصحابه وأنت؟ فقال **(نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)** (٣) .

---

(١) قال النووي : قال العلماء أولاد العلات بفتح العين المهملة وتشديد اللام هم الإخوة لأب من أمهات شتى وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم أولاد الأعيان قال جمهور العلماء معنى الحديث أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف وأما قوله ﷺ : (ودينهم واحد) فالمراد به : أصول التوحيد وأصل طاعة الله تعالى وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعاً . المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢٠/١٥ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الأنبياء / باب : قوله تعالى : (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا) ١٤٢/٤ ، ومسلم في الفضائل / باب : فضائل عيسى ﷺ ١٨٣٧/٤ ح ٢٣٦٥

(٣) أخرجه البخاري في الإجارة / باب : رعى الغنم على قراريط ٤٨/٣ .

قال الحافظ ابن حجر : قال إبراهيم الحربي (١) : قراريط اسم موضع بمكة ولم يرد القراريط من الفضة وصوبه ابن الجوزي (٢) تبعا لابن ناصر (٣) وخطأ سويداً (٤) في تفسيره لكن رجح الأول لأن أهل مكة لا يعرفون بها مكاناً يقال له قراريط وأما ما رواه النسائي من حديث نصر بن حزن بفتح المهملة وسكون الزاي بعدها نون قال : افتخر أهل الإبل وأهل الغنم فقال رسول الله ﷺ : **(بعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم ، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بجياد)** (٥) فزعم بعضهم

---

(١) هو : الشيخ الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام ، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الحربي ، صاحب التصانيف ، توفى سنة : خمس وثمانين ومائتين . سير أعلام النبلاء ١٣ / ٣٥٦ : ٣٧٢ ط / مؤسسة الرسالة . بيروت . لبنان .

(٢) هو الشيخ العلامة الحافظ المفسر ، جمال الدين ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن عبيد الله القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي الواعظ ، صاحب التصانيف ، توفى سنة : سبع وتسعين وخمسمائة رحمه الله . سير أعلام النبلاء ٢١ /٣٦٥ : ٣٨٤ .

(٣) هو : الإمام المحدث الحافظ ، أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن على بن عمر السلامي البغدادى ، توفى سنة خمسين وخمسمائة . سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٦٥ : ٢٧١ .

(٤) هو : سويد بن سعيد بن سهل بن شهريار الهروي ، روى عن عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي ، وروى عنه : مسلم وابن ماجة وغيرهم ، قال الحافظ ابن حجر : صدوق في نفسه ، إلا أنه عمى فصار يتلقن ما ليس من حديثه ، وأفحش فيه ابن معين القول ، من قدماء العاشرة ، ما ت سنة أربعين . تهذيب الكمال ١٢/٢٤٧ : ٢٥٥ ، وتقريب التهذيب ٣٢٧/١ .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٢٠٢ ح ٥٧٧ ط / دار البشائر . لبنان تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . وأخرجه النسائي في الكبرى / كتاب التفسير / باب : تفسير سورة طه ٦/ ٣٩٦ ح ١١٣٢٤ من حديث نصر بن حزن ، وسنده حسن لذاته ، وسند البخاري في الأدب المفرد صحيح وتصحف نصر إلى : عبدة بن حزن ، وإلى بشر ابن حزن ، وقد أخرج أحمد شاهداً له عن أبي سعيد الخدري ٩٦/٣

أن فيه رداً لتأويل سويد بن سعيد لأنه ما كان يرعى بالأجرة لأهله ، فيتعين أنه أراد المكان ، فعبر تارة بجياد وتارة بقراريط ، وليس الرد بجيد ، إذ لا مانع من الجمع بين أن يرعى لأهله بغير أجرة ولغيرهم بأجرة ، أو المراد بقوله أهلي : أهل مكة فيتحد الخبران ويكون في أحد الحديثين بين الأجرة ، وفي الآخر بين المكان ، فلا ينافي ذلك ، والله أعلم ، وقال بعضهم : لم تكن العرب تعرف القيراط الذي هو من النقد ، ولذلك جاء في الصحيح يستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط ، وليس الاستدلال لما ذكر من نفي المعرفة بواضح ، قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة ، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ، ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم ، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة ، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء (١).

وقال الإمام العيني : واختلف في القراريط ، فقيل : هي قراريط النقد ، والدليل عليه : ما رواه ابن ماجه عن سويد بن سعيد عن عمرو بن يحيى **(كنت أرعاها لأهل**

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/ ٥١٦ ، ٥١٧ .

مكة بالقراريط) (١) وقال سويد شيخ ابن ماجة : يعني كل شاة بقيراط ، يعني القيراط الذي هو جزء من الدينار أو الدرهم ، وقال إبراهيم الحربي : قراريط اسم موضع بمكة قرب جياد ولم يرد القراريط من النقد ، وقال ابن الجوزي : الذي قاله الحربي أصح وهو تبع في ذلك شيخه ابن ناصر فإنه خطأ سويداً في تفسيره ، وقال بعضهم لكن رجح الأول ، لأن أهل مكة لا يعرفون مكاناً يقال له قراريط (قلت) وكذلك لا يعرفون القيراط الذي هو من النقد ، ولذلك جاء في الصحيح ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط ، ولكن لا يلزم من عدم معرفتهم القراريط الذي هو اسم موضع والقراريط التي من النقد لا يكون للنبي بذلك علم ، فالنبي لما أخبر بأنه رعى الغنم على قراريط علموا في ذلك الوقت أنها اسم موضع ، ولم يكونوا علموا به قبل ذلك لكون هذا الاسم قد هجر استعماله من قديم الزمان فأظهره في ذلك الوقت ، ويدل على تأييد ذلك شيئان :

أحدهما : أن كلمة على في أصل وضعها للاستعلاء ، والاستعلاء حقيقة لا يكون إلا على القراريط الذي هو اسم موضع ، وعلى القراريط من النقد يكون بطريق المجاز ، فلا يصار إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة ، ولا تعذر هنا .

والثاني : جاء في رواية كنت أرعى غنم أهلي بجياد ، وهو موضع بأسفل مكة ، فهذا يدل على أنه يرعى تارة بجياد ، وتارة بقراريط الذي هو المكان ، وهذا يدل أيضاً: أنه ما كان يرعى بأجرة فإذا كان كذلك فلا دخلَ للقراريط من النقد في هذا الموضع ، فإن قلت متى كان هذا الرعي في عمره ؟ قلت : علم بالاستقراء من كلام ابن إسحاق والواقدي أنه كان وعمره نحو العشرين سنة ، فإن قلت : ما الحكمة فيه ؟ قلت : التقدمة والتوطئة في تعريفه سياسة العباد وحصول التمرن على ما سيكلف من القيام بأمر أمته ، فإن قلت : ما وجه تخصيص الغنم فيه ؟ قلت : لأنها أضعف من

---

(١) أخرجه ابن ماجة في التجارات / باب : الصناعات ٧٢٧/٢ ح ٢١٤٩ من حديث أبي هريرة ، وسنده صحيح .

غيرها وأسرع انقياداً وهي من دواب الجنة ، فإن قلت : ما الحكمة في ذكره ذلك ؟ قلت: إظهار تواضعه لربه مع كونه أكرم الخلق عليه ، وتنبيه أمته على ملازمة التواضع واجتناب الكبر ، ولو بلغ أقصى المنازل الدنياوية ، وفيه أيضا إتباع لأخوته من الرسل الذين رعوا الغنم وفي حديث للنسائي قال رسول الله ﷺ : (**بعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم**) (١) عليهما وعليه صلوات الله وسلامه دائما أبداً (٢) .

وقد أوضح العلماء الفوائد المترتبة على رعى الغنم ، إلا أنه لابد من بيان حقيقة هامة وهى أنه ﷺ لم يكن يرغب في حياة البطالة ، وبذلك يكون عالة على غيره ، وحاشا وكلا في أن يظن في حقه ذلك ﷺ ، فرغب في العمل ليأكل من عمل يده ، وهناك حقيقة أخرى وهى أنه ﷺ بعمله هذا يجارى أقرانه في هذا السن من عملهم في رعى الغنم ، وهو بهذا ينصهر في بوتقة المجتمع الذي يعيش فيه بعيداً عن حياة الشذوذ والنفرة والوحدة ، كما أن هناك حقيقة هامة أخرى وهى أنه ﷺ لم يفيده رعى الغنم حلماً وتواضعاً كما قال العلماء فهو مفطور ﷺ على الحلم والتواضع ، وإلا كان غيره من الأطفال ممن رعى الغنم قد أهل للنبوة معه ﷺ .

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى في التفسير / تفسير سورة طه ٣٩٦/٦ ح ١١٣٢٤ وسنده صحيح .

(٢) عمدة القارئ شرح صحيح البخاري ٨٠/١٢ .

ثانياً : عمله ﷺ بالتجارة وسفره إلى الشام :

أثبت علماء السيرة أن النبي ﷺ سافر للتجارة مع عمه أبى طالب وهو صغير ، وسافر للتجارة في مال السيدة خديجة رضي الله عنها وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان ﷺ أميناً في عمله حتى اشتهر بين قومه بالصادق الأمين .

يقول ابنُ إسْحَاقَ : ثُمّ إنّ أَبَا طَالِبِ خَرَجَ فِي رَكْبٍ تَاجِرًا إلَى الشّامِ ، فَلَمّا تَهَيّأَ لِلرّحِيلِ وَأَجْمَعَ الْمَسِيرَ صَبّ بِهِ رَسُولُ اللّهِ ﷺ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - فَرَقّ لَهُ أَبُو طَالِبٍ وَقَالَ : وَاَللّهِ لَأَخْرُجَنّ بِهِ مَعِي ، وَلاَ يُفَارِقُنِي ، وَلاَ أُفَارِقُهُ أَبَدًا ، أَوْ كَمَا قَالَ . فَخَرَجَ بِهِ مَعَهُ فَلَمّا نَزَلَ الرّكْبُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشّامِ ، وبها راهب يُقَالُ لَهُ بَحِيرَى فِي صَوْمَعَةٍ لَهُ ، وَكَانَ إلَيْهِ عِلْمُ أَهْلِ النّصْرَانِيّةِ وَلَمْ يَزَلْ فِي تِلْكَ الصّوْمَعَةِ مُنْذُ قَطّ رَاهِبٌ إلَيْهِ يَصِيرُ عِلْمُهُمْ عَنْ كِتَابٍ فِيهَا فِيمَا يَزْعُمُونَ يَتَوَارَثُونَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ . فَلَمّا نَزَلُوا ذَلِكَ الْعَامَ بِبَحِيرَى وَكَانُوا كَثِيرًا مَا يَمُرّونَ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَلاَ يُكَلّمُهُمْ وَلاَ يَعْرِضُ لَهُمْ حَتّى كَانَ ذَلِكَ الْعَامُ . فَلَمّا نَزَلُوا بِهِ قَرِيبًا مِنْ صَوْمَعَتِهِ صَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا كَثِيرًا ، وَذَلِكَ فِيمَا يَزْعُمُونَ عَنْ شَيْءٍ رَآهُ وَهُوَ فِي صَوْمَعَتِهِ يَزْعُمُونَ أَنّهُ رَأَى رَسُولَ اللّهِ ﷺ وَهُوَ فِي صَوْمَعَتِهِ فِي الرّكْبِ حَيْنَ أَقْبَلُوا ، وَغَمَامَةٌ تُظِلّهُ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ . قَالَ : ثُمّ أَقْبَلُوا فَنَزَلُوا فِي ظِلّ شَجَرَةٍ قَرِيبًا مِنْهُ . فَنَظَرَ إلَى الْغَمَامَةِ حَيْنَ أَظَلّتْ الشّجَرَةُ ، وَتَهَصّرَتْ أَغْصَانُ الشّجَرَةِ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ حَتّى اسْتَظَلّ تَحْتَهَا . فَلَمّا رَأَى ذَلِكَ بَحِيرَى نَزَلَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ ثُمّ أَرْسَلَ إلَيْهِمْ فَقَالَ إنّي قَدْ صَنَعْتُ لَكُمْ طَعَامًا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، فَأَنَا أُحِبّ أَنْ تَحْضُرُوا كُلّكُمْ صَغِيرُكُمْ وَكَبِيرُكُمْ وَعَبْدُكُمْ وَحُرّكُمْ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ وَاَللّهِ يَا بَحِيرَى إنّ لَك لَشَأْنًا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ هَذَا بِنَا ، وَقَدْ كُنّا نَمُرّ بِك كَثِيرًا !! ، فَمَا شَأْنُك الْيَوْمَ ؟ قَالَ لَهُ بَحِيرَى : صَدَقْتَ قَدْ كَانَ مَا تَقُولُ وَلَكِنّكُمْ ضَيْفٌ وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أُكْرِمَكُمْ وَأَصْنَعَ لَكُمْ طَعَامًا فَتَأْكُلُوا مِنْهُ كُلّكُمْ . فَاجْتَمَعُوا إلَيْهِ وَتَخَلّفَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ لِحَدَاثَةِ سِنّهِ فِي رِحَالِ الْقَوْمِ تَحْتَ الشّجَرَةِ . فَلَمّا نَظَرَ بَحِيرَى فِي الْقَوْمِ لَمْ يَرَ الصّفَةَ الّتِي يَعْرِفُ وَيَجِدُ عِنْدَهُ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لاَ يَتَخَلّفَنّ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ طَعَامِي ؛ قَالُوا لَهُ يَا بَحِيرَى ، مَا تَخَلّفَ عَنْك

أَحَدٌ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْتِيَكَ إلاّ غُلاَماً وَهُوَ أَحْدَثُ القَوْمِ سِنّا ، فَتَخَلَّفَ فِي رِحَالِهِمْ فَقَالَ لاَ تَفْعَلُوا ، ادْعُوهُ فَلْيَحْضُرْ هَذَا الطَّعَامَ مَعَكُمْ . قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مَعَ القَوْمِ وَاللاّتِ وَالعُزّى ، إِنْ كَانَ لَلُؤْمٌ بِنَا أَنْ يَتَخَلّفَ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَنْ طَعَامٍ مِنْ بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه ، وأجلسه مع القوم ، فلما رَآهُ بَحِيرَى جَعَلَ يَلْحَظُهُ لَحْظًا شَدِيدًا وَيَنْظُرُ إِلَى أَشْيَاءَ مِنْ جَسَدِهِ قَدْ كَانَ يَجِدُهَا عِنْدَهُ مِنْ صِفَتِهِ حَتّى إِذَا فَرَغَ القَوْمُ مِنْ طَعَامِهِمْ وَتَفَرّقُوا ، قَامَ إِلَيْهِ بَحِيرَى ، فَقَالَ لَهُ : يَا غُلاَمُ أَسْأَلُك بِحَقّ اللاّتِ وَالعُزّى إلاّ مَا أَخْبَرْتَنِي عَمّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ وَإِنّمَا قَالَ لَهُ بَحِيرَى ذَلِكَ لأَنّهُ سَمِعَ قَوْمَهُ يَحْلِفُونَ بِهِمَا . فَزَعَمُوا أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ : " لاَ تَسْأَلْنِي بِاللاّتِ وَالعُزّى شَيْئًا ، فَوَاللهِ مَا أَبْغَضْتُ شَيْئًا قَطّ بُغْضَهُمَا " ، فَقَالَ لَهُ بَحِيرَى : فَبِاللهِ إلاّ مَا أَخْبَرْتَنِي عَمّا أَسْأَلُك عَنْهُ فَقَالَ لَهُ : " سَلْنِي عَمّا بَدَا لَك " . فَجَعَلَ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ حَالِهِ فِي نَوْمِهِ وَهَيْئَتِهِ وَأُمُورِهِ فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُ فَيُوَافِقُ ذَلِكَ مَا عِنْدَ بَحِيرَى مِنْ صِفَتِهِ ثُمّ نَظَرَ إِلَى ظَهْرِهِ فَرَأَى خَاتَمَ النّبُوّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ عَلَى مَوْضِعِهِ مِنْ صِفَتِهِ الّتِي عِنْدَهُ . فَلَمّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ مَا هَذَا الغُلاَمُ مِنْك ؟ قَالَ ابْنِي . قَالَ لَهُ بَحِيرَى : مَا هُوَ بِابْنِك ، وَمَا يَنْبَغِي لِهَذَا الغُلاَمِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ حَيّا ، قَالَ فَإِنّهُ ابْنُ أَخِي ، قَالَ فَمَا فَعَلَ أَبُوهُ ؟ قَالَ مَاتَ وَأُمّهُ حُبْلَى بِهِ قَالَ صَدَقْت ، فَارْجِعْ بِابْنِ أَخِيك إِلَى بَلَدِهِ وَاحْذَرْ عَلَيْهِ يَهُودَ فَوَاللهِ لَئِنْ رَأَوْهُ وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا عَرَفْتُ لَيَبْغُنّهُ شَرّا ، فَإِنّهُ كَائِنٌ لاِبْنِ أَخِيك هَذَا شَأْنٌ عَظِيمٌ فَأَسْرِعْ بِهِ إِلَى بِلاَدِهِ . فَخَرَجَ بِهِ عَمّهُ أَبُو طَالِبٍ سَرِيعًا حَتّى أَقْدَمَهُ مَكّةَ حِينَ فَرَغَ مِنْ تِجَارَتِهِ بِالشّامِ (١) .

أما عن رحلته الثانية في تجارة السيدة خديجة رضى الله عنها يقول ابن إسحاق : وَكَانَتْ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ امْرَأَةً تَاجِرَةً ذَاتَ شَرَفٍ وَمَالٍ تستأجر الرجال في مَالِهَا ، وَتُضَارِبُهُمْ إِيّاهُ بِشَيْءٍ تَجْعَلُهُ لَهُمْ ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ قَوْمًا تُجّارًا ، فَلَمّا بَلَغَهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا بَلَغَهَا ، مِنْ صِدْقِ حَدِيثِهِ ، وَعِظَمِ أَمَانَتِهِ ، وَكَرَمِ أَخْلاَقِهِ ، بَعَثَتْ إِلَيْهِ فَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ فِي مَالٍ لَهَا إِلَى الشّامِ تَاجِرًا ، وَتُعْطِيهِ أَفْضَلَ مَا كَانَتْ تُعْطِي

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٩٤/١ ، ٩٥ .

غَيْرَهُ مِنَ التُّجَّارِ مَعَ غُلَامٍ لَهَا يُقَالُ لَهُ : مَيْسَرَةَ ، فَقَبِلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا ، وَخَرَجَ فِي مَالِهَا ذَلِكَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ غُلَامُهَا مَيْسَرَةُ حَتَّى قَدِمَ الشَّامَ . فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ قَرِيبًا مِنْ صَوْمَعَةِ رَاهِبٍ مِنَ الرُّهْبَانِ فَاطَّلَعَ الرَّاهِبُ إِلَى مَيْسَرَةَ فَقَالَ لَهُ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ؟ قَالَ لَهُ مَيْسَرَةُ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ مَا نَزَلَ تَحْتَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ قَطُّ إِلَّا نَبِيٌّ .

ثُمَّ بَاعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِلْعَتَهُ الَّتِي خَرَجَ بِهَا ، وَاشْتَرَى مَا أَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَ ثُمَّ أَقْبَلَ قَافِلاً إِلَى مَكَّةَ وَمَعَهُ مَيْسَرَةُ . فَكَانَ مَيْسَرَةُ – فِيمَا يَزْعُمُونَ – إِذَا كَانَتِ الْهَاجِرَةُ وَاشْتَدَّ الْحَرُّ ، يَرَى مَلَكَيْنِ يُظِلَّانِهِ مِنَ الشَّمْسِ – وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى بَعِيرِهِ . فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ عَلَى خَدِيجَةَ بِمَالِهَا ، بَاعَتْ مَا جَاءَ بِهِ فَأَضْعَفَ أَوْ قَرِيبًا ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وَعَمَّا كَانَ يَرَى مِنْ إِظْلَالِ الْمَلَكَيْنِ إِيَّاهُ (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٩٧ ، ٩٨ .

ثالثاً : حرب الفجار :

هذه الحرب من الأحداث المهمة في حياة النبي ﷺ ، فالعرب قبل الإسلام كانت تسيطر عليهم العصبية القبلية ، و كانت كل قبيلة تنتصر لشرفها وكرامتها وإن كلفها هذا فناء القبيلة عن بكرة أبيها ، وقد رأينا حروباً في الجاهلية استمرت سنين عديدة كحرب البسوس ، ومعلوم أنها كانت أطول حرب في التاريخ .

وعن حرب الفجار يقول ابنُ هشَام : فَلَمّا بَلَغَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً أَوْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً هَاجَتْ حَرْبُ الْفِجَارِ بَيْنَ قُرَيْشٍ ، وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ كِنَانَةَ ، وَبَيْنَ قَيْسِ عَيْلَانَ ، وكَانَ الّذِي هَاجَهَا أَنّ عُرْوَةَ الرّحّالَ بْنَ عُتْبَةَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ ، أَجَارَ لَطِيمَةً لِلنّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ ، فَقَالَ لَهُ الْبَرّاضُ بْنُ قَيْسٍ ، أَحَدُ بَنِي ضَمْرَةَ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ : أَتُجِيرُهَا عَلَى كِنَانَةَ ؟ قَالَ نَعَمْ وَعَلَى الْخَلْقِ (كُلّه) . فَخَرَجَ فِيهَا عُرْوَةُ الرّحّالُ وَخَرَجَ الْبَرّاضُ يَطْلُبُ غَفْلَتَهُ حَتّى إذَا كَانَ بِتَيْمَنَ ذِي طِلَالٍ بِالْعَالِيَةِ غَفَلَ عُرْوَةُ فَوَثَبَ عَلَيْهِ الْبَرّاضُ فَقَتَلَهُ فِي الشّهْرِ الْحَرَامِ فَلِذَلِكَ سُمّيَ الْفِجَارَ ، فَأَتَى آتٍ قُرَيْشًا ، فَقَالَ إنّ الْبَرّاضَ قَدْ قَتَلَ عُرْوَةَ وَهُمْ فِي الشّهْرِ الْحَرَامِ بِعُكَاظَ ، فَارْتَحَلُوا وَهَوَازِنُ لَا تَشْعُرُ (بِهِمْ) ، ثُمّ بَلَغَهُمْ الْخَبَرُ فَأَتْبَعُوهُمْ فَأَدْرَكُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلُوا الْحَرَمَ ، فَاقْتَتَلُوا حَتّى جَاءَ اللّيْلُ وَدَخَلُوا الْحَرَمَ ، فَأَمْسَكَتْ عَنْهُمْ هَوَازِنُ ، ثُمّ الْتَقَوْا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ أَيّامًا ، وَالْقَوْمُ مُتَسَانِدُونَ عَلَى كُلّ قَبِيلٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ رَئِيسٌ مِنْهُمْ وَعَلَى كُلّ قَبِيلٍ مِنْ قَيْسٍ رَئِيسٌ مِنْهُمْ . وَشَهِدَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بَعْضَ أَيّامِهِمْ أَخْرَجَهُ أَعْمَامُهُ مَعَهُمْ . وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (**كُنْت أُنَبّلُ عَلَى أَعْمَامِي**) : أَيْ أَرُدّ عَلَيْهِمْ نَبْلَ عَدُوّهِمْ إذَا رَمَوْهُمْ بِهَا (١) .

قال الإمام السهيلي : وَالْفِجَارُ بِكَسْرِ الْفَاءِ بِمَعْنَى : الْمُفَاجَرَةِ كَالْقِتَالِ وَالْمُقَاتَلَةِ وَذَلِكَ أَنّهُ كَانَ قِتَالاً فِي الشّهْرِ الحرام ففجروا فيه جميعا فَسُمّيَ الْفِجَارَ ، وَكَانَتْ لِلْعَرَبِ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٩٦، ٩٧ .

فِجَارَاتٌ أَرْبَعٌ آخِرُهَا : فِجَارُ الْبَرَّاضِ الْمَذْكُورُ فِي السِّيرَةِ وَكَانَ لِكِنَانَةَ وَلِقَيْسٍ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ مَذْكُورَةٌ يَوْمُ شَمْطَةَ وَيَوْمُ الشَّرْبِ وَهُوَ أَعْظَمُهَا يَوْمًا ، وَفِيهِ قَيَّدَ حَرْبُ بْنُ أُمَيَّةَ وَسُفْيَانُ وَأَبُو سُفْيَانَ أَبْنَاءُ أُمَيَّةَ أَنْفُسَهُمْ كَيْ لاَ يَفِرّوا ، فَسُمّوا : الْعَنَابِسَ ، وَيَوْمُ الْحُرَيْرَةِ عِنْدَ نَخْلَةَ ، وَيَوْمُ الشّرْبِ انْهَزَمَتْ قَيْسٌ إلاّ بَنِي نَصْرٍ مِنْهُمْ فَإِنّهُمْ ثَبَتُوا ، وَإِنّمَا لَمْ يُقَاتِلْ رَسُولُ اللّهِ - ﷺ - مَعَ أَعْمَامِهِ وَكَانَ يَنْبُلُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ كَانَ بَلَغَ سِنّ الْقِتَالِ لِأَنّهَا كَانَتْ حَرْبَ فِجَارٍ وَكَانُوا أَيْضًا كُلّهُمْ كُفّارًا ، وَلَمْ يَأْذَنْ اللّهُ تَعَالَى لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقَاتِلَ إلاّ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا . وَاللّطِيمَةُ عِيرٌ تَحْمِلُ الْبَزّ وَالْعِطْرَ . وَقَوْلُهُ بِذِي طَلاّلٍ بِتَشْدِيدِ اللاّمِ (١) .

---

(٢) الروض الأنف ١/٨٧ .

رابعاً : حلف الفضول :

هذا الحلف عقدته قريش بعد منصرفها من حرب الفجار ، فأرادوا أن يتعاونوا فيما بينهم على نصرة المظلوم ، وإطعام الجائع .

وهذه الحلف اكتسب نوعاً من الشهرة ، ولقي القبول بين الناس ، لأنه أتى بعد حروب طاحنة ، قضت على الأخضر واليابس ، وأنهكتهم سنين عديدة ، فأرادوا أن يبدأوا حياة جديدة خالية من الشقاق والنزاع .

قال ابن إسحاق : تَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إلَى حِلْفٍ فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ عَبْدِ اللّهِ ابْنِ جُدْعَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ ، لِشَرَفِهِ وَسِنّهِ فَكَانَ حِلْفُهُمْ عِنْدَهُ بَنُو هَاشِمٍ ، وَبَنُو الْمُطّلِبِ ، وَأَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى . وَزُهْرَةُ بْنُ كِلَابٍ ، وَتَيْمُ بْنُ مُرّةَ فَتَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ لَا يَجِدُوا بِمَكّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا وَغَيْرِهِمْ مِمّنْ دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النّاسِ إلّا قَامُوا مَعَهُ وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ حَتّى تُرَدّ عَلَيْهِ مَظْلِمَتُهُ فَسَمّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ (١) .

وعن سبب تسميته بحلف الفضول نقل السهيلي أقوال العلماء في ذلك فقال قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : كَانَ قَدْ سَبَقَ قُرَيْشًا إلَى مِثْلِ هَذَا الْحِلْفِ جُرْهُمٌ فِي الزّمَنِ الْأَوّلِ فَتَحَالَفَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ هُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ ، أَحَدُهُمْ : الْفَضْلُ بْنُ فَضَالَةَ ، وَالثّانِي : الْفَضْلُ بْنُ وَدَاعَةَ ، وَالثّالِثُ فُضَيْلُ بْنُ الْحَارِثِ . هَذَا قَوْلُ الْقُتَبِيّ . وَقَالَ الزّبَيْرُ : الْفُضَيْلُ بْنُ شُرَاعَةَ ، وَالْفَضْلُ بْنُ وَدَاعَةَ ، وَالْفَضْلُ بْنُ قُضَاعَةَ ، فَلَمّا أَشْبَهَ حِلْفُ قُرَيْشٍ الْآخَرُ فِعْلَ هَؤُلَاءِ الْجُرْهُمِيّينَ سُمّيَ حِلْفَ الْفُضُولِ .

وَالْفُضُولُ : جَمْعُ فَضْلٍ ، وَهِيَ أَسْمَاءُ أُولَئِكَ الّذِينَ تَقَدّمَ ذِكْرُهُمْ .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٧٢/١ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ حَسَنٌ وَلَكِنْ فِي الْحَدِيثِ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ وَأَوْلَى . رَوَى الْحُمَيْدِيُّ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ مُحَمَّدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَيْ أَبِي بَكْرٍ قَالاَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**لَقَدْ شَهِدتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا لَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لأَجَبْتُ . تَحَالَفُوا أَنْ تُرَدَّ الْفُضُولُ عَلَى أَهْلِهَا ، وَأَلاَّ يَعُزَّ ظَالِمٌ مَظْلُومًا**) .

وَرَوَاهُ فِي مُسْنَدِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُسَامَةَ التَّمِيمِيِّ .

فَقَدْ بَيَّنَ هَذَا الْحَدِيثُ لِمَ سُمِّيَ حِلْفَ الْفُضُولِ وَكَانَ حِلْفُ الْفُضُولِ بَعْدَ الْفِجَارِ ، وَذَلِكَ أَنَّ حَرْبَ الْفِجَارِ كَانَتْ فِي شَعْبَانَ ، وَكَانَ حِلْفُ الْفُضُولِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ قَبْلَ الْمَبْعَثِ بِعِشْرِينَ سَنَةً .

وَكَانَ حِلْفُ الْفُضُولِ أَكْرَمَ حِلْفٍ سُمِعَ بِهِ وَأَشْرَفَهُ فِي الْعَرَبِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَدَعَا إِلَيْهِ : الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكَانَ سَبَبُهُ أَنَّ رَجُلاً مِنْ زُبَيْدٍ قَدِمَ مَكَّةَ بِبِضَاعَةٍ فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ : الْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ ، وَكَانَ ذَا قَدْرٍ بِمَكَّةَ وَشَرَفٍ ، فَحَبَسَ عَنْهُ حَقَّهُ فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ الزُّبَيْدِيُّ الأَحْلاَفَ : عَبْدَ الدَّارِ وَمَخْزُومًا وَجُمَحَ وَسَهْمًا وَعَدِيَّ بْنَ كَعْبٍ ، فَأَبَوْا أَنْ يُعِينُوهُ عَلَى الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ وَزَبَرُوهُ أَيْ انْتَهَرُوهُ فَلَمَّا رَأَى الزُّبَيْدِيُّ الشَّرَّ أَوْفَى عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، فَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ .... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ

إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغُدَرِ

فقام في ذلك الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَقَالَ مَا لِهَذَا مُتْرَكٌ ، فَاجْتَمَعَتْ هَاشِمٌ وَزُهْرَةُ وَتَيْمُ بْنُ مُرَّةَ فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ ، فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا ، وَتَحَالَفُوا فِي ذِي الْقَعْدَةِ فِي شَهْرٍ حَرَامٍ قِيَامًا ، فَتَعَاقَدُوا ، وَتَعَاهَدُوا بِاللَّهِ لَيَكُونُنَّ يَدًا وَاحِدَةً مَعَ الْمَظْلُومِ عَلَى

الظَّالِمِ حَتَّى يُؤَدَّى إِلَيْهِ حَقَّهُ مَا بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً وَمَا رَسَا حِرَاءٌ وَثَبِيرٌ مَكَانَهُمَا ، وَعَلَى التَّأَسِّي فِي الْمَعَاشِ ، فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ . وَقَالُوا : لَقَدْ دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي فَضْلٍ مِنَ الأَمْرِ ثُمَّ مَشَوْا إِلَى الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ فَانْتَزَعُوا مِنْهُ سِلْعَةَ الزُّبَيْدِيِّ فَدَفَعُوهَا إِلَيْهِ وَقَالَ الزُّبَيْرُ ﷺ :

حَلَفْت لَنَعْقُدَنْ حِلْفًا عَلَيْهِمْ ... وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ

نُسَمِّيهِ الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا ... يَعِزّ بِهِ الْغَرِيبُ لَدَى الْجِوَارِ

وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالَيِ الْبَيْتِ أَنَّا ... أُبَاةُ الضَّيْمِ نَمْنَعُ كُلَّ عَارِ (١)

خامساً مشاركته ﷺ في بناء الكعبة :

تقدم في بناء الكعبة أن النبي ﷺ شارك قومه في بناء البيت العتيق – الكعبة – وكان يحمل الحجارة مع أعمامه وبنى قومه ، ثم كان هو الحكم بين القبائل في وضع الحجر الأسود وارتضوه حكماً وقاضياً بينهم حتى قالوا جميعاً (هذا الأمين قد رضينا) .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثُمّ إنّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ جَمَعَتْ الْحِجَارَةَ لِبِنَائِهَا ، كُلّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ ثُمّ بَنَوْهَا ، حَتّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرّكْنِ ، فَاخْتَصَمُوا فِيهِ ، كُلّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الْأُخْرَى ، حَتّى تَحَاوَرُوا وَتَحَالَفُوا ، وَأَعَدّوا لِلْقِتَالِ فَقَرّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا ، ثُمّ تَعَاقَدُوا هُمْ وَبَنُو عَدِيّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ عَلَى الْمَوْتِ ، وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي ذَلِكَ الدّمِ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ ، فَسُمّوا لَعَقَةَ الدّمِ . فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا ، ثُمّ إنّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ وَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا ، فَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الرّوَايَةِ أَنّ أَبَا أُمَيّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ ، وَكَانَ عَامَئِذٍ أَسَنّ قُرَيْشٍ كُلّهَا ؛ قَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُمْ فِيهِ فَفَعَلُوا . فَكَانَ أَوّلَ دَاخِلٍ عَلَيْهِمْ

(١) الروض الأنف ١/٦٣ .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : هَذَا الأَمِينُ رَضِينَا ، هَذَا مُحَمَّدٌ ؛ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ قَالَ ﷺ : (**هَلُمَّ إِلَيَّ ثَوْبًا**) ، فَأُتِيَ بِهِ فَأَخَذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ . ثُمَّ قَالَ : (**لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنْ الثَّوْبِ ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا**) ، فَفَعَلُوا : حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ الأَمِينَ (١)

وعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمْ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ : **يَا ابْنَ أَخِي لَوْ حَلَلْتَ إِزَارَكَ فَجَعَلْتَ عَلَى مَنْكِبَيْكَ دُونَ الْحِجَارَةِ ، قَالَ : فَحَلَّهُ فَجَعَلَهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَمَا رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُرْيَانًا** ﷺ (٢) .

سادساً : زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها :

ثم لما بلغ مبلغ الرجال أراد أعمامه تزويجه بعدما عرضت عليه السيدة خديجة الزواج منه ، لما رأت من صدقه وأمانته بإخبار غلامها ميسرة بما لاقاه من رحلة التجارة ، وما حصل لها من زيادة الكسب لما ولى أمر مالها بالتجارة .

قال ابن إسحاق : وَهِيَ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ (٣) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٢/١ ، ١٠٣ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الصلاة / بَاب : كَرَاهِيَةِ التَّعَرِّي فِي الصَّلَاةِ ١/ ٩٦ ، وفي الحج / بَاب : فَضْلِ مَكَّةَ وَبُنْيَانِهَا ٢/١٥٥ ، ١٥٦ ، وفي المناقب / بَاب : بُنْيَانُ الْكَعْبَةِ ٤/ ٢٣٤ ، ومسلم في الحيض / بَاب : الاعْتِنَاءِ بِحِفْظِ الْعَوْرَةِ ٢٦٨/١ ح ٣٤٠.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٩٨/١ .

وعن سبب هذا الزواج أخرج ابن سعد في طبقاته بسنده عن نفيسة بنت منية قالت : كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها ، لو قدر على ذلك قد طلبوها وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام ، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تزوج ؟ فقال : **(ما بيدي ما أتزوج به)** ، قلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : **(فمن هي ؟)** قلت : خديجة ، قال : **(وكيف لي بذلك ؟)** قالت قلت : علي ، قال : **(فأنا أفعل)** فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها ، فحضر ودخل رسول الله ﷺ في عمومته فزوجه أحدهم فقال عمرو بن أسد : هذا البضع لا يقرع أنفه ، وتزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة (١) .

وعن خروج أعمامه معه وحضورهم زواجه يقول ابن إسحاق : فَلَمّا قَالَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ ذَكَرَ ذَلِكَ لأَعْمَامِهِ فَخَرَجَ مَعَهُ عَمّهُ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، رَحِمَهُ اللّهُ حَتّى دَخَلَ عَلَى خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ ، فَخَطَبَهَا إلَيْهِ فَتَزَوّجَهَا .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَأَصْدَقَهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ عِشْرِينَ بَكْرَةً وَكَانَتْ أَوّلَ امْرَأَةٍ تَزَوّجَهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَلَمْ يَتَزَوّجْ عَلَيْهَا غَيْرَهَا حَتّى مَاتَتْ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا (٢) .

وعلق الإمام السهيلي على كلام ابن إسحاق وحققه فقال : ذَكَرَ مَشْيَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إلَى خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ مَعَ عَمّهِ حَمْزَةَ ﷺ وَذَكَرَ غَيْرُ ابْنِ إسْحَاقَ أَنّ خُوَيْلِدًا كَانَ إذْ ذَاكَ قَدْ أَهْلَكَ وَأَنّ الّذِي أَنْكَحَ خَدِيجَةَ – رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا – هُوَ عَمّهَا عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ ، قَالَهُ الْمُبَرّدُ وَطَائِفَةٌ مَعَهُ ، وَقَالَ أَيْضًا : إنّ أَبَا طَالِبٍ هُوَ الّذِي نَهَضَ مَعَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٩٨ ، ٩٩ .

وَهُوَ الَّذي خَطَبَ خُطْبَةَ النِّكَاحِ ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ فِي تِلْكَ الْخُطْبَةِ " أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ مُحَمَّدًا مِمَّنْ لاَ يُوَازَنُ بِهِ فَتًى مِنْ قُرَيْشٍ إلاَّ رَجَحَ بِهِ شَرَفًا وَنُبْلاً وَفَضْلاً وَعَقْلاً ، فَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قُلٌّ ، فَإِنَّمَا ظِلٌّ زَائِلٌ وَعَارِيَةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ وَلَهُ فِي خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَغْبَةٌ وَلَهَا فِيهِ مِثْلُ ذَلِكَ " فَقَالَ عَمْرٌو : هُوَ الْفَحْلُ الَّذِي لاَ يُقْدَعُ أَنْفُهُ ، فَأَنْكَحَهَا مِنْهُ ، وَيُقَالُ قَالَهُ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، وَالَّذِي قَالَهُ الْمُبَرِّدُ هُوَ الصَّحِيحُ ، لِمَا رَوَاهُ الطَّبَرِيّ (١) عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كُلِّهِمْ – قَالَ إِنَّ عَمْرَو بْنَ أَسَدٍ هُوَ الَّذِي أَنْكَحَ خَدِيجَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَّ خُوَيْلِدًا كَانَ قَدْ هَلَكَ قَبْلَ الْفِجَارِ (٢) .

" وتنتسب السيدة خديجة لبنى أسد أحد القرشيين ، وكانت قد تزوجت قبل الرسول ﷺ برجلين غنيين من بنى مخزوم ، وورثت منهما ثروة جعلتها سيدة سعيدة بالغنى ، ومن ذات الحظوظ السعيدة بين أهلها ، وكانت بسبب تلك الثروة مع كمالها ونسبها أملاً عظيماً للراغبين في المال والجمال والعصبية ، وقد رغب فيها قبل الرسول ﷺ رجال من أجل ذلك كله ، وطلبوا منها الموافقة عليهم أزواجاً لها بدافع هذه المغريات الصارخة ، وبدا لها أن من طلبوها كانوا يطمعون في ثروتها قبل أن يرغبوا في الحياة الزوجية معها ، فرفضتهم جميعاً ، ولم ترض أن يكون زواجها واسطة لنقل ثروتها لرجل لا يرى فيها إلا الأمل في تحقيق الغنى بالوسائل السهلة ، وامتنعت محاولتهم خوفاً من انكشاف الحقيقة المهولة .

ولم يكن الرسول ﷺ واحداً من هؤلاء جميعاً لأنه لم يكن راغباً في شيء مما كان يرغب فيه الآخرون منها ، ولم يكن مشغولاً بالبحث عنها أو عن غيرها ، ولو كان ذلك من مشاغله الخاصة لوجد له الحل المناسب دائماً ، وكانت الحلول متوفرة أمامه ، ولقد كان فقيراً ، ولكنه لم يكن معدماً أو بائساً حتى يذله الفقر ويحطم قدراته ، ولم يكن غنياً حتى يرى نفسه أعظم الناس في الدنيا مع كونه شريفاً عظيم الأهل

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري ٥٢٢/١ .

(٢) الروض الأنف ٨٩/١ .

والنسب ، وإنما كان شاباً وسطاً فيه الخير والعافية والأمل ، وكان كفئاً ليكون زوجاً لأكرم السيدات في مكة وغيرها ، وإذا كان قريباً من الفقر فلم يكن الفقر عيباً يبعده عن الزواج بأعظم النساء في وطنه لأنه كان يعوض نفسه عن قلة المال بامتيازات معروفة فيه ، ولم يكن أمر الغنى والفقر ملازماً له طول حياته ، ثم لم يكن الرسول ﷺ متعطلاً لا يعرف الطريق إلى العمل ، وإنما كان يمارس الأعمال المؤدية إلى الحصول على المال الكافي للحياة البعيدة عن الهوان والحاجة ، وكانت مكاسبه تكفيه ، وترضى رغباته ، ولم يكن ممن تعرضوا في حياتهم الأولى لقسوة الفقر وذل المسكنة فاندفعوا بالحماس لجمع الثروات لأنهم كانوا يجدون فيها وحدها آمالهم وحياتهم أو يجدون فيها تعويضاً عن مآسيهم الماضية" (١) .

كما أن النبي ﷺ يختلف عن أولئك الطالبين للسيدة خديجة ، لأنه هو المطلوب بدليل الرواية السابقة التي رواها أصحاب السيرة ، وأن السيدة خديجة هي التي أرسلت إليه تطلبه لنكاحها ، فلم يكن يرغب في ثروتها ، بل كان العمل عنده أهم مقتضيات الكسب في نظره ، وحتى بعدما تزوج بالسيدة خديجة لم يترك العمل اتكالاً على الثروة التي آلت إليه عن طريق زواجه بالسيدة الثرية ، بل خرج في تجارتها كما كان يفعل قبل زواجه منها فلم يزده زواجه منها إلا رغبة في العمل والاستمرار عليه .

---

(١) عصر الرسالة . د / على حبيبه . ص : ١٧٧ ، ١٧٨ .

أولاده ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها :

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَوَلَدَتْ لِرَسُولِ اللّهِ ﷺ وَلَدَهُ كُلّهُمْ إلاّ إبْرَاهِيمَ ، الْقَاسِمَ وَبِهِ كَانَ يُكَنّى ﷺ وَالطّاهِرَ ، وَالطّيّبَ ، وَزَيْنَبَ ، وَرُقَيّةَ ، وَأُمّ كُلْثُومٍ ، وَفَاطِمَةَ ، عَلَيْهِمْ السّلاَمُ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : أَكْبَرُ بَنِيهِ الْقَاسِمُ ، ثُمّ الطّيّبُ ، ثُمّ الطّاهِرُ ، وَأَكْبَرُ بَنَاتِهِ : رُقَيّةُ ، ثُمّ زَيْنَبُ ، ثُمّ أُمّ كُلْثُومٍ ، ثُمّ فَاطِمَةُ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَأَمّا الْقَاسِمُ وَالطّيّبُ وَالطّاهِرُ فَهَلَكُوا فِي الْجَاهِلِيّةِ ، وَأَمّا بَنَاتُهُ فَكُلّهُنّ أَدْرَكْنَ الإِسْلاَمَ فَأَسْلَمْنَ وَهَاجَرْنَ مَعَهُ ﷺ (١) .

وكلام ابن إسحاق وابن هشام يفيد أن السيدة خديجة رضى الله عنها أنجبت لرسول الله ﷺ ثلاث ذكور وهم كما ذكروهم : القاسم والطاهر والطيب ، وقد سرد أبوعمر بن عبد البر أقوال العلماء في ذلك وبين الصحيح منها فقال : وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن فهن : زينب وفاطمة ورقية وأم كلثوم .

وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنى ﷺ هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم وقال معمر عن ابن شهاب: زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولداً يسمى الطاهر.

وقال عقيل عن ابن شهاب : ولدت له خديجة فاطمة وزينب وأم كلثوم وكانت زينب أكبر بنات النبي ﷺ . وقال قتادة : ولدت له خديجة غلامين وأربع بنات القاسم وبه كان يكني وعاش حتى مشى ، وعبد الله مات صغيراً ومن النساء فاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم .

وقال الزبير: ولد لرسول الله ﷺ القاسم وهو أكبر ولده ثم زينب ثم عبد الله وكان

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٩٩/١ .

يقال له : الطيب ويقال له : الطاهر ولد بعد النبوة ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية هكذا الأول فالأول ثم مات القاسم بمكة ، وهو أول ميت مات من ولده ، ثم مات عبدالله أيضاً بمكة ، وقال مصعب الزبيري: ولد لرسول الله ﷺ القاسم وبه كان يكنى وعبد الله وهو الطيب والطاهر لأنه ولد بعد الوحي ، وزينب وأم كلثوم ورقية وفاطمة أمهم كلهم خديجة ففي قول مصعب وهو قول الزبير وأكثر أهل النسب أن عبد الله ابن رسول الله ﷺ هو الطيب وهو الطاهر له ثلاثة أسماء.

وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني النسابة : أولاد رسول الله ﷺ القاسم وهو أكبر أولاده ثم زينب قال : وقال ابن الكلبي : زينب ثم القاسم ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية ثم عبد الله وكان يقال له الطيب والطاهر قال: وهذا هو الصحيح وغيره تخليط .

وقال أبو عمر: لا يختلفون أن رسول الله ﷺ لم يتزوج في الجاهلية غير خديجة ، ولا تزوج عليها أحداً من نسائه حتى ماتت ، ولم تلد له من المهارى غيرها ، وهي أول من آمن بالله عز وجل ورسوله ﷺ وهذا قول قتادة والزهري وعبد الله بن محمد ابن عقيل وابن إسحاق وجماعة ، قالوا : خديجة أول من آمن بالله من الرجال والنساء ولم يستثنوا أحداً (١) .

ثم حقق الإمام السهيلي هذا الكلام وبين أن السيدة خديجة رضي الله عنها أنجبت لرسول الله ﷺ ولدين هما : القاسم وبه يكنى رسول الله ﷺ ، وعبد الله ، ولقب بالطاهر والطيب ، أما الابن الثالث فأنجبته السيدة مارية القبطية المصرية التي أهداها له المقوقس حاكم مصر وهو إبراهيم فقال : وَذَكَرَ - أي ابن إسحاق - وَلَدَهُ مِنْهَا ﷺ فَذَكَرَ الْبَنَاتِ ، وَذَكَرَ الْقَاسِمَ وَالطّاهِرَ وَالطّيّبَ ، وَذَكَرَ أَنّ الْبَنِينَ هَلَكُوا فِي الْجَاهِلِيّةِ وَقَالَ الزّبَيْرُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهَذَا الشّأْنِ - وَلَدَتْ لَهُ الْقَاسِمَ وَعَبْدَ اللّهِ ، وَهُوَ الطّاهِرُ وَهُوَ

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبى عمر بن عبد البر ٥٨٧/١

الطَّيِّبُ، سُمِّيَ بِالطَّاهِرِ وَالطَّيِّبِ : لأَنَّهُ وُلِدَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ ، وَاسْمُهُ الَّذِي سُمِّيَ بِهِ أَوَّلَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ ، وَبَلَغَ الْقَاسِمُ الْمَشْيَ غَيْرَ أَنَّ رَضَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ كَمُلَتْ وَقَعَ فِي مُسْنَدِ الْفِرْيَابِيِّ أَنَّ خَدِيجَةَ دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ الْقَاسِمِ وَهِيَ تَبْكِي : فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَرَّتْ لُبَيْنَةُ الْقَاسِمِ فَلَوْ كَانَ عَاشَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رَضَاعَهُ لَهَوَّنَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : **(إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ تَسْتَكْمِلُ رَضَاعَتَهُ)** فَقَالَتْ : لَوْ أَعْلَمُ ذَلِكَ لَهَوَّنَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : **(إِنْ شِئْتِ أَسْمَعْتُكِ صَوْتَهُ فِي الْجَنَّةِ)** . فَقَالَتْ : بَلْ أُصَدِّقُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

قَوْلُهَا ، لُبَيْنَةُ هِيَ تَصْغِيرُ لَبَنَةٍ وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّبَنِ كَالْعُسَيْلَةِ تَصْغِيرُ عَسَلَةٍ ذَكَرَ سِيبَوَيْهِ اللَّبَنَةَ وَالْعَسَلَةَ وَالشَّهْدَةَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى . قَالَ الْمُؤَلِّفُ وَهَذَا مِنْ فِقْهِهَا – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – كَرِهَتْ أَنْ تُؤْمِنَ بِهَذَا الأَمْرِ مُعَايَنَةً فَلاَ يَكُونُ لَهَا أَجْرُ التَّصْدِيقِ وَالإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَإِنَّمَا أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .

وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْقَاسِمَ لَمْ يَهْلِكْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَاخْتَلَفُوا فِي الصُّغْرَى وَالْكُبْرَى مِنَ الْبَنَاتِ غَيْرَ أَنَّ أُمَّ كُلْثُومٍ لَمْ تَكُنْ الْكُبْرَى مِنَ الْبَنَاتِ وَلاَ فَاطِمَةَ وَالأَصَحُّ فِي فَاطِمَةَ أَنَّهَا أَصْغَرُ مِنْ أُمِّ كُلْثُومٍ وَذَكَرَ أَنَّ خَدِيجَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – وَلَدَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَدَهُ كُلَّهُمْ إِلاَّ إِبْرَاهِيمَ ، فَإِنَّهُ مِنْ مَارِيَةَ الَّتِي أَهْدَاهَا إِلَيْهِ الْمُقَوْقِسُ ، وَاسْمُ الْمُقَوْقِسِ جُرَيْجُ بْنُ مِينَا ، وَأَنَّهُ أَهْدَى مَارِيَةَ مَعَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ، وَمَعَ جَبْرٍ مَوْلَى أَبِي رُهْمٍ الْغِفَارِيِّ ، وَاسْمُ أَبِي رُهْمٍ كُلْثُومُ بْنُ الْحُصَيْنِ . وَذَلِكَ حِينَ أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَأَهْدَى مَعَهَا أُخْتَهَا سِيرِينَ ، وَهِيَ الَّتِي وَهَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ فَأَوْلَدَهَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ ، وَأَهْدَى مَعَهَا الْمُقَوْقِسُ أَيْضًا : غُلاَمًا خَصِيًّا اسْمُهُ : مَأْبُورٌ ، وَبَغْلَةً تُسَمَّى : دُلْدُلَ ، وَقَدَحًا مِنْ قَوَارِيرَ كَانَ ﷺ يَشْرَبُ فِيهِ وَتُوُفِّيَتْ مَارِيَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ فِي خِلاَفَةِ عُمَرَ ﷺ وَكَانَ عُمَرُ هُوَ الَّذِي يَحْشُرُ النَّاسَ إِلَى جِنَازَتِهَا بِنَفْسِهِ .

وَهِيَ مَارِيَةُ بِنْتُ شَمْعُونَ الْقِبْطِيَّةُ مِنْ كُورَةِ حَفْنٍ . وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا فِي سَنَةِ عَشْرٍ مِنْ الْهِجْرَةِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي كَسَفَتْ فِيهِ الشَّمْسُ (١) .

فَعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ : كَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ فَقَالَ النَّاسُ : كَسَفَتْ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **(إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا وَادْعُوا اللَّهَ)**(٢)

مناقب السيدة خديجة رضي الله عنها :

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها نعم الزوج لرسول الله ﷺ ، فكانت المعين له بالمال ، وأنجبت له الولد ، وكانت دائماً الملاذ الآمن له في كل أحواله ﷺ ، وأسف على وفاتها ، وحزن حزناً شديداً.

وقد شكر لها رسول الله ﷺ صنيعها في أحاديث كثيرة تثبت مدى حبه لها .

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاعْتَمَرْنَا مَعَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ طَافَ وَطُفْنَا مَعَهُ ، وَأَتَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ، وَأَتَيْنَاهَا مَعَهُ ، وَكُنَّا نَسْتُرُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَنْ يَرْمِيَهُ أَحَدٌ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبٌ لِي : أَكَانَ دَخَلَ الْكَعْبَةَ ؟ قَالَ : لاَ . قَالَ : فَحَدِّثْنَا مَا

---

(١) الروض الأنف ٩١/١ . وروى البخاري بسنده عن البراء ﷺ قال : لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **(إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الْجَنَّةِ)** أخرجه في الجنائز / بَاب : مَا قِيلَ فِي أَوْلاَدِ الْمُسْلِمِينَ ١٠٣/٢ ، وفي بدء الخلق / بَاب : مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ ٨٨/٤ ، وفي الأدب / بَاب : مَنْ سَمَّى بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ ١١٨/٧ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في الكسوف/ بَاب : الصَّلاَةِ فِي كُسُوفِ الشَّمْسِ ٢٣/٢ ، ٢٤ ، ومسلم في الكسوف / بَاب : ذِكْرِ النِّدَاءِ بِصَلاَةِ الْكُسُوفِ الصَّلاَةُ جَامِعَةٌ ٦٣٠/٢ ح ٩١٥ .

قَالَ لِخَدِيجَةَ ؟ قَالَ : (بَشِّرُوا خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ مِنْ الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لا صَخَبَ فِيهِ وَلا نَصَبَ) (١) .

قال الإمام النووي : قَوْله : (بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ) قَالَ جُمْهُور الْعُلَمَاء : الْمُرَاد بِهِ قَصَب اللُّؤْلُؤ الْمُجَوَّف كَالْقَصْرِ الْمُنِيف ، وَقِيلَ قَصَب مِنْ ذَهَب مَنْظُوم بِالْجَوْهَرِ . قَالَ أَهْل اللُّغَة : الْقَصَب مِنْ الْجَوْهَر مَا اسْتَطَالَ مِنْهُ فِي تَجْوِيف . قَالُوا : وَيُقَال لِكُلِّ مُجَوَّف قَصَب وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيث مُفَسَّرًا بِبَيْتٍ مِنْ لُؤْلُؤَة مُحَيَّاة ، وَفَسَّرُوهُ بِمُجَوَّفَة . قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْره : الْمُرَاد بِالْبَيْتِ هُنَا الْقَصْر . وَأَمَّا (الصَّخَب) فَبِفَتْحِ الصَّاد وَالْخَاء وَهُوَ الصَّوْت الْمُخْتَلِط الْمُرْتَفِع ، (وَالنَّصَب) الْمَشَقَّة وَالتَّعَب ، وَيُقَال فِيهِ : فَبِفَتْحِ الصَّاد وَالْخَاء وَهُوَ الصَّوْت الْمُخْتَلِط الْمُرْتَفِع ، وَيُقَال فِيهِ : (نُصْب) بِضَمِّ النُّون وَإِسْكَان الصَّاد وَبِفَتْحِهِمَا ، لُغَتَانِ ، حَكَاهُمَا الْقَاضِي وَغَيْره كَالْحَزَنِ ، وَالْحُزْن ، وَالْفَتْح أَشْهَر وَأَفْصَح ، وَبِهِ جَاءَ الْقُرْآن (٢) وَقَدْ نَصِبَ الرَّجُل بِفَتْحِ النُّون وَكَسْر الصَّاد إِذَا أَعْيَا (٣) .

وعن علي بن أبى طالب ﷺ قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : (خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ) (٤) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الحج / بَاب : مَتَى يَحِلُّ الْمُعْتَمِرُ ٢٠٣/٢ ، وفي المناقب / بَاب : تَزْوِيجِ النَّبِيِّ ﷺ خَدِيجَةَ وَفَضْلِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٤/ ٢٣١ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب : فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ١٨٨٨/٤ ح ٢٤٣٣ .

(٢) سورة التوبة : آية (١٢٠) ، وسورة الحجر : آية (٤٨) ، وسورة فاطر : آية (٣٥) .

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ٢٠٠/١٥ ، ٢٠١ .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء / بَاب : (وَإِذْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِين) ٤/ ١٣٨ ، وفي المناقب / بَاب : تَزْوِيجِ النَّبِيِّ ﷺ خَدِيجَةَ وَفَضْلِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٢٣٠/٤ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب: فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ١٨٨٦/٤ ح ٢٤٣٠ .

قال الحافظ ابن حجر : قوله : (**خَيْر نِسَائِهَا مَرْيَم وَخَيْر نِسَائِهَا خَدِيجَة**) قَالَ الْقُرْطُبِيّ : الضَّمِير عَائِد عَلَى غَيْر مَذْكُور ، لَكِنَّهُ يُفَسِّرُهُ الْحَال وَالْمُشَاهَدَة ، يَعْنِي بِهِ الدُّنْيَا . وَقَالَ الطِّيبِيُّ : الضَّمِير الأَوَّل يَعُود عَلَى الأُمَّة الَّتِي كَانَتْ فِيهَا مَرْيَم ، وَالثَّانِي عَلَى هَذِهِ الأُمَّة . قَالَ وَلِهَذَا كَرَّرَ الْكَلاَم تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ حُكْم كُلّ وَاحِدَة مِنْهُمَا غَيْر حُكْم الأُخْرَى . قُلْت : وَوَقَعَ عِنْد مُسْلِم مِنْ رِوَايَة وَكِيع عَنْ هِشَام فِي هَذَا الْحَدِيث " وَأَشَارَ وَكِيع إِلَى السَّمَاء وَالأَرْض " فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّن أَنَّ الْمُرَاد نِسَاء الدُّنْيَا ، وَأَنَّ الضَّمِيرَيْنِ يَرْجِعَانِ إِلَى الدُّنْيَا ، وَبِهَذَا جَزَمَ الْقُرْطُبِيّ أَيْضًا . وَقَالَ الطِّيبِيُّ : أَرَادَ أَنَّهُمَا خَيْر مِنْ تَحْت السَّمَاء وَفَوْق الأَرْض مِنْ النِّسَاء ، قَالَ : وَلاَ يَسْتَقِيم أَنْ يَكُون تَفْسِيرًا لِقَوْلِهِ نِسَائِهَا، لأَنَّ هَذَا الضَّمِير لاَ يَصْلُح أَنْ يَعُود إِلَى السَّمَاء ، كَذَا قَالَ . وَيَحْتَمِل أَنْ يُرِيد أَنَّ الضَّمِير الأَوَّل يَرْجِع إِلَى السَّمَاء ، وَالثَّانِي إِلَى الأَرْض ، إِنْ ثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ فِي حَيَاة خَدِيجَة ، وَتَكُون النُّكْتَة فِي ذَلِكَ أَنَّ مَرْيَم مَاتَتْ فَعُرِجَ بِرُوحِهَا إِلَى السَّمَاء ، فَلَمَّا ذَكَرَهَا أَشَارَ إِلَى السَّمَاء ، وَكَانَتْ خَدِيجَة إِذْ ذَاكَ فِي الْحَيَاة فَكَانَتْ فِي الأَرْض ، فَلَمَّا ذَكَرَهَا أَشَارَ إِلَى الأَرْض ، وَعَلَى تَقْدِير أَنْ يَكُون بَعْد مَوْت خَدِيجَة فَالْمُرَاد : أَنَّهُمَا خَيْر مَنْ صَعِدَ بِرُوحِهِنَّ إِلَى السَّمَاء ، وَخَيْر مَنْ دُفِنَ جَسَدهنَّ فِي الأَرْض ، وَتَكُون الإِشَارَة عِنْد ذِكْر كُلّ وَاحِدَة مِنْهُمَا . وَالَّذِي يَظْهَر لِي أَنَّ قَوْله " خَيْر نِسَائِهَا " خَبَر مُقَدَّم وَالضَّمِير لِمَرْيَم فَكَأَنَّهُ قَالَ مَرْيَم خَيْر نِسَائِهَا أَيْ نِسَاء زَمَانهَا ، وَكَذَا فِي خَدِيجَة . وَقَدْ جَزَمَ كَثِير مِنْ الشُّرَّاح أَنَّ الْمُرَاد نِسَاء زَمَانهَا ، لِمَا تَقَدَّمَ فِي أَحَادِيث الأَنْبِيَاء فِي قِصَّة مُوسَى وَذِكْر آسِيَة مِنْ حَدِيث أَبِي مُوسَى رَفَعَهُ "كَمُلَ مِنْ الرِّجَال كَثِير وَلَمْ يَكْمُل مِنْ النِّسَاء إِلاَّ مَرْيَم وَآسِيَة " فَقَدْ أَثْبَتَ فِي هَذَا الْحَدِيث الْكَمَال لآسِيَةَ كَمَا أَثْبَته لِمَرْيَم ، فَامْتَنَعَ حَمْل الْخَيْرِيَّة فِي حَدِيث الْبَاب عَلَى الإِطْلاَق ، وَجَاءَ مَا يُفَسِّر الْمُرَاد صَرِيحًا ، فَرَوَى الْبَزَّار وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيث عَمَّار بْن يَاسِر رَفَعَهُ " لَقَدْ فُضِّلَتْ خَدِيجَة عَلَى نِسَاء أُمَّتِي كَمَا فُضِّلَتْ مَرْيَم عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ " وَهُوَ حَدِيث حَسَن الإِسْنَاد ، وَاسْتُدِلَّ بِهَذَا الْحَدِيث عَلَى أَنَّ خَدِيجَة أَفْضَل مِنْ عَائِشَة . قَالَ ابْن التِّين : وَيَحْتَمِل أَنْ لاَ تَكُون عَائِشَة دَخَلَتْ فِي ذَلِكَ لأَنَّهَا كَانَ لَهَا عِنْد مَوْت خَدِيجَة ثَلاَث سِنِينَ ، فَلَعَلَّ الْمُرَاد النِّسَاء الْبَوَالِغ . كَذَا

قَالَ ، وَهُوَ ضَعِيف ، فَإِنَّ الْمُرَاد بِلَفْظ النِّسَاء أَعَمّ مِنْ الْبَوَالِغ ، وَمَنْ لَمْ تَبْلُغ أَعَمّ مِمَّنْ كَانَتْ مَوْجُودَة وَمِمَّنْ سَتُوجَدُ . وَقَدْ أَخْرَجَ النَّسَائِيُّ بِإِسْنَاد صَحِيح وَأَخْرَجَ الْحَاكِم مِنْ حَدِيث اِبْن عَبَّاس مَرْفُوعًا " أَفْضَل نِسَاء أَهْل الْجَنَّة خَدِيجَة وَفَاطِمَة وَمَرْيَم وَآسِيَة " وَهَذَا نَصّ صَرِيح لاَ يَحْتَمِل التَّأْوِيل ، قَالَ الْقُرْطُبِيّ : لَمْ يَثْبُت فِي حَقّ وَاحِدَة مِنْ الأَرْبَع أَنَّهَا نَبِيَّة إِلاَّ مَرْيَم . وَقَدْ أَوْرَدَ اِبْن عَبْد الْبَرّ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ اِبْن عَبَّاس رَفَعَهُ " سَيِّدَة نِسَاء الْعَالَمِينَ مَرْيَم ثُمَّ فَاطِمَة ثُمَّ خَدِيجَة ثُمَّ آسِيَة " قَالَ : وَهَذَا حَدِيث حَسَن يَرْفَع الإِشْكَال ، قَالَ : وَمَنْ قَالَ إِنَّ مَرْيَم لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ أَوَّلَ هَذَا الْحَدِيث وَغَيْره بِأَنَّ " مِنْ " وَإِنْ لَمْ تُذْكَر فِي الْخَبَر فَهِيَ مُرَادَة . قُلْت الْحَدِيث الثَّانِي الدَّالّ عَلَى التَّرْتِيب لَيْسَ بِثَابِتٍ ، وَأَصْله عِنْد أَبِي دَاوُدَ وَالْحَاكِم بِغَيْرِ صِيغَة تَرْتِيب ، وَقَدْ يَتَمَسَّك بِحَدِيثِ الْبَاب مَنْ يَقُول إِنَّ مَرْيَم لَيْسَتْ بِنَبِيَّةٍ لِتَسْوِيَتِهَا فِي حَدِيث الْبَاب بِخَدِيجَة ، وَلَيْسَتْ خَدِيجَة بِنَبِيَّةٍ بِالاتِّفَاقِ . وَالْجَوَاب أَنَّهُ لاَ يَلْزَم مِنْ التَّسْوِيَة فِي الْخَيْرِيَّة التَّسْوِيَة فِي جَمِيع الصِّفَات (١) .

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : (**مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ ، هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي ، لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا ، وَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ ، وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ فَيُهْدِي فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ**) (٢) .

قال ابن بطال : حسن العهد في هذا الحديث هو إهداء النبي ﷺ اللحم لأجوار خديجة ومعارفها رعيًا منه لذمامها ، وحفظًا لعهدها ، كذلك قال أبو عبيد: العهد في

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٦٨/٧ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : تَزْوِيجِ النَّبِيِّ ﷺ خَدِيجَةَ وَفَضْلِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٢٣٠/٤ ، وفي الأدب / بَاب : حُسْنُ الْعَهْدِ مِنْ الإِيمَانِ ٧/ ٧٦ ، وفي التوحيد / بَاب : قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} ٨/ ١٩٥ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب : فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ١٨٨٨/٤ ح ٢٤٣٥ .

هذا الحديث الحفاظ ورعاية الحرمة والحق ، فجعل ذلك البخاري من الإيمان ، لأنه فعل بر وجميع أفعال البر من الإيمان (١) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : **(يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا ، وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ)** (٢) .

ولقد بين النبي ﷺ للسيدة عائشة سبب حبه للسيدة خديجة رضي الله عنها فعنها رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا ذَكَرَ خَدِيجَةَ أَثْنَى عَلَيْهَا فَأَحْسَنَ الثَّنَاءَ . قَالَتْ : فَغِرْتُ يَوْمًا فَقُلْتُ : مَا أَكْثَرَ مَا تَذْكُرُهَا حَمْرَاءَ الشِّدْقِ ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا خَيْرًا مِنْهَا ، قَالَ : **(مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا . قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ)** (٣) .

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : **(لَمْ يَتَزَوَّجِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خَدِيجَةَ حَتَّى مَاتَتْ)** (٤) .

إذاً فقد عاشت السيدة خديجة مع الرسول ﷺ حياتها معتزة به حريصة عليه ، وعاش معها حفياً بها عارفاً لامتيازاتها ، ولذلك لا يبدو أن هناك معنى للتساؤلات عن

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢١٦/٩ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : تَزْوِيجِ النَّبِيِّ ﷺ خَدِيجَةَ وَفَضْلِهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٢٣١/٤ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب : فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ١٨٨٧/٤ ح ٢٤٣٢ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣١٩/٦ والطبراني في الكبير ١٣/٢٣ وسنده حسن في المتابعات .

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة / بَاب : فَضَائِلِ خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ١٨٨٩/٤ ح ٢٤٣٧ .

الأسباب التي منعته من الزواج عليها رغم شبابه وكبر سنها ، ويقول الكاتبون في سيرة الرسول ﷺ عن زواجه الكثير بعد وفاة زوجته الأولى ، إن من أعظم الدلائل على أنه لم يكن إنساناً يتعلق بالنواحي الجنسية كما يندفع إليها الشبان مثله ، أنه لم يتزوج على زوجته هذه رغم كبر سنها وسنه ، ومع هذا الاحتمال فلم يكن مأمولاً منه كإنسان عظيم أن يفعل غير ما يروى التاريخ عنه ، حتى لو أمكن القول بأنه كان واحداً من الناس قبل البعثة ، وكان الرسول بسلوكه وأخلاقه ورسالته فوق كل الناس في بلده ، وكانت زوجته بتصرفها الكريم معه أعظم من أن تكون واحدة من الزوجات اللائي يراهن الرجال في حياتهم الطويلة (١) .

(١) عصر الرسالة . ص : ١٨٠ .

- بعثة النبي ﷺ
- حزن الرسول ﷺ على انقطاع الوحي
- كيفية نزول الوحي عليه ﷺ

بعثة النبي ﷺ :

ويقصد بها نزول الوحي عليه ، وتكليفه بالرسالة التي اصطفى من أجلها ، والقيام بالمهمة التي وكلت إليه ، فقام بها خير قيام فجزاه الله عن أمة الإسلام خير الجزاء .

قال ابن القيم : لَمّا كَمُلَ لَهُ أَرْبَعُونَ أَشْرَقَ عَلَيْهِ نُورُ النّبُوّةِ ، وَأَكْرَمَهُ اللّـهُ تَعَـالَى بِرِسَالَتِهِ ، وَبَعَثَهُ إلَى خَلْقِهِ ، وَاخْتَصّهُ بِكَرَامَتِهِ ، وَجَعَلَهُ أَمِينَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَـادِهِ . وَلاَ خِلاَفَ أَنّ مَبْعَثَهُ ﷺ كَانَ يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَاخْتُلِفَ فِي شَهْرِ الْمَبْعَثِ . فَقِيلَ : لِثَمَانٍ مَضَيْنَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوّلِ سَنَةَ : إحْدَى وَأَرْبَعِينَ مِنْ عَامِ الْفِيلِ ، هَذَا قَوْلُ الأَكْثَرِينَ ، وَقِيلَ : بَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ ، وَاحْتَجّ هَؤُلاَءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : { شَهْرُ رَمَضَانَ الّذِي أُنْـزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ } [البَقَرَةُ : ١٨٥] قَالُوا : أَوّلُ مَا أَكْرَمَهُ اللّهُ تعالى بنبوته أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ : يَحْيَى الصّرْصَرِيّ حَيْثُ يَقُولُ فِي نُونِيّتِهِ :

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ *** شَمْسُ النّبُوّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانِ

وَالأَوّلُونَ قَالُوا : إنّمَا كَانَ إنْزَالُ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إلَى بَيْتِ الْعِزّةِ ، ثُمّ أُنْزِلَ مُنَجّمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً . وَقَالَـتْ طَائِفَـةٌ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ أَيْ فِي شَأْنِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَفُرِضَ صَوْمُهُ . وَقِيلَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْمَبْعَثِ فِـي شَهْرِ رَجَبٍ (١) .

وَقَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَلَمّا بَلَغَ مُحَمّدٌ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَرْبَعِينَ سَنَةً بَعَثَهُ اللّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَكَافّةً لِلنّاسِ بَشِيرًا ، وَكَانَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى كُـلّ نَبِـيّ بَعَثَهُ قَبْلَهُ بِالإِيمَانِ بِهِ وَالتّصْدِيقِ لَهُ وَالنّصْرِ لَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤَدّوا ذَلِكَ إلَى كُلّ مَنْ آمَنَ بِهِمْ وَصَدّقَهُمْ ، فَأَدّوْا مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْحَقّ فِيهِ .

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ١/١٨ .

يقولُ اللّهُ تَعالَى لِمُحَمّدٍ ﷺ : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي) أيْ ثِقَلَ ما حَمّلْتُكُمْ مِنْ عَهْدِي (قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (١) فَأَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النّبِيّينَ جَمِيعًا بِالتّصْدِيقِ لَهُ ، وَالنّصْرِ لَهُ مِمّنْ خَالَفَهُ ، وَأَدّوْا ذَلِكَ إلَى مَنْ آمَنَ بِهِمْ وَصَدّقَهُمْ مِنْ أَهْلِ هَذَيْنِ الْكِتَابَيْنِ (٢) .

وعن ذلك روى الشيخان بسنديهما عن السيدة عائشة رضي الله عنهـا قالـت : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ – قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ . قَالَ : (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي .
فَقَالَ : اقْرَأْ . قُلْتُ : (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) (٣) فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) فَزَمَّلُوهُ ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) .

---

(١) سورة آل عمران : آية (٨١) .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٢١/١ .
(٣) سورة العلق الآيات (١: ٣) .

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : **كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ** . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ، وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا ، إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ !!**) قَالَ : نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ (١) .

شرح الحديث :

" **الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ** " وَفِي رِوَايَةِ " **الصَّادِقَةُ** " هِيَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا ضِغْثٌ ، وَبُدِئَ بِذَلِكَ لِيَكُونَ تَمْهِيدًا وَتَوْطِئَةً لِلْيَقَظَةِ ، ثُمَّ مَهَّدَ لَهُ فِي الْيَقَظَةِ أَيْضًا رُؤْيَةَ الضَّوْءِ وَسَمَاعَ الصَّوْتِ وَسَلاَمَ الْحَجَرِ .

قَوْلُه : (**فِي النَّوْمِ**) لِزِيَادَةِ الإِيضَاحِ ، أَوْ لِيُخْرِجَ رُؤْيَا الْعَيْنِ فِي الْيَقَظَةِ لِجَوَازِ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في بدء الوحي / باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ٣ ، وفي التفسير / تفسير سورة العلق ٨٧/٦ ، ٨٨ ، وفي التعبير / بَاب : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ٦٧/٨ ، ٦٨ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ١٣٩/١ : ١٤٢ ح ١٦٠ .

إطلاقها مجازًا . والمراد بفلق الصبح ضياؤه . وخص بالتشبيه لظهوره الواضح الذي لا شك فيه .

والخلاء بالمد الخلوة ، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له .

وحراء بالمد وكسر أوله كذا في الرواية وهو صحيح ، وفي رواية بالفتح والقصر وقد حكي أيضًا ، وحكي فيه غير ذلك جوازًا لا رواية . هو جبل معروف بمكة . والغار نقب في الجبل وجمعه غيران .

قوله : (فيتحنث) هي بمعنى يتحنف ، أي : يتبع الحنفية وهي دين إبراهيم ، والفاء تبدل ثاء في كثير من كلامهم . وقد وقع في رواية ابن هشام في السيرة " يتحنف " بالفاء أو التحنث إلقاء الحنث وهو الإثم ، كما قيل يتأثم ويتحرج ونحوهما .

قوله : (وهو التعبد) هذا مدرج في الخبر ، وهو من تفسير الزهري كما جزم به الطيبي ولم يذكر دليله ، نعم في رواية المؤلف من طريق يونس عنه في التفسير ما يدل على الإدراج .

قوله : (الليالي ذوات العدد) يتعلق بقوله يتحنث ، وإبهام العدد لاختلافه ، كذا قيل . وهو بالنسبة إلى المدد التي يتخللها مجيئه إلى أهله ، وإلا فأصل الخلوة قد عرفت مدتها وهي شهر ، وذلك الشهر كان رمضان رواه ابن إسحاق . وينزع بكسر الزاي أي : يرجع وزنًا ومعنى ، ورواه المؤلف بلفظه في التفسير .

قوله : (لمثلها) أي : الليالي . والتزود استصحاب الزاد .

قوله : (حتى جاءه الحق) أي : الأمر الحق . وسمي حقًا لأنه وحي من الله تعالى . قوله: (ما أنا بقارئ) فلما قال ذلك ثلاثًا قيل له (اقرأ باسم ربك) أي : لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك ، كما خلقك وكما

نَزَعَ عَنْك عَلَق الدَّم وَغَمْز الشَّيْطَان فِي الصِّغَر ، وَعَلَّمَ أُمَّتك حَتَّى صَارَتْ تَكْتُب بِالْقَلَمِ بَعْد أَنْ كَانَتْ أُمِّيَّة ، ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيّ . وَقَالَ غَيْره : إِنَّ هَذَا التَّرْكِيب – وَهُوَ قَوْله مَا أَنَا بِقَارِئٍ – يُفِيد الِاخْتِصَاص . وَرَدَّهُ الطِّيبِيُّ بِأَنَّهُ إِنَّمَا يُفِيد التَّقْوِيَة وَالتَّأْكِيد ، وَالتَّقْدِير : لَسْت بِقَارِئٍ أَلْبَتَّةَ .

فَإِنْ قِيلَ : لِمَ كَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثًا ؟

أَجَابَ أَبُو شَامَة (١) بِأَنْ يُحْمَل قَوْله أَوَّلاً " **مَا أَنَا بِقَارِئٍ** " عَلَى الِامْتِنَاع ، وَثَانِيًا عَلَى الْإِخْبَار بِالنَّفْيِ الْمَحْض ، وَثَالِثًا عَلَى الِاسْتِفْهَام . وَيُؤَيِّدهُ أَنَّ فِي رِوَايَة أَبِي الْأَسْوَد فِي مَغَازِيه عَنْ عُرْوَة أَنَّهُ قَالَ : كَيْفَ أَقْرَأ وَفِي رِوَايَة عُبَيْد بْن عُمَيْر عَنْ اِبْن إِسْحَاق : مَاذَا أَقْرَأ ؟ وَفِي مُرْسَل الزُّهْرِيّ فِي دَلَائِل الْبَيْهَقِيّ : كَيْفَ أَقْرَأ ؟ كُلّ ذَلِكَ يُؤَيِّد أَنَّهَا اِسْتِفْهَامِيَّة .

قَوْله : (**فَغَطَّنِي**) بِغَيْنٍ مُعْجَمَة وَطَاء مُهْمَلَة ، وَفِي رِوَايَة الطَّبَرِيّ بِتَاءٍ مُثَنَّاة مِنْ فَوْق كَأَنَّهُ أَرَادَ ضَمَّنِي وَعَصَرَنِي ، وَالْغَطّ حَبْس النَّفَس ، وَمِنْهُ غَطَّهُ فِي الْمَاء ، أَوْ أَرَادَ غَمَّنِي وَمِنْهُ الْخَنْق . وَلِأَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنَده بِسَنَدٍ حَسَن : فَأَخَذَ بِحَلْقِي .

قَوْله : (**حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْد**) رُوِيَ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْب ، أَيْ : بَلَغَ الْغَطّ مِنِّي غَايَة وُسْعِي . وَرُوِيَ بِالضَّمِّ وَالرَّفْع أَيْ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْد مَبْلَغه . وَقَوْله " **أَرْسَلَنِي** " أَيْ :

---

(١) هو: أبو شامة الإمام الحافظ العلامة المجتهد ذو الفنون : شهاب الدين أبو القاسم : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي ثم الدمشقي الشافعي المقرئ النحوي، مولده سنة تسع وتسعين وخمس مائة . وله كتاب " الروضتين في أخبار الدولتين " و " كتاب الذيل " عليهما وتصانيفه كثيرة مفيدة ، وكان مع براعته في العلوم متواضعاً تاركاً للتكلف ثقة في النقل كان فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة . توفي في تاسع عشر رمضان سنة خمس وستين وست مائة رحمه الله تعالى . تذكرة الحفاظ ٤/١٤٦٠ رقم ١١٥٧ / ١٠ / ١٩٠

أَطْلَقَنِي .

قَوْله : (**فَرَجَعَ بِهَا**) أَيْ بِالآيَاتِ أَوْ بِالْقِصَّةِ . قَوْله : (**فَزَمَّلُوهُ**) أَيْ : لَفُّوهُ . وَالرَّوْع : بِالْفَتْحِ الْفَزَع .

قَوْله : (**لَقَدْ خَشِيت عَلَى نَفْسِي**) دَلَّ هَذَا مَعَ قَوْله " **يَرْجُف فُؤَاده** " عَلَى اِنْفِعَال حَصَلَ لَهُ مِنْ مَجِيء الْمَلَك ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ " **زَمِّلُونِي** "

وَالْخَشْيَة الْمَذْكُورَة اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي الْمُرَاد بِهَا عَلَى اِثْنَيْ عَشَر قَوْلاً :

أَوَّلهَا : الْجُنُون وَأَنْ يَكُون مَا رَآهُ مِنْ جِنْس الْكَهَانَة ، جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي عِدَّة طُرُق ، وَأَبْطَلَهُ أَبُو بَكْر بْن الْعَرَبِيّ وَحُقَّ لَهُ أَنْ يُبْطِل ، لَكِنْ حَمَلَهُ الإِسْمَاعِيلِيّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ حَصَلَ لَهُ قَبْل حُصُول الْعِلْم الضَّرُورِيّ لَهُ أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ مَلَك وَأَنَّهُ مِنْ عِنْد اللَّه تَعَالَى . **ثَانِيهَا** : الْهَاجِس ، وَهُوَ بَاطِل أَيْضًا ، لأَنَّهُ لاَ يَسْتَقِرّ وَهَذَا اِسْتَقَرَّ وَحَصَلَتْ بَيْنهمَا الْمُرَاجَعَة . **ثَالِثهَا** : الْمَوْت مِنْ شِدَّة الرُّعْب . **رَابِعهَا** : الْمَرَض ، وَقَدْ جَزَمَ بِهِ اِبْن أَبِي جَمْرَة . **خَامِسهَا** : دَوَام الْمَرَض . **سَادِسهَا** : الْعَجْز عَنْ حَمْل أَعْبَاء النُّبُوَّة . **سَابِعهَا**: الْعَجْز عَنْ النَّظَر إِلَى الْمَلَك مِنْ الرُّعْب . **ثَامِنهَا** : عَدَم الصَّبْر عَلَى أَذَى قَوْمه . **تَاسِعهَا** : أَنْ يَقْتُلُوهُ . **عَاشِرهَا** : مُفَارَقَة الْوَطَن . **حَادِيَ عَشَرهَا** : تَكْذِيبهمْ إِيَّاهُ . **ثَانِيَ عَشَرهَا** : تَعْيِيرهمْ إِيَّاهُ . وَأَوْلَى هَذِهِ الأَقْوَال بِالصَّوَابِ وَأَسْلَمهَا مِنْ الارْتِيَاب الثَّالِث وَاللَّذَانِ بَعْده ، وَمَا عَدَاهَا فَهُوَ مُعْتَرَض . وَاَللَّه الْمُوَفِّق .

قَوْله : (**فَقَالَتْ خَدِيجَة كَلاَّ**) مَعْنَاهَا النَّفْي وَالإِبْعَاد ، وَيَحْزُنك بِفَتْحِ أَوَّله وَالْحَاء الْمُهْمَلَة وَالزَّاي الْمَضْمُومَة وَالنُّون مِنْ الْحُزْن . وَلِغَيْرِ أَبِي ذَرّ بِضَمِّ أَوَّله وَالْخَاء الْمُعْجَمَة وَالزَّاي الْمَكْسُورَة ثُمَّ الْيَاء السَّاكِنَة مِنْ الْخِزْي .

ثُمَّ اِسْتَدَلَّتْ عَلَى مَا أَقْسَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَفْي ذَلِكَ أَبَدًا بِأَمْرٍ اِسْتِقْرَائِيّ وَصَفَتْهُ بِأُصُول مَكَارِم الأَخْلاق ؛ لأَنَّ الإِحْسَان إِمَّا إِلَى الأَقَارِب أَوْ إِلَى الأَجَانِب ، وَإِمَّا بِالْبَدَنِ أَوْ

بِالْمَالِ، وَإِمَّا عَلَى مَنْ يَسْتَقِلّ بِأَمْرِهِ أَوْ مَنْ لاَ يَسْتَقِلّ ، وَذَلِكَ كُلّه مَجْمُوع فِيمَا وَصَفْتهُ بِهِ. وَالْكَلّ بِفَتْحِ الْكَاف : هُوَ مَنْ لاَ يَسْتَقِلّ بِأَمْرِهِ كَمَا قَالَ اللَّه تَعَالَى (وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ) (١) .

وَقَوْلهَا " وَتَكْسِب الْمَعْدُوم " وَفِي رِوَايَة "وَتُكْسِب" بِضَمّ أَوَّله ، وَعَلَيْهَا قَالَ الْخَطَّابِيُّ : الصَّوَاب الْمُعْدِم بِلاَ وَاو أَيْ : الْفَقِير ، لأَنَّ الْمَعْدُوم لاَ يَكْسِب . قُلْت : وَلاَ يَمْتَنِع أَنْ يُطْلَق عَلَى الْمُعْدِم الْمَعْدُوم لِكَوْنِهِ كَالْمَعْدُومِ الْمَيِّت الَّذِي لاَ تَصَرُّف لَهُ ، وَالْكَسْب هُوَ الاسْتِفَادَة . فَكَأَنَّهَا قَالَتْ : إِذَا رَغِبَ غَيْرك أَنْ يَسْتَفِيد مَالاً مَوْجُودًا رَغِبْت أَنْتَ أَنْ تَسْتَفِيد رَجُلاً عَاجِزًا فَتُعَاوِنه . وَفِي رِوَايَة : " وَتَكْسِب " بِفَتْحِ أَوَّله ، قَالَ عِيَاض : وَهَذِهِ الرِّوَايَة أَصَحّ. قُلْت : قَدْ وَجَّهْنَا الأُولَى ، وَهَذِهِ الرَّاجِحَة ، وَمَعْنَاهَا تُعْطِي النَّاس مَا لاَ يَجِدُونَهُ عِنْد غَيْرك، فَحَذَفَ أَحَد الْمَفْعُولَيْنِ ، وَيُقَال : كَسَبْت الرَّجُل مَالاً وَأَكْسَبْته بِمَعْنًى . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ تَكْسِب الْمَالَ الْمَعْدُومَ وَتُصِيب مِنْهُ مَا لاَ يُصِيب غَيْرك . وَكَانَتْ الْعَرَب تَتَمَادَح بِكَسْبِ الْمَال ، لاَسِيَّمَا قُرَيْش . وَكَانَ النَّبِيّ ﷺ قَبْل الْبَعْثَة مَحْظُوظًا فِي التِّجَارَة . وَإِنَّمَا يَصِحّ هَذَا الْمَعْنَى إِذَا ضُمَّ إِلَيْهِ مَا يَلِيق بِهِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ مَعَ إِفَادَته لِلْمَالِ يَجُود بِهِ فِي الْوُجُوه الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْمَكْرُمَات .

وَقَوْلهَا " وَتُعِين عَلَى نَوَائِب الْحَقّ " هِيَ كَلِمَة جَامِعَة لأَفْرَاد مَا تَقَدَّمَ وَلِمَا لَمْ يَتَقَدَّم .

" وَتَصْدُق الْحَدِيث " وَهِيَ مِنْ أَشْرَف الْخِصَال . وَفِي رِوَايَة " وَتُؤَدِّي الأَمَانَة" . وَفِي هَذِهِ الْقِصَّة مِنْ الْفَوَائِد :

١- اِسْتِحْبَاب تَأْنِيس مَنْ نَزَلَ بِهِ أَمْر بِذِكْرِ تَيْسِيره عَلَيْهِ وَتَهْوِينه لَدَيْهِ .

٢- وَأَنَّ مَنْ نَزَلَ بِهِ أَمْر اُسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يُطْلِع عَلَيْهِ مَنْ يَثِق بِنَصِيحَتِهِ وَصِحَّة رَأْيه

قَوْله : (تَنَصَّرَ) أَيْ : صَارَ نَصْرَانِيًّا ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ هُوَ وَزَيْد بْن عَمْرو بْن نُفَيْل

---

(١) سورة النحل : آية (٧٦) .

لَمَّا كَرِهَا عِبَادَةَ الأَوْثَانِ إِلَى الشَّامِ وَغَيْرِهَا يَسْأَلُونَ عَنْ الدِّينِ ، فَأَمَّا وَرَقَة فَأَعْجَبَهُ دِين النَّصْرَانِيَّةِ فَتَنَصَّرَ ، وَكَانَ لَقِيَ مَنْ بَقِيَ مِنْ الرُّهْبَانِ عَلَى دِين عِيسَى وَلَمْ يُبَدِّل ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ بِشَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْبِشَارَة بِهِ ، إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِمَّا أَفْسَدَهُ أَهْل التَّبْدِيل .

قَوْله : (**فَكَانَ يَكْتُب الْكِتَاب الْعِبْرَانِيّ فَيَكْتُب مِنْ الإِنْجِيل بِالْعِبْرَانِيَّة**) ، وَفِي رِوَايَة: **وَيَكْتُب مِنْ الإِنْجِيل بِالْعَرَبِيَّةِ** . وَلِمُسْلِمٍ : **فَكَانَ يَكْتُب الْكِتَاب الْعَرَبِيّ** . وَالْجَمِيع صَحِيح ، لأَنَّ وَرَقَة تَعَلَّمَ اللِّسَان الْعِبْرَانِيّ وَالْكِتَابَة الْعِبْرَانِيَّة فَكَانَ يَكْتُب الْكِتَاب الْعِبْرَانِيّ كَمَا كَانَ يَكْتُب الْكِتَاب الْعَرَبِيّ ، لِتَمَكُّنِهِ مِنْ الْكِتَابَيْنِ وَاللِّسَانَيْنِ . وَوَقَعَ لِبَعْضِ الشُّرَّاح هُنَا خَبْط فَلاَ يُعَرَّج عَلَيْهِ .

وَإِنَّمَا وَصَفَتْهُ بِكِتَابَةِ الإِنْجِيل دُون حِفْظه ، لأَنَّ حِفْظ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل لَمْ يَكُنْ مُتَيَسِّرًا كَتَيَسُّرِ حِفْظ الْقُرْآن الَّذِي خُصَّتْ بِهِ هَذِهِ الأُمَّة ، فَلِهَذَا جَاءَ فِي صِفَتهَا " **أَنَاجِيلهَا صُدُورهَا** " .

قَوْلهَا " **يَا ابْن عَمّ** " هَذَا النِّدَاء عَلَى حَقِيقَته ، وَوَقَعَ فِي مُسْلِم " **يَا عَمّ** " وَهُوَ وَهْم ، لأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا لِجَوَازِ إِرَادَة التَّوْقِير لَكِنَّ الْقِصَّة لَمْ تَتَعَدَّد وَمَخْرَجهَا مُتَّحِد ، فَلاَ يُحْمَل عَلَى أَنَّهَا قَالَتْ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ ، فَتَعَيَّنَ الْحَمْل عَلَى الْحَقِيقَة .

وَإِنَّمَا جَوَّزْنَا ذَلِكَ فِيمَا مَضَى فِي الْعِبْرَانِيّ وَالْعَرَبِيّ ، لأَنَّهُ مِنْ كَلاَم الرَّاوِي فِي وَصْف وَرَقَة وَاخْتَلَفَتْ الْمَخَارِج فَأَمْكَنَ التَّعْدَاد ، وَهَذَا الْحُكْم يَطَّرِد فِي جَمِيع مَا أَشْبَهَهُ .

وَقَالَتْ فِي حَقّ النَّبِيّ ﷺ : اِسْمَعْ مِنْ اِبْن أَخِيك . لأَنَّ وَالِده عَبْد اللَّه بْن عَبْد الْمُطَّلِب وَوَرَقَة فِي عَدَد النَّسَب إِلَى قُصَيّ بْن كِلاَب الَّذِي يَجْتَمِعَانِ فِيهِ سَوَاء ، فَكَانَ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّة فِي دَرَجَة إِخْوَته . أَوْ قَالَتْهُ عَلَى سَبِيل التَّوْقِير لِسِنِّهِ .

وَفِيهِ إِرْشَاد إِلَى أَنَّ صَاحِب الْحَاجَة يُقَدِّم بَيْن يَدَيْهِ مَنْ يُعْرَف بِقَدْرِهِ مِمَّنْ يَكُون أَقْرَب مِنْهُ إِلَى الْمَسْئُول ، وَذَلِكَ مُسْتَفَاد مِنْ قَوْل خَدِيجَة لِوَرَقَة " **اِسْمَعْ مِنْ اِبْن أَخِيك** " أَرَادَتْ بِذَلِكَ أَنْ يَتَأَهَّبَ لِسَمَاعِ كَلَام النَّبِيّ ﷺ وَذَلِكَ أَبْلَغ فِي التَّعْلِيم .

قَوْله : (**هَذَا النَّامُوس الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى**) . وَفِي رِوَايَة " **أَنْزَلَ اللَّه** " ، وَفِي التَّفْسِير " **أُنْزِلَ** " عَلَى الْبِنَاء لِلْمَفْعُولِ وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ " هَذَا " إِلَى الْمَلَك الَّذِي ذَكَرَهُ النَّبِيّ ﷺ فِي خَبَره ، وَنَزَّلَهُ مَنْزِلَة الْقَرِيب لِقُرْبِ ذِكْره . وَالنَّامُوس : صَاحِب السِّرّ كَمَا جَزَمَ بِهِ الْمُؤَلِّف فِي أَحَادِيث الأَنْبِيَاء . وَزَعَمَ اِبْن ظَفَر (١) أَنَّ النَّامُوس صَاحِب سِرّ الْخَيْر ، وَالْجَاسُوس صَاحِب سِرّ الشَّرّ .

وَالأَوَّل الصَّحِيح الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُور . وَالْمُرَاد بِالنَّامُوسِ هُنَا جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام .

وَقَوْله " **عَلَى مُوسَى** " وَلَمْ يَقُلْ عَلَى عِيسَى مَعَ كَوْنه نَصْرَانِيًّا ؛ لأَنَّ كِتَاب مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام مُشْتَمِل عَلَى أَكْثَر الأَحْكَام ، بِخِلَافِ عِيسَى . وَكَذَلِكَ النَّبِيّ ﷺ .

أَوْ لأَنَّ مُوسَى بُعِثَ بِالنِّقْمَةِ عَلَى فِرْعَوْن وَمَنْ مَعَهُ ، بِخِلَافِ عِيسَى . كَذَلِكَ وَقَعَتْ النِّقْمَة عَلَى يَد النَّبِيّ ﷺ بِفِرْعَوْن هَذِهِ الأُمَّة وَهُوَ : أَبُو جَهْل بْن هِشَام وَمَنْ مَعَهُ بِبَدْر .

أَوْ قَالَهُ تَحْقِيقًا لِلرِّسَالَة ، لأَنَّ نُزُول جِبْرِيل عَلَى مُوسَى مُتَّفَق عَلَيْهِ بَيْن أَهْل الْكِتَاب ، بِخِلَاف عِيسَى فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْيَهُود يُنْكِرُونَ نُبُوَّته .

وَأَمَّا مَا تَمَحَّلَ لَهُ السُّهَيْلِيّ مِنْ أَنَّ وَرَقَة كَانَ عَلَى اِعْتِقَاد النَّصَارَى فِي عَدَم نُبُوَّة عِيسَى وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُ أَحَد الأَقَانِيم فَهُوَ مُحَال لاَ يُعَرَّج عَلَيْهِ فِي حَقّ وَرَقَة وَأَشْبَاهه مِمَّنْ

---

(١) هو : العلامة البارع ، حجة الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصقلي ، صاحب كتاب " **خير البشر** "، وكتاب " **سلوان المطاع في عدوان الاتباع** "، وكتاب " **شرح المقامات** " وكان قصيراً لطيف الشكل ، وله نظم وفضائل . سكن حماة ، ونشأ بمكة ، وأكثر الأسفار مات سنة خمس وستين وخمس مئة بحماة . سير أعلام النبلاء ٥٢٣/٢٠ .

لَمْ يَدْخُل فِي التَّبْدِيل ، وَلَمْ يَأْخُذ عَمَّنْ بَدَّلَ عَلَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ عِنْد الزُّبَيْر بْن بَكَّار مِنْ طَرِيق عَبْد اللَّه بْن مُعَاذ عَنْ الزُّهْرِيّ فِي هَذِهِ الْقِصَّة أَنَّ وَرَقَة قَالَ : نَامُوس عِيسَى . وَالأَصَحّ مَا تَقَدَّمَ ، وَعَبْد اللَّه بْن مُعَاذ ضَعِيف .

نَعَمْ فِي دَلائِل النُّبُوَّة لأَبِي نُعَيْم بِإِسْنَاد حَسَن إِلَى هِشَام بْن عُرْوَة عَنْ أَبِيهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّة أَنَّ خَدِيجَة أَوَّلاً أَتَتْ ابْن عَمّهَا وَرَقَة فَأَخْبَرَتْه الْخَبَر فَقَالَ : لَئِنْ كُنْت صَدَقْتنِي إِنَّهُ لَيَأْتِيه نَامُوس عِيسَى الَّذِي لاَ يُعَلِّمهُ بَنُو إِسْرَائِيل أَبْنَاءَهُمْ .

فَعَلَى هَذَا فَكَانَ وَرَقَة يَقُول تَارَة نَامُوس عِيسَى وَتَارَة نَامُوس مُوسَى ، فَعِنْد إِخْبَار خَدِيجَة لَهُ بِالْقِصَّةِ قَالَ لَهَا نَامُوس عِيسَى بِحَسَبِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ النَّصْرَانِيَّة ، وَعِنْد إِخْبَار النَّبِيّ ﷺ لَهُ قَالَ لَهُ نَامُوس مُوسَى لِلْمُنَاسَبَةِ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا ، وَكُلّ صَحِيح . وَاَللَّه سُبْحَانه وَتَعَالَى أَعْلَم .

قَوْله : (**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ**) بِفَتْحِ الْوَاو وَتَشْدِيد الْيَاء وَفَتْحهَا جَمْع مُخْرِج ، وَاسْتَبْعَدَ النَّبِيّ ﷺ أَنْ يُخْرِجُوهُ ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ سَبَب يَقْتَضِي الإِخْرَاج ، لِمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِم الأَخْلاَق الَّتِي تَقَدَّمَ مِنْ خَدِيجَة وَصْفهَا .

قَوْله : (**إِلاَّ عُودِيَ**) وَفِي رِوَايَة " **إِلاَّ أُوذِيَ** " فَذَكَرَ وَرَقَة أَنَّ الْعِلَّة فِي ذَلِكَ مَجِيئُهُ لَهُمْ بِالانْتِقَالِ عَنْ مَأْلُوفهمْ ، وَلأَنَّهُ عَلِمَ مِنْ الْكُتُب أَنَّهُمْ لاَ يُجِيبُونَهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ يَلْزَمهُ لِذَلِكَ مُنَابَذَتهمْ وَمُعَانَدَتهمْ فَتَنْشَأ الْعَدَاوَة مِنْ ثَمَّ ، وَفِيهِ دَلِيل عَلَى أَنَّ الْمُجِيب يُقِيم الدَّلِيل عَلَى مَا يُجِيب بِهِ إِذَا اِقْتَضَاهُ الْمَقَام .

قَوْله : (**إِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمك**) يَعْنِي يَوْم الإِخْرَاج .

قَوْله : (**ثُمَّ لَمْ يَنْشَب**) بِفَتْحِ الشِّين الْمُعْجَمَة أَيْ لَمْ يَلْبَث . وَأَصْل النُّشُوب التَّعَلُّق ، أَيْ : لَمْ يَتَعَلَّق بِشَيْءٍ مِنْ الأُمُور حَتَّى مَاتَ .

وَهَذَا بِخِلاَف مَا فِي السِّيرَة لابْنِ إِسْحَاق أَنَّ وَرَقَة كَانَ يَمُرّ بِبِلالٍ وَهُوَ يُعَذَّب ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ تَأَخَّرَ إِلَى زَمَن الدَّعْوَة ، وَإِلَى أَنْ دَخَلَ بَعْض النَّاس فِي الإِسْلام .

فَإِنْ تَمَسَّكْنَا بِالتَّرْجِيحِ فَمَا فِي الصَّحِيحِ أَصَحّ ، وَإِنْ لَحَظْنَا الْجَمْع أَمْكَنَ أَنْ يُقَال : الْوَاو فِي قَوْله : وَفَتَرَ الْوَحْي . لَيْسَتْ لِلتَّرْتِيبِ ، فَلَعَلَّ الرَّاوِيَ لَمْ يَحْفَظ لِوَرَقَة ذِكْرًا بَعْد ذَلِكَ فِي أَمْر مِنْ الأُمُور فَجَعَلَ هَذِهِ الْقِصَّة انْتِهَاء أَمْره بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمه لا إِلَى مَا هُوَ الْوَاقِع .

وَفُتُور الْوَحْي عِبَارَة عَنْ تَأَخُّرِهِ مُدَّة مِنْ الزَّمَان ، وَكَانَ ذَلِكَ لِيَذْهَب مَا كَانَ ﷺ وَجَدَهُ مِنْ الرَّوْع ، وَلِيَحْصُل لَهُ التَّشَوُّف إِلَى الْعَوْد ، فَقَدْ رَوَى الْمُؤَلِّف (١) فِي التَّعْبِير مِنْ طَرِيق مَعْمَر مَا يَدُلّ عَلَى ذَلِكَ (٢) .

وعن فترة انقطاع الوحي روى البخاري ومسلم بسنديهما عن جَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ قَالَ فِي حَدِيثِهِ : (**بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَفَرِقْتُ مِنْهُ ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي)** فَدَثَّرُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } (٣) قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : وَهِيَ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ قَالَ ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ (٤) .

---

(١) أي البخاري رحمه الله .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣١/١ : ٣٦ بتصرف .

(٣) سورة المدثر : الآيات (١ : ٥) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في بدء الوحي / باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/ ٤ ، وفي بدء الخلق / بَاب ذِكْرِ الْمَلَائِكَة ٨٤/٤ ، وفي التفسير / بَاب : { وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } ، بَاب : قَوْلُهُ { وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ } ٧٥/٦ ، وفي تفسير سورة العلق ٨٩/٦ ، وفي الأدب / بَاب : رَفْعِ الْبَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ ١٢٢/٧ ، ومسلم في الإيمان / باب : بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ١٤٣/١ ح ١٦١ .

حزن الرسول ﷺ على انقطاع الوحي :

أسف الرسول ﷺ وحزن حزنا شديداً على انقطاع الوحي ، وذلك لما رواه جُنْدُبَ بْنَ سُفْيَانَ ﷺ قَالَ : اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى(١) }(٢) .

قال الحافظ ابن حجر : قوله : (**فَجَاءَتْ امْرَأَة فَقَالَتْ : يَا مُحَمَّد إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُون شَيْطَانك تَرَكَك**) هِيَ أُمّ جَمِيل بِنْت حَرْب اِمْرَأَة أَبِي لَهَب . وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق الْمُفَضَّل بْن صَالِح عَنْ الأَسْوَد بْن قَيْس بِلَفْظِ " **فَقَالَتْ اِمْرَأَة مِنْ أَهْله** " وَمِنْ وَجْه آخَر عَنْ الأَسْوَد بْن قَيْس بِلَفْظِ " **حَتَّى قَالَ الْمُشْرِكُونَ** " (٣) وَلاَ مُخَالَفَة لأَنَّهُمْ قَدْ يُطْلِقُونَ لَفْظ الْجَمْع وَيَكُون الْقَائِل أَوْ الْفَاعِل وَاحِدًا ، بِمَعْنَى أَنَّ الْبَاقِينَ رَاضُونَ بِمَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ الْوَاحِد .

قوله : (**قَرِبَك**) بِكَسْرِ الرَّاء ، يُقَال يَقْرَبهُ بِفَتْحِ الرَّاء مُتَعَدِّيًا ، وَمِنْهُ (لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ) (٤) ، وَأَمَّا قَرُبَ بِالضَّمِّ فَهُوَ لاَزِم . تَقُول قَرُبَ الشَّيْء أَيْ دَنَا . وَوَقَعَ فِي

---

(١) سورة الضحى الآيات : (١ : ٣) .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في التفسير / بَاب : { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى } ٦ / ٨٦ ، ومسلم في الجهاد والسير / بَاب : مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ٣/١٤٢٢ ح ١٧٩٧ .

(٣) لفظ رواية مسلم في الجهاد والسير / بَاب : مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ٣/١٤٢١ ، ١٤٢٢ ح ١٧٩٧ .

(٤) سورة النساء من الآية (٤٣) .

رِوَايَة أُخْرَى عِنْد الْحَاكِم " فَقَالَتْ خَدِيجَة " وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيق عَبْداللَّه بْن شَدَّاد " فَقَالَتْ خَدِيجَة وَلاَ أَرَى رَبَّك " وَمِنْ طَرِيق هِشَام بْن عُرْوَة عَنْ أَبِيه " فَقَالَتْ خَدِيجَة لِمَا تَرَى مِنْ جَزَعه " وَهَذَانِ طَرِيقَانِ مُرْسَلاَنِ وَرُوَاتهمَا ثِقَات ، فَالَّذِي يَظْهَر أَنَّ كُلاًّ مِنْ أُمّ جَمِيل وَخَدِيجَة قَالَتْ ذَلِكَ ، لَكِنْ أُمّ جَمِيل عَبَّرَتْ – لِكَوْنِهَا كَافِرَة – بِلَفْظِ شَيْطَانك ، وَخَدِيجَة عَبَّرَتْ – لِكَوْنِهَا مُؤْمِنَة – بِلَفْظِ رَبّك أَوْ صَاحِبك ، وَقَالَتْ أُمّ جَمِيل شَمَاتَة وَخَدِيجَة تَوَجُّعًا (١) .

حزن الرسول ﷺ على انقطاع الوحي وجزع جزعاً شديداً ، فكان يذهب إلى أعالي الجبال عله يرى الملك الذي جاءه بحراء ، أما ما روى أنه كان يذهب إلى أعالي الجبال ليلقي بنفسه منتحراً ، فهو ضرب من الخرافات السخيفة ، التي لا يعتد بها ، لأن نفسه الشريفة منذ حداثته كانت تواقة إلى هداية الإنسانية ، فكيف يفكر في الانتحار بعد أن عهد إليه بهذه المهمة .

نعم إنه قد اعتاد الذهاب إلى الجبال قبل أن ينزل عليه الوحي ، لأنه بطبيعته كان ميالاً إلى التأمل والتفكير ، وهناك يخلو الجو ، وتشعر النفس بالصفاء والهدوء والسكينة ، فكان خروجه للجبال بعد فتور الوحي ، ليظفر برؤية جبريل مرة أخرى ، لا ليلقي بنفسه منتحراً ، لأن كل حدث في حياته السابقة واللاحقة يكذب هذه الفرية ، ويجعل بطلانها أظهر من الشمس في رابعة النهار (٢) .

نقل الحافظ ابن حجر عن الإسْمَاعِيلِيّ قوله : مَوَّهَ بَعْض الطَّاعِنِينَ عَلَى الْمُحَدِّثِينَ فَقَالَ : كَيْف يَجُوز لِلنَّبِيِّ أَنْ يَرْتَاب فِي نُبُوَّته حَتَّى يَرْجِع إِلَى وَرَقَة ، وَيَشْكُو لِخَدِيجَةَ مَا يَخْشَاهُ ، وَحَتَّى يُوفِيَ بِذِرْوَةِ جَبَل لِيُلْقِيَ مِنْهَا نَفْسه عَلَى مَا جَاءَ فِي رِوَايَة مَعْمَر (٣) ؟

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٨١/٨ .

(٢) دراسات في السيرة التحليلية . أ. د . إبراهيم عبد الحميد سلامة . ص : ١٤ ، ١٥ .

(٣) رواية معمر هذه أخرجها البخاري في التعبير / باب : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ٦٧/٨ ، ٦٨ .

قَالَ : وَلَئِنْ جَازَ أَنْ يَرْتَابَ مَعَ مُعَايَنَة النَّازِل عَلَيْهِ مِنْ رَبِّه فَكَيْفَ يُنْكِر عَلَى مَـنْ ارْتَابَ فِيمَا جَاءَهُ بِهِ مَعَ عَدَم الْمُعَايَنَة ؟

قَالَ : وَالْجَوَاب أَنَّ عَادَةَ اللَّه جَرَتْ بِأَنَّ الأَمْرَ الْجَلِيل إِذَا قُضِيَ بِإِيصَالِهِ إِلَى الْخَلْـق أَنْ يَقْدمهُ تَرْشِيح وَتَأْسِيس ، فَكَانَ مَا يَرَاهُ النَّبِيّ ﷺ مِنْ الرُّؤْيَا الصَّادِقَة ، وَمَحَبَّة الْخَلْـوَة، وَالتَّعَبُّد مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا فَجِئَهُ الْمَلَك فَجِئَهُ بَغْتَة ، أَمْرٌ خَالَفَ الْعَادَة وَالْمَأْلُوف فَنَفَرَ طَبْعُـهُ الْبَشَرِيُّ مِنْهُ ، وَهَالَهُ ذَلِكَ وَلَمْ يَتَمَكَّن مِنْ التَّأَمُّل فِي تِلْكَ الْحَال ، لأَنَّ النُّبُـوَّة لاَ تُزِيـل طِبَاع الْبَشَرِيَّة كُلّهَا ، فَلاَ يُتَعَجَّب أَنْ يَجْزَع مِمَّا لَمْ يَأْلَفهُ وَيَنْفِر طَبْعه مِنْهُ حَتَّى إِذَا تَدَرَّجَ عَلَيْهِ وَأَلِفَهُ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ ، فَلِذَلِكَ رَجَعَ إِلَى أَهْله الَّتِي أَلِفَ تَأْنِيسهَا لَهُ ، فَأَعْلَمَهَا بِمَا وَقَـعَ لَهُ فَهَوَّنَتْ عَلَيْهِ خَشْيَته بِمَا عَرَفَتْهُ مِنْ أَخْلاَقه الْكَرِيمَة وَطَرِيقَتـه الْحَسَـنَة ، فَـأَرَادَتْ الاسْتِظْهَار بِمَسِيرهَا بِهِ إِلَى وَرَقَة لِمَعْرِفَتِهَا بِصِدْقِهِ وَمَعْرِفَته وَقِرَاءَته الْكُتُبَ الْقَدِيمَـة ، فَلَمَّا سَمِعَ كَلاَمَهُ أَيْقَنَ بِالْحَقّ وَاعْتَرَفَ بِهِ .

ثُمَّ كَانَ مِنْ مُقَدِّمَات تَأْسِيس النُّبُوَّة فَتْرَة الْوَحْي لِيَتَدَرَّج فِيهِ وَيَمْرُن عَلَيْـهِ ، فَشَـقَّ عَلَيْهِ فُتُورُهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ خُوطِبَ عَنْ اللَّه بَعْد أَنَّك رَسُول مِنْ اللَّه وَمَبْعُوث إِلَى عِبَـاده ، فَأَشْفَقَ أَنْ يَكُون ذَلِكَ أَمْر بُدِئَ بِهِ ثُمَّ لَمْ يَرِد اسْتِفْهَامه فَحَزِنَ لِذَلِكَ ، حَتَّى تَدَرَّجَ عَلَى احْتِمَال أَعْبَاء النُّبُوَّة وَالصَّبْر عَلَى ثِقَل مَا يَرِد عَلَيْهِ فَتَحَ اللَّه لَهُ مِنْ أَمْره بِمَـا فَـتَحَ .

قَالَ : وَمِثَال مَا وَقَعَ لَهُ فِي أَوَّل مَا خُوطِبَ وَلَمْ يَتَحَقَّق الْحَال عَلَى جَلِيَّتهَا مَثَـل رَجُـل سَمِعَ آخَر يَقُول " الْحَمْد لِلَّه " فَلَمْ يَتَحَقَّق أَنَّهُ يَقْرَأ حَتَّى إِذَا وَصَلَهَا بِمَا بَعْدهَا مِنْ الآيَات تَحَقَّقَ أَنَّهُ يَقْرَأ ، وَكَذَا لَوْ سَمِعَ قَائِلاً يَقُول " خَلَتْ الدِّيَار " لَمْ يَتَحَقَّق أَنَّهُ يُنْشِد شِعْرًا حَتَّى يَقُول " مَحَلّهَا وَمَقَامهَا ".

ثُمَّ أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْحِكْمَة فِي ذِكْره ﷺ مَا اتَّفَقَ لَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّة أَنْ يَكُون سَبَبًا فِي انْتِشَار خَبَره فِي بِطَانَته ، وَمَنْ يَسْتَمِع لِقَوْلِهِ وَيُصْغِي إِلَيْهِ ، وَطَرِيقًا فِي مَعْرِفَتهمْ مُبَايَنَة مَنْ سِوَاهُ فِي أَحْوَاله لِيَنْبَهُوا عَلَى مَحَلّه .

قَالَ : وَأَمَّا إِرَادَته إِلْقَاء نَفْسه مِنْ رُءُوس الْجِبَال بَعْدَمَا نُبِّئَ فَلِضَعْفِ قُوَّته عَنْ تَحَمُّل مَا حَمَلَهُ مِنْ أَعْبَاء النُّبُوَّة ، وَخَوْفًا مِمَّا يَحْصُل لَهُ مِنْ الْقِيَام بِهَا مِنْ مُبَايَنَة الْخَلْق جَمِيعًا،

كَمَا يَطْلُبُ الرَّجُلُ الرَّاحَةَ مِنْ غَمٍّ يَنَالُهُ فِي الْعَاجِلِ بِمَا يَكُون فِيهِ زَوَاله عَنْهُ وَلَوْ أَفْضَى إِلَى إِهْلَاك نَفْسه عَاجِلاً ، حَتَّى إِذَا تَفَكَّرَ فِيمَا فِيهِ صَبْرُهُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ الْعُقْبَى الْمَحْمُودَة صَبَرَ وَاسْتَقَرَّتْ نَفْسه .

قُلْت : – أي الحافظ ابن حجر – أَمَّا الإِرَادَة الْمَذْكُورَة فِي الزِّيَادَة الأُولَى فَفِي صَرِيح الْخَبَر أَنَّهَا كَانَتْ حُزْنًا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْ الأَمْر الَّذِي بَشَّرَهُ بِهِ وَرَقَة ، وَأَمَّا الإِرَادَة الثَّانِيَة ، بَعْد أَنْ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيل وَقَالَ لَهُ إِنَّك رَسُول اللَّه حَقًّا فَيَحْتَمِل مَا قَالَهُ ، وَالَّذِي يَظْهَر لِي أَنَّهُ بِمَعْنَى الَّذِي قَبْله ، وَأَمَّا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ الإِسْمَاعِيلِيّ فَوَقَعَ قَبْل ذَلِكَ فِي اِبْتِدَاء مَجِيء جِبْرِيل ، وَيُمْكِن أَنْ يُؤْخَذ مِمَّا أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق النُّعْمَان ابْن رَاشِد عَنْ ابْن شِهَاب فَذَكَرَ نَحْو حَدِيث الْبَاب وَفِيهِ " **فَقَالَ لِي يَا مُحَمَّد أَنْتَ رَسُول اللَّه حَقًّا قَالَ فَلَقَدْ هَمَمْت أَنْ أَطْرَح نَفْسِي مِنْ حَالِق جَبَل** " أَيْ مِنْ عُلُوِّهِ (١) .

وهذا تعليل جيد بيد أن هذا جائز لو أراد أن يلقي بنفسه على الحقيقة ، وإنما جل الروايات يفيد هم النبي ﷺ بذلك ، والهم غير الفعل كما هو واضح ومعلوم ، ثم قد يكون المراد من هذه الروايات تصوير الحالة التي كان فيها النبي ﷺ من الحزن والأسف على انقطاع الوحي ، ولا جدال أن من كان في مثل موقفه ﷺ لابد من حزنه وأسفه .

ثم عاد الوحي وتوالي عطاء الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ فنزل الوحي بسورة الضحى تطييباً لقلب النبي ﷺ على ما حصل له من الحزن والجزع في فترة انقطاع الوحي .

يقول ابْنُ إسْحَاقَ : ثُمّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فَتْرَةً مِنْ ذَلِكَ حَتّى شَقّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَحْزَنَهُ ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الضّحَى ، يُقْسِمُ لَهُ رَبّهُ وَهُوَ الّذِي أَكْرَمَهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ مَا وَدّعَهُ وَمَا قَلاهُ فَقَالَ تَعَالَى: { وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٢/٣٧٧ ، ٣٧٨ .

وَمَا قَلَى } يَقُولُ مَا صَرَمَكَ فَتَرَكَك ، وَمَا أَبْغَضَكَ مُنْذُ أَحَبَّكَ . { وَلَلآخِـــرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى } أيْ لِمَا عِنْدِي مِنْ مَرْجِعِك إلَيّ خَيْرٌ لَك مِمّا عَجّلْت لَك مِـــنْ الْكَرَامَةِ فِي الدّنْيَا . { وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى } مِنْ الْفَلْجِ (١) فِي الدّنْيَا ، وَالثّوَابِ فِي الآخِرَةِ . { أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى } يُعَرّفُهُ اللّه مَا ابْتَدَأَهُ بِهِ مِنْ كَرَامَتِهِ فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ وَمَنّهِ عَلَيْهِ فِي يُتْمِهِ وَعَيْلَتِهِ وَضَلالَتِهِ وَاسْتِنْقَاذِهِ مِنْ ذَلِكَ كُلّه بِرَحْمَتِهِ (٢) .

كيفية نزول الوحي عليه ﷺ :

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ ﷺ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**أَحْيَانًا يَـــأْتِينِي مِثْـــلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًـــا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**) قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَلَقَـــدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا (٣).

وفصل الإمام السهيلي كيفية نزول الوحي عليه ﷺ فقال : كَانَ نُـــزُولُ الْـــوَحْيِ

---

(١) الفَلْجُ: الظَّفر بمن تُخاصِمهُ. العين . مادة : فلج .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٢٥/١ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في بدء الوحي / باب : كيف كـــان بـــدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٢/١، ٣ ، وفي بدء الخلق / بَاب ذِكْرِ الْمَلائِكَـــةِ ٨٠/٤ ، ومسلم في الفضائل/ بَاب عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْبَرْدِ وَحِينَ يَأْتِيـــهِ الْـــوَحْيُ ١٨١٦/٤ ، ١٨١٧ ح ٢٣٣٣ .

عَلَيْهِ ﷺ فِي أَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ :

مِنْهَا : النَّوْمُ كَمَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ ، وَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ : { إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى } فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ { افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ } [الصافات ١٠٢] ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَأْتِيهِمْ فِي الْمَنَامِ كَمَا يَأْتِيهِمْ فِي الْيَقَظَةِ .

وَمِنْهَا : أَنْ يَنْفُثَ فِي رَوْعِهِ الْكَلَامَ نَفْثًا ، كَمَا قَالَ ﷺ : **(إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي(١) أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَرِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ)** (٢) .

وقال مُجَاهِدٌ ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا } [الشورى : ٥١] . قَالَ هُوَ أَنْ يَنْفُثَ فِي رَوْعِهِ بِالْوَحْيِ .

وَمِنْهَا : أَنْ يَأْتِيَهُ الْوَحْيُ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيْهِ وَقِيلَ إِنَّ ذَلِكَ لِيَسْتَجْمِعَ قَلْبُهُ عِنْدَ تِلْكَ الصَّلْصَلَةِ ، فَيَكُونُ أَوْعَى لِمَا يَسْمَعُ وَأَلْقَنَ لِمَا يَلْقَى .

وَمِنْهَا : أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلاً ، فَقَدْ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ.

وَمِنْهَا : أَنْ يَتَرَاءَى لَهُ جِبْرِيلُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ فِيهَا ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ يَنْتَشِرُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ .

وَمِنْهَا : أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ إِمَّا فِي الْيَقَظَةِ كَمَا كَلَّمَهُ فِي لَيْلَةِ الإِسْرَاءِ وَإِمَّا فِي النَّوْمِ كَمَا قَالَ فِي حَدِيثِ مُعَاذٍ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ ، قَالَ : **(أَتَانِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ**

---

(١) أي في نفسي وخلدي . ورُوحُ القدُس : جبريل . النهاية في غريب الحديث . مادة : روع ، نفث .

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده ٢/ ١٨٥ ح ١١٥١.

صُورَةٍ فَقَالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى ، فَقُلْت : لاَ أَدْرِي ؟. فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيْ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثُنْدُوَتَيَّ وَتَجَلَّى لِي عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى ، فَقُلْت : فِي الْكَفَّارَاتِ فَقَالَ وَمَا هُنَّ ؟ فَقُلْت : الْوُضُوءُ عِنْدَ الْكَرِيهَاتِ وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْحَسَنَاتِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ حَمِيدًا ، وَمَاتَ حَمِيدًا ، وَكَانَ مِنْ ذَنْبِهِ كَمَنْ وَلَدَتْهُ أُمَّهُ) (١) وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

فَهَذِهِ سِتَّةُ أَحْوَالٍ وَحَالَةٌ سَابِعَةٌ قَدْ قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا ، وَهِيَ نُزُولُ إِسْرَافِيلَ عَلَيْهِ بِكَلِمَاتٍ مِنَ الْوَحْيِ قبلَ جِبْرِيل فَهَذِهِ سَبْعُ صُوَرٍ فِي كَيْفِيَّةِ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ أَرَ أَحَدًا جَمَعَهَا كَهَذَا الْجَمْعِ وَقَدْ اسْتَشْهَدْنَا عَلَى صِحَّتِهَا بِمَا فِيهِ غنية (٢) .

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير / بَاب : وَمِنْ سُورَةِ ص ٣٤٣/٥ ، ٣٤٤ ح ٣٢٣٥ وقَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٢) الروض الأنف ١١٦/١ .

- مرحلة الجهر بالدعوة
- إعلان الدعوة وسماع قريش بها
- عداوة قريش وحماية أبي طالب له
- إيذاء المشركين للرسول ﷺ والمسلمين

إعلان الدعوة وسماع قريش بها :

تفشى خبر نزول الوحي على رسول الله ﷺ ، وأسلمت السيدة خديجة رضي الله عنها ، ثم أسلم علي بن أبى طالب ، ثم أبو بكر الصديق رضي الله عنهم ، ثم تتابع الناس الدخول في الدين الجديد الذي خالط شغاف القلوب إلا من ختم الله على قلبه .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثُمّ دَخَلَ النّاسُ فِي الإِسْلاَمِ أَرْسَالاً مِنْ الرّجَالِ وَالنّسَاءِ ، حَتّى فَشَا ذِكْرُ الإِسْلاَمِ بِمَكّةَ وَتُحُدّثَ بِهِ . ثُمّ إِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَصْدَعَ بِمَا جَاءَهُ مِنْهُ ، وَأَنْ يُبَادِيَ النّاسَ بِأَمْرِهِ ، وَأَنْ يَدْعُوَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ بَيْنَ مَا أَخْفَى رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَمْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِهِ إِلَى أَنْ أَمَرَهُ اللّهُ تَعَالَى بِإِظْهَارِ دِينِهِ ثَلاَثَ سِنِينَ – فِيمَا بَلَغَنِي – مِنْ مَبْعَثِهِ ثُمّ قَالَ اللّهُ تَعَالَى لَهُ { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }(١) وَقَالَ تَعَالَى : { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }(٢) { وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ }(٣) .

وَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إذَا صَلّوْا ، ذَهَبُوا فِي الشّعَابِ فَاسْتَخْفَوْا بِصَلاَتِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ ، فَبَيْنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ فِي شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مَكّةَ ، إذْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ نَفَرٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يُصَلّونَ ، فَنَاكَرُوهُمْ وَعَابُوا عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ حَتّى قَاتَلُوهُمْ ، فَضَرَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ يَوْمَئِذٍ رَجُلاً مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِلَحْيِ بَعِيرٍ فَشَجّهُ ، فَكَانَ أَوّلَ دَمٍ أُهْرِيقَ فِي الإِسْلاَمِ (٤) .

---

(١) سورة الحجر : آية (٩٤) .

(٢) سورة الشعراء : آية (٢١٤ ، ٢١٥) .

(٣) سورة الحجر : آية (٨٩) .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١٣٢/١ ، ١٣٣ بتصرف .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي : يَا بَنِي فِهْرٍ : يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ . حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ : (**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ** ؟) قَالُوا : نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا . قَالَ : (**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**) فَقَالَ أَبُولَهَبٍ :تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ فَنَزَلَتْ { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ }(١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ : { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا ، فَاجْتَمَعُوا ، فَعَمَّ وَخَصَّ ، فَقَالَ : (**يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلاَلِهَا**) (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري في التفسير / بَاب : { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ } ١٦/٦ ، ١٧ وفي الوصايا / بَاب : إِذَا وَقَفَ أَوْ أَوْصَى لأَقَارِبِهِ وَمَنْ الأَقَارِب ؟ ١٩٠/٣ ، وفي المناقب / بَاب : مَنْ انْتَسَبَ إِلَى آبَائِهِ فِي الإِسْلامِ وَالْجَاهِلِيَّةِ ١٦١/٤ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } ١٩٤/١ ح ٢٠٨ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له ، أخرجه البخاري في الوصايا / بَاب : هَلْ يَدْخُلُ النِّسَاءُ وَالْوَلَدُ فِي الأَقَارِبِ ١٩٠/٣ ، ١٩١ ، وفي التفسير / بَاب : { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ } ١٧/٦ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } ١٩٢/١ ، ١٩٣ ح ٢٠٤ ، ٢٠٦ .

عداوة قريش وحماية أبي طالب له :

قريش ، أهل الشرك والوثنية ، ثارت ثائرتهم ، واشتاط غضبهم ، وعميت قلوبهم ، وضلت عقولهم ، لما رأوا النبي ﷺ يسب آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، فمشوا إلى أبي طالب ذي الوجاهة بعد عبد المطلب وسيد قومه ، والمتكفل بحماية رسول الله ﷺ ، وصاحب الأمر والنهي في بني هاشم ، علهم يثيروا حفيظته ، ويلهبوا قلبه على آلهتهم ، وفعلاً تجاوب معهم إلا أنه لم يجد من رسول الله ﷺ إلا الثبات واليقين والتمسك بدعوته ، مع العزم على أن يقاتل دونها حتى تظهر للناس أجمعين ، عند ذلك أيقن أبو طالب أن الأمر جد خطير ، فأخذ في الدفاع عن ابن أخيه بدافع العصبية القبلية وعصبة الدم .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَلَمَّا بَادَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ بِالإِسْلَامِ ، وَصَدَعَ بِهِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ، لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ وَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ – فِيمَا بَلَغَنِي – حَتَّى ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ وَعَابَهَا ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ أَعْظَمُوهُ وَنَاكَرُوهُ ، وَأَجْمَعُوا خِلَافَهُ وَعَدَاوَتَهُ ، إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ بِالإِسْلَامِ ، وَهُمْ قَلِيلٌ مُسْتَخْفُونَ ، وَحَدِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَمَنَعَهُ ، وَقَامَ دُونَهُ ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ مُظْهِرًا لأَمْرِهِ لاَ يَرُدُّهُ عَنْهُ شَيْءٌ . فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لاَ يَعْتِبُهُمْ مِنْ شَيْءٍ أَنْكَرُوهُ عَلَيْهِ مِنْ فِرَاقِهِمْ ، وَعَيْبِ آلِهَتِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ قَدْ حَدِبَ عَلَيْهِ ، وَقَامَ دُونَهُ فَلَمْ يُسْلِمْهُ لَهُمْ ، مَشَى رِجَالٌ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ ابْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ . وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبِ ابْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ . وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ وَاسْمُهُ الْعَاصُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ . وَالأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ . وَأَبُو جَهْلٍ – وَاسْمُهُ عَمْرٌو، وَكَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ – بْنَ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ

مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ ابْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ . وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ . وَنَبِيهٌ وَمُنَبِّهٌ ابْنَا الْحَجَّاجِ بْنِ عَامِرِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ سَهْمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هَصِيص بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ . وَالْعَاصِ ابْنُ وَائِلٍ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : أَوْ مَنْ مَشَى مِنْهُمْ . فَقَالُوا : يَا أَبَا طَالِبِ إِنَّ ابْنَ أَخِيك قَدْ سَبَّ آلِهَتَنَا ، وَعَابَ دِينَنَا ، وَسَفَّهَ أَحْلَامَنَا ، وَضَلَّلَ آبَاءَنَا ، فَإِمَّا أَنْ تَكُفَّهُ عَنَّا ، وَإِمَّا أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَإِنَّك عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافِهِ فَنَكْفِيكَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو طَالِبٍ قَوْلًا رَفِيقًا ، وَرَدَّهُمْ رَدًّا جَمِيلًا ، فَانْصَرَفُوا عَنْهُ .

وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ يُظْهِرُ دِينَ اللَّهِ ، وَيَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ شَرِيَ الْأَمْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَتَّى تَبَاعَدَ الرِّجَالُ وَتَضَاغَنُوا ، وَأَكْثَرَتْ قُرَيْشٌ ذِكْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهَا ، فَتَذَامَرُوا فِيهِ وَحَضَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ مَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ مَرَّةً أُخْرَى ، فَقَالُوا لَهُ يَا أَبَا طَالِب : إِنَّ لَكَ سِنًّا وَشَرَفًا وَمَنْزِلَةً فِينَا ، وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ مِنْ ابْنِ أَخِيك فَلَمْ تَنْهَهُ عَنَّا ، وَإِنَّا وَاَللَّهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا : مِنْ شَتْمِ آبَائِنَا ، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا ، حَتَّى تَكُفَّهُ عَنَّا ، أَوْ نُنَازِلَهُ وَإِيَّاكَ فِي ذَلِكَ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ أَوْ كَمَا قَالُوا لَهُ. ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ فَعَظُمَ عَلَى أَبِي طَالِبٍ فِرَاقُ قَوْمِهِ وَعَدَاوَتُهُمْ وَلَمْ يَطِبْ نَفْسًا بِإِسْلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ وَلَا خِذْلَانِهِ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ الْأَخْنَسِ أَنَّهُ حُدِّثَ أَنَّ قُرَيْشًا حِينَ قَالُوا لِأَبِي طَالِبٍ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ أَخِي ، إِنَّ قَوْمَك قَدْ جَاءُونِي ، فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا ، لِلَّذِي كَانُوا قَالُوا لَهُ ، فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِك ، وَلَا تُحَمِّلْنِي مِنْ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ ، قَالَ فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لِعَمِّهِ فِيهِ بَدَاءٌ أَنَّهُ خَاذِلُهُ ، وَمُسْلِمُهُ ، وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ . قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**يَا عَمّ ، وَاَللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ**) قَالَ : ثُمَّ

استَعْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَكَى ثُمَّ قَامَ ، فَلَمَّا وَلَّى نَادَاهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ : أَقْبِلْ يَا ابْنَ أَخِي ، قَالَ : فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : اذْهَبْ يَا ابْنَ أَخِي ، فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ فَوَاللَّهِ لاَ أُسْلِمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا .

ثُمَّ إِنَّ قُرَيْشًا حِينَ عَرَفُوا أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَدْ أَبَى خِذْلاَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِسْلاَمَهُ ، وَإِجْمَاعَهُ لِفِرَاقِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَعَدَاوَتِهِمْ مَشَوْا إِلَيْهِ : بِعُمَارَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، فَقَالُوا لَهُ - فِيمَا بَلَغَنِي - يَا أَبَا طَالِبٍ هَذَا عُمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ أَنْهَدُ فَتًى فِي قُرَيْشٍ وَأَجْمَلُهُ ، فَخُذْهُ فَلَكَ عَقْلُهُ وَنَصْرُهُ وَاتَّخِذْهُ وَلَدًا فَهُوَ لَكَ ، وَأَسْلِمْ إِلَيْنَا ابْنَ أَخِيكَ هَذَا ، الَّذِي قَدْ خَالَفَ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ، وَفَرَّقَ جَمَاعَةَ قَوْمِكَ ، وَسَفَّهَ أَحْلاَمَهُمْ فَنَقْتُلَهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَبِئْسَ مَا تَسُومُونَنِي ، أَتُعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ وَأُعْطِيكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ !! هَذَا وَاللَّهِ مَا لاَ يَكُونُ أَبَدًا . قَالَ : فَقَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلِ بْنِ عَبْدِمَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ : وَاللَّهِ يَا أَبَا طَالِبٍ لَقَدْ أَنْصَفَكَ قَوْمُكَ ، وَجَهَدُوا عَلَى التَّخَلُّصِ مِمَّا تَكْرَهُهُ ، فَمَا أَرَاكَ تُرِيدُ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ لِلْمُطْعِمِ : وَاللَّهِ مَا أَنْصَفُونِي ، وَلَكِنَّكَ قَدْ أَجْمَعْتَ خِذْلاَنِي وَمُظَاهَرَةَ الْقَوْمِ عَلَيَّ فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ ، أَوْ كَمَا قَالَ . فَحَقَبَ الأَمْرُ وَحَمِيَتِ الْحَرْبُ ، وَتَنَابَذَ الْقَوْمُ وَبَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا (١) .

إيذاء المشركين للرسول ﷺ والمسلمين :

اشتد إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ حين رفض عرضهم بترك دينه ، ووقوف عمه معه وتصديه لهم ، حينئذ ثارت ثائرتهم ، فنابذوا العداوة للنبي ﷺ وللمسلمين ، وأذاقوهم صنوف العذاب .

قال ابن هشام : فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ حِينَ مَنَعَهُ اللَّهُ مِنْهَا ، وَقَامَ عَمُّهُ وَقَوْمُهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ دُونَهُ ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا أَرَادُوا مِنَ الْبَطْشِ بِهِ ، يَهْمِزُونَهُ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٣٣ ، ١٣٤ .

وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ وَيُخَاصِمُونَهُ ، وَجَعَلَ الْقُرْآنُ يَنْزِلُ فِي قُرَيْشٍ بِأَحْدَاثِهِمْ وَفِيمَنْ نُصِبَ لِعَدَاوَتِهِ مِنْهُمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سُمِّيَ لَنَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ فِي عَامَّةِ مَنْ ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ الْكُفَّارِ فَكَانَ مِمَّنْ سُمِّيَ لَنَا مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ عَمَّهُ أَبُو لَهَبِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَامْرَأَتُهُ أُمّ جَمِيلٍ بِنْتُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ ، حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، وَإِنَّمَا سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ؟ لأَنَّهَا كَانَتْ - فِيمَا بَلَغَنِي - تَحْمِلُ الشَّوْكَ فَتَطْرَحَهُ عَلَى طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ يَمُرّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمَا : { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ - مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ - سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ - وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ - فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ } (١) .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، مُؤَدِّيًا إلَى قَوْمِهِ النَّصِيحَةَ عَلَى مَا يَلْقَى مِنْهُمْ مِنْ التَّكْذِيبِ وَالأَذَى (وَالاسْتِهْزَاءِ) . وَكَانَ عُظَمَاءُ الْمُسْتَهْزِئِينَ خَمْسَةَ نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي أَسْنَانٍ وَشَرَفٍ فِي قَوْمِهِمْ . مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيّ بْنِ كِلابٍ : الأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَسَدٍ أَبُو زَمْعَةَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فِيمَا بَلَغَنِي - قَدْ دَعَا عَلَيْهِ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ أَذَاهُ وَاسْتِهْزَائِهِ بِهِ فَقَالَ : (**اللَّهُمَّ أَعْمِ بَصَرَهُ وَأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ**) ، وَمِنْ بَنِي زُهْرَةَ بْنِ كِلابٍ : الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ بْنِ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ . وَمِنْ بَنِي مَخْزُومِ بْنِ يَقَظَةَ بْنِ مُرَّةَ : الْوَلِيدُ ابْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ . وَمِنْ بَنِي سَهْمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هُصَيْصِ ابْنِ كَعْبٍ : الْعَاصُ بْنُ وَائِلِ بْنِ هِشَامٍ ، وَمِنْ بَنِي خُزَاعَةَ : الْحَارِثُ بْنُ الطُّلاطِلَةِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ عَمْرِو بْنِ (لُؤَيّ بْنِ) مَلَكَانَ ، فَلَمَّا تَمَادَوْا فِي الشَّرّ وَأَكْثَرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الاسْتِهْزَاءَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ - إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ - الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

(١) سورة المسد .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١) } (٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَى جَزُورٍ فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ : أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ - أَوْ - أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ**) شُعْبَةُ الشَّاكُّ ، فَرَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ غَيْرَ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ أَوْ أُبَيٍّ تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبِئْرِ (٣).

وعنه ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى (٤) جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، وَأَنَا أَنْظُرُ لَا أُغْنِي شَيْئًا ، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ . قَالَ : فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ ، حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ : (**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ**) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ .

قَالَ : وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ ، ثُمَّ سَمَّى : (**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ**

---

(١) سورة الحجر . الآيات (٩٤ : ٩٦) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/١٨١ ، ٢/٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري في المناقب / بَاب : مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ ٤/٢٣٩ ، وفي الوضوء / بَاب : إِذَا أُلْقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْمُصَلِّي قَذَرٌ أَوْ جِيفَةٌ لَمْ تَفْسُدْ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ ١/ ٦٥ ، وفي الجزية / بَاب : طَرْحِ جِيَفِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْبِئْرِ وَلَا يُؤْخَذُ لَهُمْ ثَمَنٌ ٤/ ٧١ ، ومسلم في الجهاد والسير / بَاب : مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ٣/ ١٤١٨ ، ١٤١٩ ح ١٧٩٤ .

(٤) السَّلَى: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد ، وهما : سَلَيان ، وجمعه: أسلاء . العين . مادة : سلى .

بِأَبِي جَهْلٍ وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ ابْنِ أَبِي مُعَيْطٍ) وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ ، قَالَ : فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ (١).

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلالٍ) (٢) .

وعن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ : سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ ؟ قَالَ : بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ ابْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : { أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ } (٣) الآيَةَ (٤) .

وَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ : شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ : أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟ قَالَ : (كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ ، فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا

---

(١) أخرجاه في المواضع السابقة .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة / بعد بَاب : مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الْحَوْضِ ٤/ ٥٥٦ ح ٢٤٧٢ ، وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غريب ، وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ هَارِبًا مِنْ مَكَّةَ وَمَعَهُ بِلالٌ إِنَّمَا كَانَ مَعَ بِلالٍ مِنْ الطَّعَامِ مَا يَحْمِلُهُ تَحْتَ إِبْطِهِ.

(٣) سورة غافر : من الآية (٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً ٤/ ١٩٧ ، وفي بَاب : مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ ٤/ ٢٤٠ ، وفي التفسير / تفسير سورة غافر ٦/ ٣٤ ، ٣٥ .

يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) (١) .
قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ عَدَوْا عَلَى مَنْ أَسْلَمَ ، وَاتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ فَوَثَبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَّرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ وَبِرَمْضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرّ ، مَنْ اُسْتُضْعِفُوا مِنْهُمْ يَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ يُفْتَنُ مِنْ شِدَّةِ الْبَلاَءِ الَّذِي يُصِيبُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُبُ لَهُمْ وَيَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ .

وَكَانَ بَلاَلٌ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، لِبَعْضِ بَنِي جُمَحٍ مُوَلَّدًا مِنْ مُوَلَّدِيهِمْ وَهُوَ بَلاَلُ بْنُ رَبَاحٍ ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّهِ حَمَامَةَ ، وَكَانَ صَادِقَ الإِسْلاَمِ ، طَاهِرَ الْقَلْبِ ، وَكَانَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفِ بْنِ وَهْبِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ جُمَحٍ يُخْرِجُهُ إِذَا حَمِيَتْ الظَّهِيرَةُ فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالصَّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَتُوضَعَ عَلَى صَدْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : (لاَ وَاللَّهِ) لاَ تَزَالُ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ، فَيَقُول وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَلاَءِ أَحَدٌ أَحَدٌ . حَتَّى مَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ (ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ) ﷺ يَوْمًا ، وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ بِهِ وَكَانَتْ دَارُ أَبِي بَكْرٍ فِي بَنِي جُمَحٍ فَقَالَ لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ أَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذَا الْمِسْكِينِ ؟ حَتَّى مَتَى ؟ قَالَ أَنْتَ الَّذِي أَفْسَدْتَه فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَفْعَلُ عِنْدِي غُلاَمٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى ، عَلَى دِينِك ، أُعْطِيكَهُ بِهِ ، قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ فَقَالَ هُوَ لَك . فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ غُلاَمَهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ فَأَعْتَقَهُ .

وَكَانَتْ بَنُو مَخْزُوم يَخْرُجُونَ بِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَبِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ، وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ إِسْلاَمٍ إِذَا حَمِيَتْ الظَّهِيرَةُ ، يُعَذِّبُونَهُمْ بِرَمْضَاءِ مَكَّةَ ، فَيَمُرُّ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَقُول ، فِيمَا بَلَغَنِي : (صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّة) فَأَمَّا أُمُّهُ فَقَتَلُوهَا ، وَهِيَ تَأْبَى إِلاَّ الإِسْلاَمَ (٢).

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب / باب : عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ ٤/ ١٧٩ ، ١٨٠ ، بَاب : مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنْ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ ٤/ ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، وفي الإكراه/ بَاب : مَنْ اخْتَارَ الضَّرْبَ وَالْقَتْلَ وَالْهَوَانَ عَلَى الْكُفْرِ ٨/ ٥٦ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٢، ١٦٣ بتصرف يسير .

- هجزة المسلمين إلى الحبشة
- فضل أصحاب الهجرتين

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

وجد الرسول ﷺ تعنت قريش له ولمن اتبعه من المسلمين ، وأن هذا الموقف يشكل حجر عثرة في طريق الدعوة إلى الله تعالى ، فأشار عليهم بالهجرة ، ولكن إلى أين ؟ ومن سيجيرهم ويمنعهم من بطش قريش وحزبها ، فكر الرسول ﷺ في الأمر فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وبنى هذا الاختيار على أمر سليم وهو أن ملكها النجاشي لا يظلم عنده أحد ، لما كان يتصف به هذا الملك من دماثة الخلق ، ورجحان عقله ، وكان على دين النصرانية ، فهو أقرب مودة إلى الإسلام وأهله ، وثبت أنه أسلم وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب فيما بعد .

فَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ : (**مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ**) (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَعَى لَهُمْ النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الْحَبَشَةِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَقَالَ : (**اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ**) (٢) .

" وهاجر المسلمون للحبشة بعد أن تعرضوا في بلادهم للأذى والمتاعب ، وكانوا يقصدون بهذه الهجرة الإعلان بالعمل على رفض الذل ، والرغبة في النجاة بالدين من

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : مَوْتُ النَّجَاشِيِّ ٤/ ٢٤٦ ، وفي الجنائز / بَاب : التَّكْبِيرِ عَلَى الْجَنَازَةِ أَرْبَعًا ٢/٩١، ومسلم في الجنائز / بَاب : فِي التَّكْبِيرِ عَلَى الْجَنَازَةِ ٢/ ٦٥٧ ح ٩٥٢ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الجنائز / بَاب : الرَّجُلِ يَنْعَى إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ بِنَفْسِهِ ٢/٧١ ، وبَاب : الصُّفُوفِ عَلَى الْجَنَازَةِ ٢/٨٨ ، وبَاب : الصَّلاَةِ عَلَى الْجَنَائِزِ بِالْمُصَلَّى وَالْمَسْجِدِ ٢/ ٩٠ ، وبَاب : التَّكْبِيرِ عَلَى الْجَنَازَةِ أَرْبَعًا ٢/ ٩١ ، وفي المناقب / بَاب : مَوْتُ النَّجَاشِيِّ ٤/ ٢٤٦ ، ومسلم في الجنائز / بَاب : فِي التَّكْبِيرِ عَلَى الْجَنَازَةِ ٢/ ٦٥٦ ، ٦٥٧ ح ٩٥١ .

وجه الخطر ، وترك البيئة التي لا تحقق لأهلها الأمن ، ولا تحفظ لهم سلامة العقيدة ، وإذا لم تكن الهجرة من الوطن ظاهرة جديدة فعلها المسلمون لأول مرة في بلاد العرب ، إلا أن هجرتهم من مكة كانت ظاهرة فريدة من نوعها ، لأنهم لم يهاجروا طلباً لشيء من وسائل العيش المتاحة في المواطن الأخرى كما كان يفعل مواطنوهم العرب طول التاريخ ، وإنما هاجروا فراراً بالعقيدة لأول مرة في تاريخ العرب ، ومن التحولات الجديدة على العرب أن يصبحوا أصحاب عقيدة روحية ، وأن يقبلوا ترك أوطانهم من أجلها ، وبعد أن كان العرب أو أكثرهم لا يهتمون بالعقائد الدينية ومظاهرها ، ولا يشغلهم شيء إلا أن يعيشوا في الدنيا بطريقتهم الخاصة ، ولا يهمهم من الدين إلا أن يكون بعض الظواهر المعروفة في بيئتهم – أصبحوا بالإسلام شعباً آخر ، فآمنوا بعقيدة دينية يمكن أن يبيعوا أنفسهم في سبيلها .

واختار المسلمون أرض الحبشة – مع رسول الله ﷺ – عند هجرتهم لأنها لم تكن خاضعة لسلطان خارجي يؤثر بالضرر على حياتهم فيها ، وكان حاكمها راهباً مسيحياً، لا يظلم الناس عنده ، ثم كان لصفته الدينية متحمساً لمعارضة سلطان الوثنية التي يؤيدها الفرس المجوس في بلاد العرب ، ولم يكن عربياً يحمل في قلبه الحقد على ظهور الرسول بين قومه ، أو نقول إن الحبشة كانت أقرب الملاجئ الآمنة لتحقيق حاجة المسلمين من الهجرة إليها ، وليس فيها خطر عليهم لبعدها عن التأثر بالتيارات المتعارضة في بلاد العرب ، وبدا أن حاكم الحبشة كان إنساناً واعياً لحقيقة الإسلام منذ ظهوره ، وكانت له بالرسول الكريم علاقة قريبة كأنهما كانا صديقين يلتقيان دائماً حول الأمور المشتركة بينهما " (١) .

ولقد حمى جوارهم ، وكان لهم معيناً على قريش ، وقاموا في بلده في عزة ومنعة ، لا يصل إليهم أحد بسوء .

---

(١) عصر الرسالة . د. على حبيبه . ص : ٢١١ . بتصرف يسير .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا يُصِيبُ أَصْحَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعَافِيَةِ بِمَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ وَمِنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَمْنَعَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ ، قَالَ لَهُمْ : (**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**) فَخَرَجَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، مَخَافَةَ الْفِتْنَةِ وَفِرَارًا إِلَى اللَّهِ بِدِينِهِمْ ، فَكَانَتْ أَوَّلَ هِجْرَةٍ كَانَتْ فِي الْإِسْلَامِ .

فَكَانَ جَمِيعُ مَنْ لَحِقَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَهَاجَرَ إِلَيْهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ سِوَى أَبْنَائِهِمُ الَّذِينَ خَرَجُوا بِهِمْ مَعَهُمْ صِغَارًا وَوُلِدُوا بِهَا ، ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا ، إِنْ كَانَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فِيهِمْ وَهُوَ يُشَكُّ فِيهِ .

وَحَمِدُوا جِوَارَ النَّجَاشِيِّ ، وَعَبَدُوا اللَّهَ لَا يَخَافُونَ عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا ، وَقَدْ أَحْسَنَ النَّجَاشِيُّ جِوَارَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِهِ (١) .

إرسال قريش في طلب من هاجر إلى الحبشة :

لم تهنأ قريش بما فعله الرسول ﷺ وأصحابه ، فقررت إيفاد من يأتي لها بهؤلاء الذين فروا بدينهم لحمايته ونشره في أرض الحبشة ، ومن هنا اتخذت المعركة شكلاً جديداً وهو الصد عن الدعوة ، ومهاجمة المسلمين في أي بلد يذهبون إليه ، وإن كلفهم هذا الكثير والكثير .

ونفذوا هذا الأمر بمكر وخدعة ، فحملوا الهدايا للنجاشي وأتباعه ، ذلك لاعتقادهم أن للمال سحره على النفوس ، فهي مجبولة على حبه ، لكن إذا استقر الدين في القلب ، استقر معه العدل والإنصاف ، وهذا ما حدث مع النجاشي .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٤/١ : ١٧٠ بتصرف .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمِنُوا وَاطْمَأَنُّوا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ، وَأَنَّهُمْ قَدْ أَصَابُوا بِهَا دَارًا وَقَرَارًا ، ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوا فِيهِمْ مِنْهُمْ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ جَلْدَيْنِ إِلَى النَّجَاشِيِّ ، فَيَرُدَّهُمْ عَلَيْهِمْ لِيَفْتِنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ وَيُخْرِجُوهُمْ مِنْ دَارِهِمْ الَّتِي اطْمَأَنُّوا بِهَا وَأَمِنُوا فِيهَا ؛ فَبَعَثُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ وَجَمَعُوا لَهُمَا هَدَايَا لِلنَّجَاشِيِّ وَلِبَطَارِقَتِهِ ثُمَّ بَعَثُوهُمَا إِلَيْهِ فِيهِمْ (١) .

روى الإمام أحمد بسنده عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا ، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لاَ نُؤْذَى ، وَلاَ نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الأَدَمُ ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا ، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا (٢) إِلاَّ أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً ، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا لَهُمَا : ادْفَعُوا إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ ، قَالَتْ : فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلاَّ دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ ، ثُمَّ قَالاَ لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لاَ نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا وَلاَ يُكَلِّمَهُمْ ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا لَهُمَا : نَعَمْ ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا ، ثُمَّ كَلَّمَاهُ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٧١ .

(٢) البطْرِيقُ بلغة أهل الشام والروم هو القَائدُ معرّب وجمعه بطَارِقَة ، وهو الحاذق بالحَرْب وأمورها بلغة الرُّوم وهو ذو منْصب . لسان العرب . مادة : بطرق .

فقالاَ لَهُ : أيُّهَا الْمَلِكُ إنَّهُ قَدْ صَبَا إلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لاَ نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ ، وَقَدْ بَعَثَنَا إلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا ، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ ، قَالَتْ : وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلاَمَهُمْ . فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ : صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا ، فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَى بِلاَدِهِمْ وَقَوْمِهِمْ ، قَالَ : فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ : لاَ هَا اللَّهِ . أَيْمُ اللَّهِ . إِذَنْ لاَ أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا ، وَلاَ أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي وَنَزَلُوا بِلاَدِي وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ ، حَتَّى أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ ؟ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولاَنِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا ، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا ، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ ، مَا جَاوَرُونِي . قَالَتْ : ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَقُولُ : وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ ، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَمَّا جَاءُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ : مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلاَ فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَمِ ؟ قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ لَهُ : **أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ ، وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ ، مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَالأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ ، وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ ، قَالَ : فَعَدَّدَ**

عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ ، فَصَدَّقْنَاهُ ، وَآمَنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا ، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : نَعَمْ . فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كهيعص ، قَالَتْ : فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ(١) حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ(٢) حِينَ سَمِعُوا مَا تَلاَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ : إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ ، انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لاَ أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا ، وَلاَ أُكَادُ ، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : وَاللَّهِ لأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ ، ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ ، قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا : لاَ تَفْعَلْ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا ، قَالَ : وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ ، قَالَتْ : ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا . فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ . قَالَتْ : فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ ؟ قَالَتْ : وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ ؟ قَالُوا: نَقُولُ : وَاللَّهِ فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ : لَهُمْ مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا هُوَ : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

---

(١) الأُسْقُفُ : رأس من رؤوس النصارى، ويجمع أساقفة . العين . مادة : سقف .

(٢) سُمِّيَ المُصْحَفُ مُصْحَفاً لأنه أُصْحِفَ ، أي جُعِلَ جامعاً للصُحُف المكتوبة بين الدَّفَّتَيْن . العين . مادة : صحف . والمقصود به هنا كتابهم المقدس الذي يقرأون منه ، كأن يكون إنجيلاً أو غيره .

الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ ، قَالَتْ : فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمَّ قَالَ : مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ ، فَقَالَ : وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللَّهِ ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي ، وَالسُّيُومُ : الآمِنُونَ ، مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ ، وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ : الْجَبَلُ ، رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا ، فَلاَ حَاجَةَ لَنَا بِهَا ، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي ، فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ ، قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ يَعْنِي مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، فَيَأْتِيَ رَجُلٌ لاَ يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ ، قَالَتْ : وَسَارَ النَّجَاشِيُّ وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النِّيلِ ، قَالَتْ : فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِيَنَا بِالْخَبَرِ ، قَالَتْ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ : أَنَا . قَالَتْ : وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًّا ، قَالَتْ : فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ ، قَالَتْ : وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ ، وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلاَدِهِ ، وَاسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ (١) .

ثم إن هذه الهجرة تكررت مرتين ، وذلك أنهم سمعوا أن أهل مكة دخلوا في دين الإسلام أفواجاً فسرهم ذلك فانطلقوا قافلين إلى مكة ، وما أن وصلوا إليها لم يجدوا الخبر صحيحاً فرجعوا آسفين إلى الحبشة .

" غاد من هاجر إلى الحبشة ليباغت بأن الاضطهاد الواقع على الإسلام أحد وأشد ،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٠١/١ : ٢٠٣ من حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ وسنده حسن .

فدخل بعضهم مكة مستجيراً بمن يعرف من كبرائها ، وتوارى الآخرون .

لكن قريشاً أبت إلا أن تنكل بالقادمين ، وأن تغرى سائر القبائل بمضاعفة الأذى للمسلمين . فلم ير الرسول ﷺ بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة . وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها . بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، فخرج منهم في هذا الفوج ثلاثة وثمانون رجلاً وتسع عشرة امرأة ، ويسر الله لهم السفر ، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة ، ووجدوا عنده ما يبغون من أمان وطيب جوار وكرم وفادة .

والظاهر أن هذا النجاشي كان رجلاً راشداً نظيف العقل ، حسن المعرفة لله ، سليم الاعتقاد في عيسى عبد الله ورسوله ﷺ . وكانت مرونة فكره سر المعاملة الجميلة التي وفرها لأولئك اللاجئين إلى مملكته ، فارين بدينهم من الفتن " (١) .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَبَلَغَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ خَرَجُوا إلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، إسْلاَمُ أَهْلِ مَكّةَ ، فَأَقْبَلُوا لِمَا بَلَغَهُمْ مِنْ ذَلِكَ حَتّى إذَا دَنَوْا مِنْ مَكّةَ ، بَلَغَهُمْ أَنّ مَا كَانُوا تَحَدّثُوا بِهِ مِنْ إسْلاَمِ أَهْلِ مَكّةَ كَانَ بَاطِلاً ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلاّ بِجِوَارٍ أَوْ مُسْتَخْفِيًا ، فَكَانَ مِمّنْ قَدِمَ عَلَيْهِ مَكّةَ مِنْهُمْ فَأَقَامَ بِهَا حَتّى هَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ ، فَشَهِدَ مَعَهُ بَدْرًا وَأُحُدًا وَمَنْ حُبِسَ عَنْهُ حَتّى فَاتَهُ بَدْرٌ وَغَيْرُهُ وَمَنْ مَاتَ بِمَكّةَ (٢) .

روى ابن سعد بسنده عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : لما قدم أصحاب النبي ﷺ ، مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديداً ، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى ، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم ، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا ؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) فقه السيرة لفضيلة الشيخ . محمد الغزالي . ص : ١٢١ .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٨٨/١

(**أنتم مهاجرون إلى الله وإلي ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً**) ، قال عثمان : فحسبنا يا رسول الله ، وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية ، وسبع غرائب ، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار، فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثماني نسوة ، فمات منهم رجلان بمكة ، وحبس بمكة سبعة نفر ، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلاً ، فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، وبعث به مع عمرو بن أمية الضمري ، فلما قرئ عليه الكتاب أسلم وقال : لو قدرت أن آتيه لأتيته ، وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت فيمن هاجر إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش ، فتنصر هناك ومات ، فزوجه النجاشي إياها وأصدق عنه أربعمائة دينار، وكان الذي ولي تزويجها خالد بن سعيد بن العاص ، وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه ويحملهم ، ففعل وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري ، فأرسلوا بهم إلى ساحل بَوْلا وهو الجار، ثم تكاروا الظهر حتى قدموا المدينة فيجدون رسول الله ﷺ بخيبر، فشخصوا إليه فوجدوه قد فتح خيبر، فكلم رسول الله ﷺ المسلمين أن يدخلوهم في سهمانهم ففعلوا (١) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٢٠٧ ، ٢٠٨ .

فضل أصحاب الهجرتين :

نال أصحاب الهجرتين فضلاً عظيماً ، إذ لبوا نداء رسول الله ﷺ لهم بالهجرة ، وتركوا الولد والمال ، والوطن ، فتركوا كل عزيز ، وكل غال ونفيس ، وذلك في سبيل حفظ دينهم ، وطاعة الله ورسوله ﷺ .

ومما يدل على فضلهم وأنهم خرجوا طاعة لله ورسوله ﷺ ما رواه البخاري ومسلم بسنديهما عَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : بَلَغَنَا مَخْرَجُ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ ، فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ ، أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمْ ، أَحَدُهُمَا : أَبُو بُرْدَةَ ، وَالآخَرُ : أَبُو رُهْمٍ – إِمَّا قَالَ بِضْعٌ – وَإِمَّا قَالَ فِي ثَلاثَةٍ وَخَمْسِينَ ، أَوْ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي ، فَرَكِبْنَا سَفِينَةً فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا ، فَوَافَقْنَا النَّبِيَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ (١) ، وَكَانَ أُنَاسٌ مِنْ النَّاسِ يَقُولُونَ لَنَا يَعْنِي لأَهْلِ السَّفِينَةِ : سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ ، وَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ وَهِيَ مِمَّنْ قَدِمَ مَعَنَا عَلَى حَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ زَائِرَةً ، وَقَدْ كَانَتْ هَاجَرَتْ إِلَى النَّجَاشِيِّ فِيمَنْ هَاجَرَ ، فَدَخَلَ عُمَرُ عَلَى حَفْصَةَ وَأَسْمَاءُ عِنْدَهَا ، فَقَالَ عُمَرُ حِينَ رَأَى أَسْمَاءَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَتْ : أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ قَالَ عُمَرُ : الْحَبَشِيَّةُ هَذِهِ ! الْبَحْرِيَّةُ هَذِهِ ! قَالَتْ أَسْمَاءُ : نَعَمْ . قَالَ : سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ فَنَحْنُ أَحَقُّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكُمْ ، فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ: كَلاَّ وَاللَّهِ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ ، وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ ، وَكُنَّا فِي دَارِ أَوْ فِي أَرْضِ الْبُعَدَاءِ الْبُغَضَاءِ بِالْحَبَشَةِ وَذَلِكَ فِي اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ ﷺ ، وَأَيْمُ اللَّهِ لاَ أَطْعَمُ طَعَامًا ، وَلاَ أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى أَذْكُرَ مَا قُلْتَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَنَحْنُ كُنَّا نُؤْذَى وَنُخَافُ ، وَسَأَذْكُرُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، وَأَسْأَلُهُ وَاللَّهِ لاَ أَكْذِبُ وَلاَ أَزِيغُ وَلاَ أَزِيدُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ عُمَرَ قَالَ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : (فَمَا قُلْتِ لَهُ ؟) قَالَتْ: قُلْتُ لَهُ : كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : (**لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ**) قَالَتْ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا مُوسَى وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ يَأْتُونِي

---

(١) وكانت غزوة خيبر وفتحها سنة سبع من الهجرة المباركة .

أَرْسَالاً يَسْأَلُونِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، مَا مِنْ الدُّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلاَ أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا قَالَ لَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ (١) .

تغيير الخطة :

وأقصد بذلك تغيير قريش لخطة حربها مع الرسول ﷺ وأصحابه ، فلما فشلت في إقناع النجاشي بتسليم المهاجرين إلى يد قريش ، ووجدوا أن المسلمين صار لديهم حجة قوية في إقناع خصمهم ، وأن ذلك يهدد معتقدهم الوثني ، فأخذوا يفكرون في حرب أخرى ينقضون بها أمر الدين الجديد ، وكان في هذه الخطة : إضعاف لقوة المسلمين الجسدية والمعنوية ، وذلك بحصارهم وحصرهم في شعب أبى طالب ، ثانياً : العمل على تطهيرهم عرقياً ، فقد منعوا عنهم الطعام والشراب وفي ذلك هلاكاً لهم ، إلا أن الله سبحانه لهم بالمرصاد .

قال ابن القيم عن قريش لما أبى النجاشي تسليم المهاجرين من المسلمين لهم قال : فَرَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ ، فَاشْتَدَّ أَذَاهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَصَرُوهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ فِي الشِّعْبِ ، شِعْبِ أَبِي طَالِبِ ثَلاَثَ سِنِينَ ، وَقِيلَ : سَنَتَيْنِ ، وَخَرَجَ مِنْ الْحَصْرِ وَلَهُ تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَقِيلَ: ثَمَانٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَبَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْهُرٍ مَاتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ وَلَهُ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً (٢) .

وروى محمد بن سعد بسنده عن ابن عباس وعاصم بن عمر بن قتادة وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وجبير بن مطعم دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا : لما بلغ قريشاً فعل النجاشي لجعفر وأصحابه وإكرامه إياهم كبر

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المغازي / بَاب : غَزْوَة خَيْبَرَ ٥/٧٩ ، ٨٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب : مِنْ فَضَائِلِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ وَأَهْلِ سَفِينَتِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٤/١٩٤٦ ح ٢٥٠٢ .

(٢) زاد المعاد لابن القيم ١/٢٤ .

ذلك عليهم ، وغضبوا على رسول الله ﷺ وأصحابه وأجمعوا على قتل رسول الله ﷺ وكتبوا كتاباً على بني هاشم ألا يناكحوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم ، وكان الذي كتب الصحيفة : منصور بن عكرمة العبدري فشلت يده ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، وقال بعضهم : بل كانت عند أم الجلاس بنت مخربة الحنظلية خالة أبي جهل وحصروا بني هاشم في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة : سبع من حين تنبيء رسول الله ﷺ ، وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبه مع بني هاشم ، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بني هاشم وبني المطلب ، وقطعوا عنهم الميرة والمادة ، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغهم الجهد ، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب ، فمن قريش من سره ذلك ، ومنهم من ساءه ، وقال : أنظروا ما أصاب منصور بن عكرمة ، فأقاموا في الشعب ثلاث سنين ، ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم ، وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم ، وبقي ما كان فيها من ذكر الله عز وجل (١) .

قال ابن هشام : وذكر بعض أهل العلم : أن رسول الله ﷺ قال لأبي طالب : (يا عم إن ربي الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتان) فقال : أربك أخبرك بهذا ؟ قال : نعم قال : فوالله ما يدخل عليك أحد ثم خرج إلى قريش فقال : يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شراً . فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا .

وقد كان أبو جهل بن هشام – فيما يذكرون – لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله ﷺ

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠٨/١

ومعه في الشعب فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال : ما لك وله ؟ فقال : يحمل الطعام إلى بني هاشم فقال له أبو البختري : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ له أبو البختري لحي بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطأ شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم ، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً و سراً وجهاراً ، مبادياً بأمر الله ، لا يتقي فيه أحداً من الناس (١) .

هذا وقد أثر حصار الكفار للنبي ﷺ وأهله في كسبهم ومعاشهم ، وقد أنفقوا كل ما يملكون ، يقول الأستاذ : محمد رشيد رضا : فأقاموا في الشعب ثلاث سنين حتى أنفق رسول الله ﷺ ماله ، وأنفق أبو طالب ماله ، وأنفقت خديجة مالها ، وصاروا إلى حد الضر والفاقة (٢) .

وتعاون من في الشعب بعضهم مع بعض حتى مرت مدة الحصار ، والتي ذكر العلماء أنها كانت ثلاث سنين ، مع ما فيها من ضيق وشدة وجوع .

يؤيد ذلك ما نقله السهيلي في الروض الأنف عن الزبير بن بكار وذكر ما أصاب المؤمنين مع رسول الله ﷺ في الشعب من ضيق الحصار لا يبايعون ولا يناكحون حيث قال : وكانوا إذا قدمت العير مكة ، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام لعياله ، فيقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار : غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئاً ، فقد علمتم ما لي ووفاء ذمتي ، فأنا ضامن أن لا خسارة عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً ، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس في يديه شيء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبي لهب

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٨١ ، ١٩٣ .
(٢) محمد ﷺ ص : ١٠٩ .

فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً (١) .

إن هذا الحصار الاقتصادي الذي فكر فيه كفار مكة ، أنهك المسلمين ومن معهم من بنى هاشم بن عبد مناف وبنى المطلب بن عبد مناف ، وهى فكرة خبيثة دبرت بليل ، ولا زالت تدبر من قبل اليهود لضرب الإسلام وأهله ، وجعلهم في فقر مدقع لا ينفكون عنه ، ومع ذلك يصفونهم بصفات تحط من قدرهم ، وتقلل من شأنهم ، ولكن الله سبحانه ناصر دينه بإذنه وحوله وقوته ، (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (٢) .

إن الشدائد مهمة في عمر أي أمة فهي التي تمحص الرجال ، وتربيهم على الصبر والجلد ، وتزيدهم شدة وإسراراً على المبدأ الذي يحاربون عليه ويعذبون من أجله .

وهذه الشدة زادت من عزم الصحابة على الوقوف بجانب رسول الله ﷺ ، وبذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الله . كما زادت من عزم عصبته في الوقوف بجانبه دفاعاً عنه ، وحمية لقبيلته من أن تنالها القبائل الأخرى بالسوء والأذى .

" فهذه القطعة الظالمة ، تصور قمة الشدة التي لقيها النبي ﷺ وأصحابه طوال ثلاثة أعوام ، وقد رأيت أن المشركين من بنى هاشم وبنى المطلب شاركوا المسلمين في تحملها ، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله ﷺ .

وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا ، فقد كان الذي دفعهم

---

(١) الروض الأنف ١/١٧٩ .
(٢) سورة الأنفال : آية (٣٠) .

إليه حمية القرابة والرحم ، وإباء الذل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم خلـوا بـين محمد ﷺ ومشركي قريش من غير بني هاشم وبني المطلب يقتلونه ويفتكون به ، بقطع النظر عن العقيدة والدين ، فقد آثروا إذن أن يجمعوا بين رغبتـين فـي صـدورهم : الأولى : الثبات على الشرك والاستكبار على الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ .

الثانية : الانصياع للحمية التي تدعو إلى حماية القريب من بطشة الغريب وظلمـه ، بحق كان أو بباطل .

أما المسلمون ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ فإنما صبرهم على ذلك الانصياع لأمر الله وإيثار الآخرة على الدنيا ، وهوان الدنيا عندهم فـي جنـب مرضـاة الله عـز وجل"(١) .

شبهة والرد عليها :

قال بعض المشككين من محترفي الغزو الفكري : " إن عصبية بني هاشم وبنـي المطلب كانت تكمن خلف دعوة محمد ﷺ ، وكانت تحوطها بالرعاية والحفظ ، والدليل على ذلك موقفهم السلبي من مشركي قريش في مقاطعتهم للمسلمين " وإنها لمغالطـة مكشوفة ، لأن من الطبيعي أن تقود الحمية الجاهلية بني المطلب وبني هاشم إلى الذود عن حياة ابن عم لهم ، عندما تتهددها يد غريبة ، ويدنو إليها بالسوء شخص دخيـل . والحمية إذ تدفع ذوي القرابة إلى مثل هذا التعصب ، لا تنظر إلى مبدأ ، ولا تتأثر في ذلك بحق أو بباطل ، وإنما هي العصبية ولا شيء غير العصبية . ولـذلك أمكـن أن يجتمع في ذوي قرباه ﷺ صفتان متناقضتان بحسب الظاهر ، الاستكبار على دعوتـه والجحود بها ، والانتصار له ضد سائر المشركين من قريش . ومع ذلك فـأي فائـدة حققوها للنبي ﷺ من وراء اعتصامهم معه ؟ لقد أوذوا كمـا أوذي هـو وأصـحابه ،

---

(١) فقه السيرة النبوية / د : محمد سعيد رمضان البوطي . ص : ٨٧ . ط / دار السلام القاهرة .

ومضت قريش في قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم وبنو المطلب من غلوائهما شيئاً . أما رسول الله ﷺ وأصحابه فما الذي كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق ؟ وأي غاية كانوا يأملونها من وراء الثبات على الشدة ؟ . بماذا يجيب على هذا السؤال ، أولئك الذين يتأولون رسالة محمد ﷺ وإيمان أصحابه بها على أنها ثورة يسار ضد يمين ، أي ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين ؟

لقد عرض المشركون على محمد ﷺ الملك والثراء والزعامة ، على أن يتخلى عن الدعوة إلى الإسلام ، فلماذا لم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك ؟ ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه ؟ وإن غايتهم الشبع بعد الجوع كي يقبل بعرض قريش ؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشيء أكثر من الحكم يكون في أيديهم والمال في جيوبهم ؟ .

ولقد قوطع محمد ﷺ ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بني قومه ، فلم تترك سلعة تتسلل إلى أيديهم ، ولم يترك طعام يدخل إلى بيوتهم ، حتى راحوا يأكلون ورق الشجر ، وهم على ذلك صابرون ، محدقون برسولهم عليه الصلاة والسلام . أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش ؟ (١) .

---

(١) فقه السيرة النبوية / د : محمد سعيد رمضان البوطي . ص : ٨٧ ، ٨٩ . بتصرف .

- عام الحزن
- خروجه إلى الطائف
- معجزة الإسراء والمعراج
- حول معجزة الإسراء والمعراج
- موقف قريش من معجزة الإسراء
- الحكمة في الإسراء قبل المعراج
- الحكمة في الإسراء

عام الحزن :

أتى العام العاشر من بعثة النبي ﷺ بأحداث لم تكن متوقعة ، ولم تكن في الحسبان ، إذ في هذا العام يفقد النبي ﷺ نصيرين عزيزين في حياته ، كانا دائماً يدافعان عنه .

أحدهما : زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها ، أول من آمنت بـه وصـدقته وواسته بمالها ، ووالدة أبناءه ، والتي زُمل ودُثر في بيتها ، وكانت نعم المعين له على دعوته .

والثاني : عمه أبو طالب الذي كفله بعد موت جده ، ودافع عنـه ، وصـد عنـه قريش وزجرهم ونهرهم ، على الرغم من بقاءه على وثنيتهم ، فهاتان المصيبتان أثقلت العبء على الرسول ﷺ ، وجعلته يعتمد على نفسه في الفترة القادمة ، بعد أن كانـت خديجة رضي الله عنها تواسيه من الداخل ، وأبو طالب يواسيه من الخارج .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثُمّ إِنّ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ وَأَبَا طَالِبٍ هَلَكَا فِي عَامٍ وَاحِدٍ فَتَتَابَعَتْ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ الْمَصَائِبُ بِهُلْكِ خَدِيجَةَ ، وَكَانَتْ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ عَلَى الإِسْلَامِ يَشْكُو إلَيْهَا ، وَبِهُلْكِ عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ ، وَكَانَ لَهُ عَضُدًا وَحِرْزًا فِي أَمْرِهِ ، وَمَنَعَةً وَنَاصِرًا عَلَى قَوْمِهِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ مُهَاجَرِهِ إلَى الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِ سِنِينَ . فَلَمّا هَلَكَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُـرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنْ الأَذَى مَا لَمْ تَكُنْ تَطْمَعُ بِهِ فِي حَيَاةِ أَبِي طَالِبٍ ، حَتّى اعْتَرَضَـهُ سَفِيهٌ مِنْ سُفَهَاءِ قُرَيْشٍ ، فَنَثَرَ عَلَى رَأْسِهِ تُرَابًا . قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَحَدّثَنِي هِشَامُ بْـنُ عُرْوَةَ ، عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ بْنِ الزّبَيْرِ ، قَالَ لَمّا نَثَرَ ذَلِكَ السّفِيهُ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللّـهِ ﷺ ذَلِكَ التّرَابَ دَخَلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بَيْتَهُ وَالتّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَامَتْ إلَيْهِ إحْـدَى بَنَاتِـهِ فَجَعَلَتْ تَغْسِلُ عَنْهُ التّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي ، وَرَسُولُ اللّهِ ﷺ يَقُولُ لَهَا : (**لَا تَبْكِي يَا بُنَيّـةُ فَإِنّ اللّهَ مَانِعٌ أَبَاك**) . قَالَ : وَيَقُولُ بَيْنَ ذَلِكَ : (**مَا نَالَتْ مِنّي قُرَيْشٌ شَـيْئًا أَكْرَهُـهُ حَتّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ**) (١) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٢١/١

خروجه إلى الطائف :

تطبيقاً لمبدأ عالمية الإسلام خرج الرسول ﷺ إلى الطائف ، فكانت تلك الرحلة أول إنذار له بالرسالة خارج مكة ، وذلك بعد أن صده أهلها وظاهروه بالعداء ، وخاصة بعد موت عمه ، فلم يجد مناصاً من البحث عن بديل يجد فيه بغيته ويهتدى به إلى ضالته ، ولكن عصبة الشرك فرضت حصاراً آخر على تلك العالمية ، حتى يكتب لها الخفاء وتظل طي الكتمان وبذلك نالت قريش ما لم تنله من النجاشي الذي صدها ودافع عن أصحاب الرسول ﷺ ، وأكرم نزلهم ، وحمى جوارهم .

ولكن الناظر إلى الطائف يجد أنها لا تبعد كثيراً عن مكة في الطباع وفي المعتقد ، فأهل الطائف أهل أوثان ، وطباع أهلها الجفاء كأهل مكة في هذا الوقت ، بالإضافة إلى العلاقات التي كانت تربط بينهما ، فهم في طريق تجارة قريش إلى اليمن ، وكانت تربطهم مصاهرات ومشاركات ، وكانوا على اتصال دائم ، وذلك كما حدث مع النبي ﷺ لما ذهب إليهم ، وذلك بتحريض من أهل مكة .

" ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف حيث تقطن ثقيف والتي تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلا ، سارها محمد ﷺ على قدميه جيئة وذهوباً ، فلما انتهى إليها ، قصد نفر من رجالاتها الذين ينتهى إليهم أمرها ، ثم كلمهم في الإسلام ، ودعاهم إلى الله ، فردوه جميعاً رداً منكراً ، وأغلظوا له الجواب ، ومكث عشرة أيام يتردد على منازلهم دون جدوى " (١) .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَلَمَّا هَلَكَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الأَذَى مَا لَمْ تَكُنْ تَنَالُ مِنْهُ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الطَّائِفِ ، يَلْتَمِسُ النُّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ ، وَالْمَنَعَةَ بِهِمْ مِنْ قَوْمِهِ ، وَرَجَاءَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَحْدَهُ .

---

(١) فقه السيرة لفضيلة الشيخ . محمد الغزالي . ص : ١٣٣

فَلَمّا انتَهَى إلَى الطّائفِ ، عَمَدَ إلَى نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ ، هُمْ يَوْمَئذٍ سَادَةُ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافُهُمْ وَهُمْ إخْوَةٌ ثَلاثَةٌ عَبْدُ يَالَيْل بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ ، وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عُقْدَةَ بْنِ غِيرَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفٍ ، وَعِنْدَ أَحَدِهِمْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جُمَحٍ ، فَجَلَسَ إلَيْهِمْ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ إلَى اللّهِ ، وَكَلّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى الإِسْلامِ ، وَالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ : هُوَ يَمْرُطُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إنْ كَانَ اللّهُ أَرْسَلَك ، وَقَالَ الآخَرُ : أَمَا وَجَدَ اللّهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَك ؟ وَقَالَ الثّالِثُ : وَاَللّهِ لاَ أُكَلّمُك أَبَدًا . لَئِنْ كُنْتَ رَسُولاً مِنْ اللّهِ كَمَا تَقُولُ لأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْك الْكَلامَ ، وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى اللّهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلّمَك . فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِهِمْ وَقَدْ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ – فِيمَا ذُكِرَ لِي – : إذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنّي ، وَكَرِهَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ عَنْهُ فَيُذْئِرَهُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ . فَلَمْ يَفْعَلُوا ، وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسُبّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ حَتّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النّاسُ ، وَأَلْجَئُوهُ إلَى حَائِطٍ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَهُمَا فِيهِ وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سُفَهَاءِ ثَقِيفٍ مَنْ كَانَ يَتْبَعُهُ فَعَمَدَ إلَى ظِلّ حَبَلَةٍ مِنْ عِنَبٍ فَجَلَسَ فِيهِ . وَابْنَا رَبِيعَةَ يَنْظُرَانِ إلَيْهِ وَيَرَيَانِ مَا لَقِيَ مِنْ سُفَهَاءِ أَهْلِ الطّائِفِ ، وَقَدْ لَقِيَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ – فِيمَا ذُكِرَ لِي – الْمَرْأَةَ الّتِي مِنْ بَنِي جُمَحٍ فَقَالَ لَهَا : مَاذَا لَقِينَا مِنْ أَحْمَائِك ؟ فَلَمّا اطْمَأَنّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ قَالَ – فِيمَا ذُكِرَ لِي – : (**اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلاَ أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك ، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوّةَ إلاّ بِك**) قَالَ : فَلَمّا رَآهُ ابْنَا رَبِيعَةَ ، عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ وَمَا لَقِيَ تَحَرّكَتْ لَهُ رَحِمُهُمَا ، فَدَعَوْا غُلاَمًا لَهُمَا نَصْرَانِيّا ، يُقَالُ لَهُ : عَدّاسٌ ، فَقَالاَ لَهُ : خُذْ قِطْفًا مِنْ هَذَا الْعِنَبِ فَضَعْهُ فِي هَذَا الطّبَقِ ثُمّ اذْهَبْ بِهِ إلَى ذَلِكَ الرّجُلِ فَقُلْ لَهُ يَأْكُلْ مِنْهُ . فَفَعَلَ عَدّاسٌ

ثُمّ أَقْبَلَ بِهِ حَتّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللّهِ ﷺ ثُمّ قَالَ لَهُ : كُلْ فَلَمّا وَضَعَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فِيهِ يَدَهُ قَالَ : بِاسْمِ اللّهِ ، ثُمّ أَكَلَ فَنَظَرَ عَدّاسٌ فِي وَجْهِهِ ثُمّ قَالَ : وَاَللّهِ إنّ هَذَا الْكَلَامَ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ أَيّ الْبِلَادِ أَنْتَ يَا عَدّاسُ وَمَا دِينُك ؟ قَالَ نَصْرَانِيّ ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نِينَوَى ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (**مِنْ قَرْيَةِ الرّجُلِ الصّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتّى**) ، فَقَالَ لَهُ عَدّاسٌ : وَمَا يُدْرِيك مَا يُونُسُ بْنُ مَتّى ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (**ذَاكَ أَخِي ، كَانَ نَبِيّا وَأَنَا نَبِيّ**) ، فَأَكَبّ عَدّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ يُقَبّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ ، قَالَ يَقُولُ ابْنَا رَبِيعَةَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَمّا غُلَامُك فَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْك . فَلَمّا جَاءَهُمَا عَدّاسٌ قَالَا لَهُ : وَيْلَك يَا عَدّاسُ مَالَكَ تُقَبّلُ رَأْسَ هَذَا الرّجُلِ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ ؟ قَالَ يَا سَيّدِي مَا فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ خَيْرٌ مِنْ هَذَا ، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بِأَمْرِ مَا يَعْلَمُهُ إلّا نَبِيّ ، قَالَا لَهُ : وَيْحَك يَا عَدّاسُ ، لَا يَصْرِفَنّك عَنْ دِينِك ، فَإِنّ دِينَك خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ (١).

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ فَقَالَ : (**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ . قَالَ : فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**) (٢) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٣/١ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في بدء الخلق / باب : ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ ٨٣/٤ ، ومسلم في الجهاد والسير / باب : مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ١٤٢٠/٣ ، ١٤٢١ ح ١٧٩٥ .

شرح الحديث :

ومعنى قَوْلُهُ : (ابْن عَبْد يَالِيلَ) بِتَحْتَانِيَّةٍ وَبَعْد الأَلِف لاَم مَكْسُورَة ثُـمَّ تَحْتَانِيَّـة سَاكِنَة ثُمَّ لاَم . (ابْن عَبْد كُلاَلٍ) بِضَمِّ الْكَاف وَتَخْفِيف اللاَّم وَآخره لاَم وَاسْمه : كِنَانَة، وَالَّذِي فِي الْمَغَازِي أَنَّ الَّذِي كَلَّمَهُ هُوَ عَبْد يَالِيلَ نَفْسه ، وَعِنْد أَهْل النَّسَب أَنَّ عَبْد كُلاَلٍ أَخُوهُ لاَ أَبُوهُ ، وَأَنَّهُ عَبْد يَالِيلَ بْن عَمْرو بْن عُمَيْر بْن عَوْف ، وَيُقَال اِسْم اِبْـن عَبْـد يَالِيلَ: مَسْعُود ، وَلَهُ أَخ أَعْمَى لَهُ ذِكْر فِي السِّيرَة فِي قَذْف النُّجُوم عِنْد الْمَبْعَث النَّبَوِيّ ، وَكَانَ اِبْن عَبْد يَالِيلَ مِنْ أَكَابِر أَهْل الطَّائِف مِنْ ثَقِيف ، وَقَدْ رَوَى عَبْد بْن حُمَيْـد فِـي تَفْسِيره مِنْ طَرِيق اِبْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله تَعَالَى : (عَلَى رَجُـلٍ مِـنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (١) .

قَالَ : نَزَلَتْ فِي عُتْبَة بْن رَبِيعَة وَابْن عَبْد يَالِيلَ الثَّقَفِيّ ، وَمِنْ طَرِيق قَتَادَةَ قَـالَ : هُمَا : الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة وَعُرْوَة بْن مَسْعُود ، وَرَوَاهُ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ وَجْه آخَر عَـنْ مُجَاهِد وَقَالَ فِيهِ : يَعْنِي كِنَانَة ، وَرَوَى الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق السُّدِّيِّ قَالَ : هُمَا الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَة وَكِنَانَة بْن عَبْد بْن عَمْرو بْن عُمَيْر عَظِيم أَهْل الطَّائِف .

وَقَدْ ذَكَرَ مُوسَى بْن عُقْبَة وَابْن إِسْحَاق أَنَّ كِنَانَة بْن عَبْد يَالِيلَ وَفَدَ مَعَ وَفْد الطَّائِف سَنَة عَشْر فَأَسْلَمُوا ، وَذَكَرَهُ اِبْن عَبْد الْبَرّ فِي الصَّحَابَة لِذَلِكَ ، لَكِنْ ذَكَـرَ الْمَـدِينِيّ أَنَّ الْوَفْد أَسْلَمُوا إِلاَّ كِنَانَة فَخَرَجَ إِلَى الرُّوم وَمَاتَ بِهَا بَعْد ذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَم . وَذَكَرَ مُوسَى بْن عُقْبَة فِي الْمَغَازِي عَنْ اِبْن شِهَاب أَنَّهُ ﷺ لَمَّا مَاتَ أَبُو طَالِب تَوَجَّهَ إِلَـى الطَّـائِف رَجَاء أَنْ يُؤْوُوهُ ، فَعَمَدَ إِلَى ثَلاَثَة نَفَر مِنْ ثَقِيف وَهُمْ سَادَتهمْ وَهُمْ إِخْوَة : عَبْد يَالِيـلَ ، وَحَبِيب ، وَمَسْعُود ، بَنُو عَمْرو فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسه وَشَكَا إِلَيْهِمْ مَا اِنْتَهَكَ مِنْهُ قَوْمـه ،

(١) سورة الزخرف : آية (٣١).

فَرَدُّوا عَلَيْهِ أَقْبَحَ رَدّ ، وَكَذَا ذَكَرَهُ ابْن إِسْحَاق بِغَيْرِ إِسْنَاد مُطَوَّلاً ، وَذَكَرَ ابْن سَعْد أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي شَوَّال سَنَة عَشْر مِنْ الْمَبْعَث وَأَنَّهُ كَانَ بَعْد مَوْت أَبِي طَالِب وَخَدِيجَة قَوْلُهُ : (**عَلَى وَجْهِي**) أَيْ عَلَى الْجِهَة الْمُوَاجِهَة لِي .

قَوْلُهُ : (**بِقَرْنِ الثَّعَالِب**) هُوَ مِيقَات أَهْل نَجْد وَيُقَال لَهُ قَرْن الْمَنَازِل أَيْضًا ، وَهُوَ عَلَى يَوْم وَلَيْلَة مِنْ مَكَّة ، وَقَرْن كُلّ جَبَل صَغِير مُنْقَطِع مِنْ جَبَل كَبِير ، وَحَكَى عِيَاض أَنَّ بَعْض الرُّوَاة ذَكَرَهُ بِفَتْحِ الرَّاء قَالَ : هُوَ غَلَط ، وَحَكَى الْقَابِسِيّ أَنَّ مَنْ سَكَّنَ الرَّاء أَرَادَ الْجَبَل وَمَنْ حَرَّكَهَا أَرَادَ الطَّرِيق الَّتِي بِقُرْب مِنْهُ ، وَأَفَادَ ابْن سَعْد أَنَّ مُدَّة إِقَامَته ﷺ بِالطَّائِفِ كَانَتْ عَشَرَة أَيَّام .

قَوْلُهُ : (**مَلَك الْجِبَال**) أَيْ الْمُوَكَّل بِهَا .

قَوْلُهُ : (**الْأَخْشَبَيْنِ**) بِالْمُعْجَمَتَيْنِ هُمَا جَبَلَا مَكَّة : أَبُو قُبَيْس وَالَّذِي يُقَابِلهُ وَكَأَنَّهُ : قُعَيْقِعَان ، وَمَالَ الصَّغَانِيّ بَلْ هُوَ الْجَبَل الْأَحْمَر الَّذِي يُشْرِف عَلَى قُعَيْقِعَان ، وَوَهَمَ مَنْ قَالَ هُوَ ثَوْر كَالْكَرْمَانِيّ ، وَسُمِّيَا بِذَلِكَ لِصَلَابَتِهِمَا وَغِلَظ حِجَارَتهمَا ، وَالْمُرَاد بِإِطْبَاقِهِمَا أَنْ يَلْتَقِيَا عَلَى مَنْ بِمَكَّة ، وَيُحْتَمَل أَنْ يُرِيد أَنَّهُمَا يَصِيرَانِ طَبَقًا وَاحِدًا .

وَفِي هَذَا الْحَدِيث : بَيَان شَفَقَة النَّبِيّ ﷺ عَلَى قَوْمه ، وَمَزِيد صَبْره وَحِلْمه ، وَهُوَ مُوَافِق لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) (١) وَقَوْله : (وَمَا أَرْسَلْنَاك إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ(٢)) (٣) .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٥٩) .

(٢) سورة الأنبياء : آية (١٠٧) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٦٣/٦ ، ٣٦٤ بتصرف

معجزة الإسراء والمعراج :

" يقصد بالإسراء الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس . ويقصد بالمعراج ما عقب هذه الرحلة من ارتفاع في طباق السماوات حتى الوصول إلى مستوى تنقطع عنده علوم الخلائق ولا يعرف كنهه أحد. ثم الأوبة بعد ذلك إلى المسجد الحرام بمكة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى كلتا الرحلتين في سورتين مختلفتين . وذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (١) .

وذكر قصة المعراج وثمرته بقوله : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى - عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى - عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى - إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى - مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى - لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) (٢) .

فتعليل الإسراء كما نصت الآية أن الله يريد أن يُرى عبده بعض آياته . ثم أوضحت آيات المعراج أن الرسول ﷺ شهد بالفعل بعض هذه الآيات الكبرى " (٣) .

وقد ثبتت أيضاً معجزة الإسراء والمعراج بالسنة الصحيحة فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : **(أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ ، قَالَ : فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، قَالَ**

---

(١) سورة الإسراء : آية (١) .

(٢) سورة النجم : الآيات (١٣: ١٨) .

(٣) فقه السيرة للشيخ / محمد الغزالي ١٣٦ ، ١٣٧ .

فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ ، قَالَ : ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ .

قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ . ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ .

قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ .

قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ﷺ . قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ ﷺ إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ .

قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . قَالَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا }(١) ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ .

قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ﷺ قِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ .

قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا

---

(١) سورة مريم : آية (٥٧) .

فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ . فَقِيلَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : جِبْرِيلُ .

قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ﷺ قِيلَ : وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ . فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ ﷺ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ . ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السِّدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلاَلِ . قَالَ : فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى ، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَقَالَ : مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ ؟ قُلْتُ : خَمْسِينَ صَلاَةً . قَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ : يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقُلْتُ : حَطَّ عَنِّي خَمْسًا ، قَالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذَلِكَ . فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ . قَالَ : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى ﷺ حَتَّى قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، لِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلاَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، قَالَ : فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَقَالَ : ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ : قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ (١) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في التوحيد / باب : قوله : { وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا }(النساء :١٦٤) ٢٠٣/٨ ، ٢٠٤ ، وفي الصلاة / بَاب : كَيْفَ فُرِضَتْ الصَّلَاةُ فِي الإِسْرَاءِ ٩١/١ ، ٩٢ وهنا رواه أنس عن أبي ذر رضي الله عنهما ، وفي بدء الخلق / باب : ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ ٧٧/٤ ، ٧٨ وفي المناقب / بَاب : الْمِعْرَاجِ ٢٤٨/٤ ، ٢٤٩ وهنا رواه عن مالك بن صعصعة ، ومسلم واللفظ له في الإيمان / بَاب : الإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ ١/ ١٤٥: ١٤٧ ح ١٦٢ .

حول معجزة الإسراء والمعراج :

تبدت بعض الحكم في معجزة الإسراء والمعراج ، وأخذ العلماء يستجلون ذلك ويبحثون عنه .

فعن الحكمة من إسراءه ﷺ من بيت الله الحرام بمكة إلى بيت المقدس بفلسطين ثم عروجه من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى :

يقول الحافظ ابن حجر : رَوَى كَعْب الأَخْبَار أَنَّ بَاب السَّمَاء الَّذِي يُقَال لَهُ : مصْعَد الْمَلَائِكَة يُقَابِل بَيْت الْمَقْدِس ، فَأَخَذَ مِنْهُ بَعْض الْعُلَمَاء أَنَّ الْحِكْمَة فِي الإِسْرَاء إِلَى بَيْت الْمَقْدِس قَبْل الْعُرُوج لِيَحْصُل الْعُرُوج مُسْتَوِيًا مِنْ غَيْر تَعْوِيج ، وَفِيهِ نَظَر ، لِوُرُود أَنَّ فِي كُلّ سَمَاء بَيْتًا مَعْمُورًا ، وَأَنَّ الَّذِي فِي السَّمَاء الدُّنْيَا حِيَال الْكَعْبَة ، وَكَانَ الْمُنَاسِب أَنْ يَصْعَد مِنْ مَكَّة لِيَصِل إِلَى الْبَيْت الْمَعْمُور بِغَيْرِ تَعْوِيج ، لأَنَّهُ صَعِدَ مِنْ سَمَاء إِلَى سَمَاء إِلَى الْبَيْت الْمَعْمُور ، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْره مُنَاسَبَات أُخْرَى ضَعِيفَة فَقِيلَ الْحِكْمَة فِي ذَلِكَ أَنْ يَجْمَع ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَة بَيْن رُؤْيَة الْقِبْلَتَيْنِ ، أَوْ لأَنَّ بَيْت الْمَقْدِس كَانَ هِجْرَة غَالِب الأَنْبِيَاء قَبْله ، فَحَصَلَ لَهُ الرَّحِيل إِلَيْهِ فِي الْجُمْلَة ، لِيَجْمَع بَيْن أَشْتَات الْفَضَائِل ، أَوْ لأَنَّهُ مَحَلّ الْحَشْر وَغَالِب مَا اِتَّفَقَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَة يُنَاسِب الأَحْوَال الأُخْرَوِيَّة ، فَكَانَ الْمِعْرَاج مِنْهُ أَلْيَق بِذَلِكَ ، أَوْ لِلتَّفَاؤُل بِحُصُول أَنْوَاع التَّقْدِيس لَهُ حِسًّا وَمَعْنًى ، أَوْ لِيَجْتَمِع بِالأَنْبِيَاءِ جُمْلَة ، وَالْعِلْم عِنْد اللَّه .

وهل كان الإسراء والمعراج بالجسد والروح معاً أو بالروح فقط أو بالجسد فقط ؟

قال الحافظ : قَدْ اِخْتَلَفَ السَّلَف بِحَسَبِ اِخْتِلَاف الأَخْبَار الْوَارِدَة : فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الإِسْرَاء وَالْمِعْرَاج وَقَعَا فِي لَيْلَة وَاحِدَة فِي الْيَقَظَة بِجَسَدِ النَّبِيّ ﷺ وَرُوحه بَعْد الْمَبْعَث ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْجُمْهُور مِنْ عُلَمَاء الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاء وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَتَوَارَدَتْ عَلَيْهِ ظَوَاهِر الأَخْبَار الصَّحِيحَة ، وَلاَ يَنْبَغِي الْعُدُول عَنْ ذَلِكَ ، إِذْ لَيْسَ فِي الْعَقْل مَا

يُحيلهُ حتَّى يَحتَاج إلَى تَأوِيل (١) .

وعن تفصيل هذا الخلاف يقول القاضي عياض : ثم اختلف السلف والعلماء هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات :

١- فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح وأنه رؤيا منام مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي وإلى هذا ذهب معاوية وحكى عن الحسن والمشهور عنه خلافه وإليه أشار محمد بن إسحاق وحجتهم قوله تعالى : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) (٢) وما حكوا عن عائشة رضي الله عنها ما فقدت جسد رسول الله ﷺ وقوله : (**بينا أنا نائم**) وقول أنس : (**وهو نائم في المسجد الحرام**) وذكر القصة ثم قال في آخرها (**فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام**) .

٢- وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد والروح ، وفى اليقظة وهذا هو الحق وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبى هريرة ومالك ابن صعصعة وأبى حبة البدرى وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن المسيب وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج وهو دليل قول عائشة وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

٣- وقالت طائفة كان الإسراء بالجسد يقظة من المسجد الحرام إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح واحتجوا بقوله تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٢٣٦ ، ٢٣٧ بتصرف يسير .

(٢) سورة الإسراء : آية (٦٠) .

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبي محمد ﷺ به وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .

قال القاضي : والحق من هذا والصحيح إن شاء الله ـ إنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة إذ لو كان مناما لقال : بروح عبده و لم يقل : { بِعَبْدِهِ } وقوله تعالى : { مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى } (١) ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر بل لم يكن منهم ذلك إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس ـ أو في السماء على ما روي غيره وذكر مجيء جبريل له بالبراق وخبر المعراج واستفتاح السماء فيقال : من معك ؟ فيقول : محمد ولقائه الأنبياء فيها وخبرهم معه وترحيبهم به وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك (٢) .

فالإسراء بجسد النبي ﷺ وروحه جائز عقلاً والله قادر على جميع الممكنات ، والحركة السريعة على النحو الذي حدثت به معجزة الإسراء ممكنة في نفسها ، فالقمر الصناعي يسير بسرعة ١٨ ألف ميل في الساعة ، وبلغت سرعة الصواريخ ٢٦ألف كم في الساعة أي أنها تقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس في بضع دقائق ، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لقوى البشر ، أفتعجز عنه قوة خالق القوى والقدر ؟ (٣) .

---

(١) سورة النجم : آية (١٧) .

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١٤٧ .

(٣) دراسات في السيرة التحليلية . أ. د . إبراهيم عبد الحميد سلامة ٩٦ ، ٩٧ .

قال الفخر الرازي : جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام : { غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ } [سبأ :١٢] بل نقول : الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة ، وذلك أيضاً يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة .

كما دل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى : { قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل : ٤٠] وإذا كان ممكناً في حق بعض الناس ، علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود (١) .

وخلاصة أدلة الجمهور تتمثل فيما يلي :

١- قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) (٢) والعبد لا يطلق إلا على الروح والجسد معاً بدليل قوله : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى – عَبْداً إِذَا صَلَّى) (٣) وقوله : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) (٤) .

(١) تفسير القرآن الكريم المسمى (بمفاتيح الغيب) للرازي ١١٩/٢٠ .
(٢) سورة الإسراء : آية (١) .
(٣) سورة العلق : آية (٩، ١٠) .
(٤) سورة الجن : آية (١٩) .

٢- أفادت الروايات الكثيرة الصحيحة أن النبي ﷺ حمل على البراق ، والذي يحمل على البراق هو البدن جسداً وروحاً ، وليس الروح فقط .

٣- أن معنى الإسراء في اللغة هو السير ليلاً والسير حقيقة مادية ينتقل فيها الإنسان من مكان إلى آخر ، ولو كان الإسراء رؤيا منامية لكان يسيراً على الله أن يقول: سبحان الذي أرى عبده في المنام كذا وكذا

٤- أنه تعالى قد استهل الآية الكريمة التي حكت معجزة الإسراء بكلمة (سبحان) التي تشعر أن الإسراء كان أمراً عجيباً وخارقاً للعادة ، ومخالفاً لمألوفات البشر، ولا يكون شيء من ذلك إذا كان مناماً فقط أو بالروح فقط ، فتعين أن يكون بالروح والجسد .

٥- قوله : (مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) يفيد أن الرسول ﷺ قطع مسافة من مكة على بيت المقدس ، والمسافة الحسية لا يقطعها إلا الجسم والروح معاً .

٦- قوله تعالى في قصة المعراج : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) (١) من سورة النجم ، يؤيد ما ذكرناه لأن البصر من آلات الذات لا الروح ن فلا يتصور زيغ البصر وطغيانه إلا إذا كان صاحبه في حالته البشرية ، أي جسداً وروحاً .

٧- لو كان هذا الحادث العظيم مناماً ، لما كان آية ولا معجزة ولما كان فتنة لضعفاء الإيمان ، الذين ارتدوا بسببه ، ولما استنكرته قريش واستبعدته وشنعت على محمد بسببه .

---

(١) سورة النجم : آية (١٧).

أما من ذهبوا إلى أن الإسراء والمعراج كانا بالروح فقط أو رؤيا منامية فقد احتجوا بقوله : (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) (١) وبما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :(**مَا فُقِدَ جَسَدُ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَسْرَى بِرُوحِهِ**) (٢) والحق أن احتجاجهم هذا غير مسلم ، لأن الآية الكريمة على ما ذكره أئمة المفسرين ليست واردة في قصة الإسراء ، وإنما في شأن الرؤيا التي رآها الرسول قبل صلح الحديبية ، وهى التي أشار القرآن إليها بقوله : (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ) (٣) فلما قبل الرسول الصلح أصاب الناس غم وبلاء شديدين واشتد الأمر على المسلمين حتى قال عُمَرُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ؟ أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ ؟ قَالَ : بَلَى . قَالَ : فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ (٤) أما المنافقون فقد سخروا من النبي ﷺ وتهكموا به لعدم تحقق الرؤيا ، وقال زعيمهم : والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام .

على أن في الآية نفسها ما يمنع احتجاج هؤلاء بها لأنها تقرر أن تلك الرؤيا كانت فتنة للناس ، فأي فتنة في رؤيا منامية يحدث صاحبها أنه ذهب على بلدة قريبة أو بعيدة وشاهد هنالك ما شاهد ، إنما تكون الفتنة حيث تكون الأخبار بأن مسراه كان

---

(١) سورة الإسراء : آية (٦٠) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٣ .

(٣) سورة الفتح : آية (٢٧) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في / باب : الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ ٣/١٧٨ ، ١٧٩ ، وفي الجزية / باب : إِثْمِ مَنْ عَاهَدَ ثُمَّ غَدَرَ ٤/٧٠ ، وفي التفسير / باب : قَوْلِهِ : { إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ } ٦/ ٤٥ ، ومسلم في الجهاد والسير / باب : صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ ٣/ ١٤١١ ، ١٤١٢ح ١٧٨٥ عن سهل بن حنيف ﷺ

بروحه وجسمه معاً وفي حال يقظته ، وذلك هو الحق ، والذي لا ينبغي العدول عنه ، وإنما عبر الله بالرؤيا لوقوع ذلك المرئي بالليل وسرعة تقضيه حتى لكأنه في المنام ، ولأن الرؤيا والرؤية يستعمل كل منهما موضع الآخر كقربه وقربى .

وأما حديث عائشة فموضوع ، والصحيح المنقول عنها أنها كانت توافق الجمهور على أنه كان بالروح والجسد معاً ، وكان والدها أول المصدقين به ، حيث قال عند سماعه بخبر الإسراء والمعراج : إني لأصدقه في أكثر من هذا إني لأصدقه في خبر السماء ، أي الوحي ، فضلاً على أن الرواية تحمل دليل كذبها ، لأن عائشة وقت الإسراء لم تكن زوجاً لرسول الله ﷺ (١) .

موقف قريش من معجزة الإسراء :

كعادة قريش مع رسول الله ﷺ يقابلون أمره بالاستهزاء ، والسخرية ، فما بالك إذا حدثهم أنه ذهب إلى بيت المقدس في جزء من الليل ، ومن ثم عرج به إلى السماء ، ثم عاد ونام في فراشه ، لا زال يقرع أسماعهم ، ويوجه نظهرهم ، وينبه عقولهم ، بأنه ليس بشراً عادياً مثلهم ، بل رسول من قبل الله إليهم يوحى إليه ، ويؤيد بالمعجزات الخارقة ، ولكنهم مع ذلك يصرون على التكذيب والجحود والنكران .

ولو كان عندهم مسكة عقل وقدر من إيمان ما ترددوا في قبول خبره ، كما فعل أبوبكر الصديق ﷺ ، فقد صدقه من أول وهلة ، وقال : أصدقه في خبر السماء ، أفلا أصدقه في هذا ؟ إنها قوة الإيمان التي تمكنت شغاف قلبه .

يقول ابن إسحاق : ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ إلَى مَكّةَ ، فَلَمّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ الْخَبَرَ . فَقَالَ أَكْثَرُ النّاسِ : هَذَا وَاَللّهِ الإِمْرُ (٢) الْبَيّنُ ، وَاَللّهِ إنّ الْعِيرَ لَتُطْرَدُ شَهْرًا مِنْ مَكّةَ إلَى الشّامِ مُدْبِرَةً وَشَهْرًا مُقْبِلَةً ، أَفَيَذْهَبُ ذَلِكَ مُحَمّدٌ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ

(١) دراسات في السيرة التحليلية . أ. د . إبراهيم سلامة ٩٧ : ١٠٠ بتصرف يسير .

(٢) أمر إمر أي : عجب . أساس البلاغة . مادة : أمر .

وَيَرْجِعُ إلَى مَكَّةَ ؟! قَالَ : فَارْتَدَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ كَانَ أَسْلَمَ ، وَذَهَبَ النَّاسُ إلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَقَالُوا لَهُ هَلْ : لَك يَا أَبَا بَكْرٍ فِي صَاحِبِك ، يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ . وَصَلَّى فِيهِ وَرَجَعَ إلَى مَكَّةَ . قَالَ فَقَالَ لَهُمْ أَبُو بَكْرٍ إنَّكُمْ تَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، فَقَالُوا : بَلَى ، هَا هُوَ ذَاكَ فِي الْمَسْجِدِ يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَاَللَّهِ لَئِنْ كَانَ قَالَهُ لَقَدْ صَدَقَ فَمَا يُعْجِبُكُمْ مِنْ ذَلِكَ فَوَاَللَّهِ إنَّهُ لَيُخْبِرُنِي أَنَّ الْخَبَرَ لَيَأْتِيهِ مِنْ اللَّهِ مِنْ السَّمَاءِ إلَى الْأَرْضِ فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ فَأُصَدِّقُهُ فَهَذَا أَبْعَدُ مِمَّا تَعْجَبُونَ مِنْهُ . ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى انْتَهَى إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ : أَحَدَّثْتَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَنَّك جِئْتَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ؟ قَالَ : (نَعَمْ) قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَصِفْهُ لِي ، فَإِنِّي قَدْ جِئْتَه – قَالَ الْحَسَنُ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**فَرُفِعَ لِي حَتَّى نَظَرْتُ إلَيْهِ**) – فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصِفُهُ لِأَبِي بَكْرٍ ، وَيَقُول أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ أَشْهَدُ أَنَّك رَسُولُ اللَّهِ كُلَّمَا وَصَفَ لَهُ مِنْهُ شَيْئًا ، قَالَ صَدَقْتَ أَشْهَدُ أَنَّك رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى إذَا انْتَهَى ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: (**وَأَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقُ**) فَيَوْمَئِذٍ سَمَّاهُ الصِّدِّيقَ (١) .

وعن تجلية الله سبحانه لبيت المقدس حتى نعته رسول الله ﷺ للمشركين ، وكان هذا معجزة جديدة لرسول الله ﷺ روى البخاري ومسلم بسنديهما عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (**لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ**) (٢) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (**لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا ، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ ٤/٢٤٧ ، ٢٤٨ ، وفي التفسير / بَاب : قَوْلِهِ : { أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} ٥/٢٢٤ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : ذِكْرِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ١/١٥٦ ح ١٧٠ .

مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، قَالَ : فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ الأَنْبِيَاءِ فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يُصَلِّي ، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ ، يَعْنِي نَفْسَهُ ، فَحَانَتْ الصَّلاةُ ، فَأَمَمْتُهُمْ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ الصَّلاةِ قَالَ قَائِلٌ: يَا مُحَمَّدُ هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ . فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلامِ) (١)

وعن ابن عباس ﷺ قال رسول الله ﷺ : " لما كان ليلة أسري بي ، وأصبحت بمكة فظعت بأمري ، وعرفت أن الناس مكذبي ، فقعد رسول الله ﷺ معتزلاً حزيناً ، فمر به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ : هل كان من شيء ؟ قال : **(نعم)**، قال : وما هو ؟ قال : **(إني أسري – بي الليلة)** ، قال : إلى أين ؟ قال : **(إلى بيت المقدس)** ، قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : **(نعم)** فلم يرد أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه ، قال : أتحدث قومك ما حدثتني إن دعوتهم إليك، قال : **(نعم)** ، قال : هيا يا معشر بني كعب بن لؤي هلم ، قال : فتنفضت المجالس فجاؤا حتى جلسوا إليهما فقال له : حدث قومك ما حدثتني ، قال رسول الله ﷺ : **(إني أسري بي الليلة)** ، قالوا : إلى أين ؟ قال : **(إلي بيت المقدس)** ، قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ ، قال : (نعم) ، قال : فبين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب زعم ، وقالوا : أتستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ ، قال : وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ، قال رسول الله ﷺ : **(فذهبت أنعت لهم ، فما زلت أنعت لهم وأنعت حتى التبس علي بعض النعت ، فجئ بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل– أو دار عقال – فنعته وأنا أنظر إليه)** ، فقال القوم : أما النعت فوالله قد أصاب (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان / بَاب : ذِكْرِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ١٥٦/١ ، ١٥٧ ح ١٧٢ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣١٢/٦ ح ٣١٧٠٠ وسنده حسن لذاته .

وعن المراد بتجلية البيت له يقول الحافظ ابن حجر : قِيلَ : مَعْنَاهُ كَشَفَ الْحُجُبِ بَيْنِي وَبَيْنه حَتَّى رَأَيْته ، وَيَحْتَمِل : أَنْ يُرِيد أَنَّهُ حُمِلَ إِلَى أَنْ وُضِعَ بِحَيْثُ يَرَاهُ ثُمَّ أُعِيد، كما في رواية ابن عباس السابقة ، وَهَذَا أَبْلَغ فِي الْمُعْجِزَة ، وَلَا اِسْتِحَالَة فِيهِ ، فَقَدْ أُحْضِرَ عَرْش بِلْقِيس فِي طَرْفَة عَيْن لِسُلَيْمَان ، وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُ أُزِيلَ مِنْ مَكَانه حَتَّى أُحْضِرَ إِلَيْهِ ، وَمَا ذَاكَ فِي قُدْرَة اللَّه بِعَزِيزٍ . وَوَقَعَ فِي حَدِيث أُمّ هَانِئ عِنْد اِبْن سَعْد **"فَخُيِّلَ لِي بَيْت الْمَقْدِس ، فَطَفِقْت أُخْبِرهُمْ عَنْ آيَاته "** فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُغَيَّرًا مِنْ قَوْله **"فَجَلَّى"** وَكَانَ ثَابِتًا اُحْتُمِلَ أَنْ يَكُون الْمُرَاد أَنَّهُ مُثِّلَ قَرِيبًا مِنْهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيره فِي حَدِيث " **رَأَيْت الْجَنَّة وَالنَّار** " وَتَأَوَّلَ قَوْله " **جِيءَ بِالْمَسْجِدِ** " أَيْ جِيءَ بِمِثَالِهِ (١) .

الحكمة في الإسراء قبل المعراج :

قَالَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة : الْحِكْمَة فِي الْإِسْرَاء إِلَى بَيْت الْمَقْدِس قَبْل الْعُرُوج إِلَى السَّمَاء : إِرَادَة إِظْهَار الْحَقّ لِمُعَانَدَةِ مَنْ يُرِيد إِخْمَاده ، لِأَنَّهُ لَوْ عُرِجَ بِهِ مِنْ مَكَّة إِلَى السَّمَاء لَمْ يَجِد لِمُعَانَدَةِ الْأَعْدَاء سَبِيلاً إِلَى الْبَيَان وَالْإِيضَاح ، فَلَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى بَيْت الْمَقْدِس سَأَلُوهُ عَنْ تَعْرِيفَات جُزْئِيَّات مِنْ بَيْت الْمَقْدِس كَانُوا رَأَوْهَا وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَآهَا قَبْل ذَلِكَ ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِهَا حَصَلَ التَّحْقِيق بِصِدْقِهِ فِيمَا ذَكَرَ مِنْ الْإِسْرَاء إِلَى بَيْت الْمَقْدِس فِي لَيْلَة ، وَإِذَا صَحَّ خَبَره فِي ذَلِكَ لَزِمَ تَصْدِيقه فِي بَقِيَّة مَا ذَكَرَهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَة فِي إِيمَان الْمُؤْمِن ، وَزِيَادَة فِي شَقَاء الْجَاحِد وَالْمُعَانِد (٢) .

الحكمة في الإسراء :

" كان حادث الإسراء والمعراج تكريماً من الله لنبيه ، وتسرية لهمه ، وتفريجاً لكربه ، وتثبيتاً لقلبه بعد أن تنكرت قبائل العرب لدعوته ، وجحدها القريب والبعيد ، فكانت هذه الرحلة السماوية لتمس قلبه الحزين ببرد الراحة ، وليشعر أنه تحت رعاية

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٢٤٠ بتصرف يسير .

(٢) نفسه .

ربه ، وأن عين الله ترعاه ، ولا عجب لقد رفعه ربه مكاناً علياً ، وقربه وكرمه وحباه ألطافاً وأفضالاً ، تعوضه ما فقده بموت الحبيب ، وما احتمله من تجهم العدو ، وخذلان القريب ، وفي ذلك درس لكل صاحب حق أن يتشبث به ، ويعمل على إعلانه، وعبرة لكل داع ومصلح يلتمس لدعوته النجاح ، ويرتاد لها أسباب التوفيق والفلاح " (١) .

(١) دراسات في السيرة التحليلية . أ. د . إبراهيم عبد الحميد سلامة ١٠٢ ، ١٠٣ .

- عرض الإسلام على قبائل العرب وإســـلام الأنصار
- استيثاق العباس للنبي ﷺ من الأنصار
- فضل الأنصار

عرض الإسلام على قبائل العرب وإسلام الأنصار :

تنكرت معظم قبائل العرب لدعوة الرسول ﷺ ، ورفضوها جملة وتفصيلاً ، وصاروا بذلك موالين لقريش التي كانت تهدد من يدخل هذا الدين بتهديدات هابها معظم قبائل العرب ، إلا أن الله سبحانه قيض لهذا الدين أناساً اصطفاهم لحمايته ، وقبول رسول الله ﷺ في بلدهم لتكون مركزاً للدولة الإسلامية ، وهؤلاء القوم هم الأنصار ، سكان يثرب – المدينة المنورة – فلما سمعوا بالنبي ﷺ ودعوته أيقنوا أن هذا هو النبي المرتقب الذي يهددهم به اليهود ، فلما تحققوا من صدقه في دعوته بادروا في الطلب إليه ، وعقدوا معه اتفاقاً مبرماً في ليلتين منفصلتين سميتا بليلة العقبة الأولى ، وليلة العقبة الثانية .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَلَمّا أَرَادَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ إظْهَارَ دِينِهِ وَإِعْزَازَ نَبِيّهِ ﷺ ، وَإِنْجَازَ مَوْعِدِهِ لَهُ خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فِي الْمَوْسِمِ الّذِي لَقِيَهُ فِيهِ النّفَرُ مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي كُلّ مَوْسِمٍ . فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ لَقِيَ رَهْطًا مِنْ الْخَزْرَجِ أَرَادَ اللّهُ بِهِمْ خَيْرًا . قَالَ لَهُمْ مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَفَرٌ مِنْ الْخَزْرَجِ ، قَالَ أَمِنْ مَوَالِي يَهُودَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلّمُكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى . فَجَلَسُوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إلَى اللّهِ عَزّ وَجَلّ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْإِسْلَامَ وَتَلَا عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ . قَالَ وَكَانَ مِمّا صَنَعَ اللّهُ بِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ أَنّ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ ، وَكَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ، وَكَانُوا هُمْ أَهْلَ شِرْكٍ وَأَصْحَابَ أَوْثَانٍ ، وَكَانُوا قَدْ غَزَوْهُمْ بِبِلَادِهِمْ ، فَكَانُوا إذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قَالُوا لَهُمْ : إنّ نَبِيّا مَبْعُوثٌ الْآنَ قَدْ أَظَلّ زَمَانُهُ ، نَتّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ . فَلَمّا كَلّمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ أُولَئِكَ النّفَرَ وَدَعَاهُمْ إلَى اللّهِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : يَا قَوْمِ تَعْلَمُوا وَاَللّهِ إنّهُ لَلنّبِيّ الّذِي تَوَعّدَكُمْ بِهِ يَهُودُ فَلَا تَسْبِقُنّكُمْ إلَيْهِ . فَأَجَابُوهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ بِأَنْ صَدّقُوهُ وَقَبِلُوا مِنْهُ مَا عَرَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْإِسْلَامِ وَقَالُوا : إنّا قَدْ تَرَكْنَا قَوْمَنَا ، وَلَا قَوْمَ بَيْنَهُمْ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالشّرّ مَا بَيْنَهُمْ فَعَسَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ اللّهُ بِك ، فَسَنَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فَنَدْعُوهُمْ إلَى أَمْرِك ، وَتَعْرِضُ عَلَيْهِمْ الّذِي أَجَبْنَاك إلَيْهِ مِنْ هَذَا الدّينِ ، فَإِنْ

يَجْمَعَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلاَ رَجُلَ أَعَزَّ مِنْك . ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَدْ آمَنُوا وَصَدَّقُوا (١) .

وعن الفضيلة والكرامة المرتقبة ، التي كانت تنتظر الأنصار ، فاستحقوها بجدارة يقول ابن القيم رحمه الله : أَقَامَ ﷺ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ ، يَدْعُو الْقَبَائِلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ ، أَنْ يُؤْوُوهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَلَهُمُ الْجَنَّةُ ، فَلَمْ تَسْتَجِبْ لَهُ قَبِيلَةٌ ، وَادَّخَرَ اللَّهُ ذَلِكَ كَرَامَةً لِلأَنْصَارِ ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِظْهَارَ دِينِهِ ، وَإِنْجَازَ وَعْدِهِ ، وَنَصْرَ نَبِيِّهِ ، وَإِعْلاَءَ كَلِمَتِهِ ، وَالانْتِقَامَ مِنْ أَعْدَائِهِ ، سَاقَهُ إِلَى الأَنْصَارِ لِمَا أَرَادَ بِهِمْ مِنَ الْكَرَامَةِ ، فَانْتَهَى إِلَى نَفَرٍ مِنْهُمْ سِتَّةٌ ، وَقِيلَ : ثَمَانِيَةٌ ، وَهُمْ يَحْلِقُونَ رُءُوسَهُمْ عِنْدَ عَقَبَةِ مِنًى فِي الْمَوْسِمِ ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، فاستجابوا لله ورسوله ورجعوا إلى الْمَدِينَةِ ، فَدَعَوْا قَوْمَهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى فَشَا فِيهِمْ ، وَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ وَفِيهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَأَوَّلُ مَسْجِدٍ قُرِئَ فِيهِ الْقُرْآنُ بِالْمَدِينَةِ مَسْجِدُ بَنِي زُرَيْقٍ ، ثُمَّ قَدِمَ مَكَّةَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهُمْ خَمْسَةٌ مِنَ السِّتَّةِ الأَوَّلِينَ ، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ مِنْهُمْ ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً وَامْرَأَتَانِ ، وَهُمْ أَهْلُ الْعَقَبَةِ الأَخِيرَةِ فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ ، فَتَرَحَّلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ إِلَيْهِمْ ، وَاخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، وَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَخَرَجُوا أَرْسَالاً مُتَسَلِّلِينَ أَوَّلُهُمْ فِيمَا قِيلَ : أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ الْمَخْزُومِيُّ ، وَقِيلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، فَقَدِمُوا عَلَى الأَنْصَارِ فِي دُورِهِمْ فَآوَوْهُمْ وَنَصَرُوهُمْ وَفَشَا الإِسْلاَمُ بِالْمَدِينَةِ (٢) .

كان عند الأنصار الجرأة الكافية لمعارضة نفوذ أهل مكة ، والاستعداد للوقوف منهم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢٢٨/٢ .

(٢) زاد المعاد ٢٤/١ ، ٢٥ .

موقف العناد والخصومة ، ولذلك لم ينتظروا مثل غيرهم ما تأتي به الأحداث بين الرسول وقومه ، فقبلوا دينه وتعهدوا بنصره والوقوف معه ، وإن تحدوا العالم حولهم أو تعرضت بلدهم للغارات العسكرية .

وكانوا يدركون أنهم سيحاربون أهل مكة كهدف عسكري ، كان في أول مراحل الكفاح الديني المطلوب منهم ، ثم يحاربون بقية العرب بعدهم حتى يؤمنوا بدعوة الإسلام المجيدة ، ثم يأتي بعدهم كل الناس الذين يتجرءون بمعارضة الإسلام والمسلمين ، ولم يشعروا بالاهتمام الزائد الذي كان غيرهم من العرب يمنحونه لأهل مكة ، وقد يكون هناك نوع من المنافسة الخفية بين سكان المدينتين الشهيرتين ، وربما كانت زيادة الاهتمام بالقرشيين تظهر بوضوح عند العرب الشماليين وحدهم ، أو عند البدو في الصحراء العربية ، وأما العرب الجنوبيون سكان المدن فكانت لهم إحساساتهم المتفوقة كيمنيين كانوا أقرب من غيرهم للتطور والمدنية ، وهذا يعنى وجود نوع من الانفصال العاطفي بينهم وبين القرشيين في مكة ، ولقد وجد هؤلاء بعد الإسلام الفرصة الطيبة للعمل المفيد الذي يظهرون به دورهم أمام العرب في كل مكان ، وإذا كان الرسول قرشياً فقد كان مع ذلك رسولاً لكل الناس ، ولقد أعطته هذه الصفة امتيازاً كبيراً لا يكون لأحد غيره ، فكان سيداً للمؤمنين برسالته قبل أن يكون واحداً من العرب الشماليين .

وكانت استجابة أهل المدينة للرسول إيجابية فلم يكتفوا بالحياة كمسلمين بين أهلهم الوثنيين بها ، ولو فعلوا ذلك لقاموا بما يقوم به العاجزون من الناس ، ولزادت بهم أعداء المسلمين المستضعفين في الأرض ، ولكنهم قدموا إلى الرسول ليلزموا أنفسهم بكل شروطه ، وليعرضوا عليه بعض الشروط الأخرى ، ولم يكن منها أن يكون لهم في مقابل تضحياتهم معه شيء من مكاسب الدنيا إلا رضاه والأمل في الثواب الأخير من الله بعد الموت (١) .

---

(١) عصر الرسالة . ص : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

استيثاق العباس للنبي ﷺ من الأنصار :

مات أبو طالب ، وأوصى العباس وحمزة وعدو الله أبا لهب ، وجميع قريش برسول الله ﷺ خيراً ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَنْتُمْ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ الْعَرَبِ ، فِيكُمْ السَّيِّدُ الْمُطَاعُ ، وَفِيكُمْ الْمُقَدَّمُ الشُّجَاعُ ، وَالْوَاسِعُ الْبَاعِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَمْ تَتْرُكُوا لِلْعَرَبِ فِي الْمَآثِرِ نَصِيبًا إلاّ أَحْرَزْتُمُوهُ ، وَلاَ شَرَفًا إلاّ أَدْرَكْتُمُوهُ ، فَلَكُمْ بِذَلِكُمْ عَلَى النَّاسِ الْفَضِيلَةُ ، وَلَهُمْ بِهِ إلَيْكُمْ الْوَسِيلَةُ ، وَالنَّاسُ لَكُمْ حِزْبٌ ، وَعَلَى حَرْبِكُمْ أَلْبٌ ، وَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَعْظِيمِ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ ، فَإِنّ فِيهَا مَرْضَاةً لِلرّبّ ، وَقِوَامًا لِلْمَعَاشِ ، وَثَبَاتًا لِلْوَطْأَةِ ، صِلُوا أَرْحَامَكُمْ وَلاَ تَقْطَعُوهَا ، فَإِنّ فِي صِلَةِ الرّحِمِ مَنْسَأَةً فِي الأَجَلِ ، وَسَعَةً فِي الْعَدَدِ ، وَاتْرُكُوا الْبَغْيَ وَالْعُقُوقَ ، فَفِيهِمَا هَلَكَةُ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ ، أَجِيبُوا الدّاعِيَ ، وَأَعْطُوا السّائِلَ ، فَإِنّ فِيهِمَا شَرَفَ الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ ، عَلَيْكُمْ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، فَإِنّ فِيهِمَا مَحَبّةً فِي الْخَاصّ ، وَمَكْرُمَةً فِي الْعَامّ ، وَإِنّي أُوصِيكُمْ بِمُحَمّدٍ خَيْرًا ، فَإِنّهُ الأَمِينُ فِي قُرَيْشٍ ، وَالصّدّيقُ فِي الْعَرَبِ ، وَهُوَ الْجَامِعُ لِكُلّ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ ، وَقَدْ جَاءَ بِأَمْرٍ قَبِلَهُ الْجَنَانُ ، وَأَنْكَرَهُ اللّسَانُ مَخَافَةَ الشّنَآنِ ، وَأَيْمُ اللّهِ كَأَنّي أَنْظُرُ إلَى صَعَالِيكِ الْعَرَبِ ، وَأَهْلِ الْبِرّ فِي الأَطْرَافِ والمستضعفين مِنْ النّاسِ قَدْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ ، وَصَدّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَعَظّمُوا أَمْرَهُ ، فَخَاضَ بِهِمْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ، فَصَارَتْ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ وَصَنَادِيدُهَا أَذْنَابًا ، وَدُورُهَا خَرَابًا ، وَضُعَفَاؤُهَا أَرْبَابًا ، وَإِذَا أَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ أَحْوَجُهُمْ إلَيْهِ ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنْهُ أَحْظَاهُمْ عِنْدَهُ ، قَدْ مَحَضَتْهُ الْعَرَبُ وِدَادَهَا ، وَأَصْفَتْ لَهُ فُؤَادَهَا ، وَأَعْطَتْهُ قِيَادَهَا ، دُونَكُمْ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ابْنَ أَبِيكُمْ ، كُونُوا لَهُ وُلاَةً ، وَلِحِزْبِهِ حُمَاةً ، وَاَللّهِ لاَ يَسْلُكُ أَحَدٌ مِنْكُمْ سَبِيلَهُ إلاّ رَشَدَ ، وَلاَ يَأْخُذُ أَحَدٌ بِهَدْيِهِ إلاّ سَعِدَ ، وَلَوْ كَانَ لِنَفْسِي مُدّةٌ وَلأَجَلِي تَأْخِيرٌ لَكَفَفْتُ عَنْهُ الْهَزَاهِزَ (١) وَلَدَافَعْت عَنْهُ الدّوَاهِيَ ثُمّ هَلَكَ (٢) .

إلا أن العباس وحمزة كانا أرق قلباً على رسول الله ﷺ من أبى لهب ، ونفذا

---

(١) الهزاهز الشدائد . العين . مادة : شد .

(٢) الروض الأنف ٢٠٣/١ .

وصية أبا طالب ، فأراد العباس ليلة العقبة الثانية أن يستوثق لابن أخيه ، حتى لا يظن الأنصار ، أن بنى هاشم تاركي محمداً وشأنه ، على الرغم من أن العباس كان في تلك البيعة على وثنيته إلا أنها وصية أخيه كما تقدم ، وحبه وشفقته على ابن أخيه ، كما أنها العصبية القبلية .

وفي هذه البيعة استوثق الرسول ﷺ أيضاً لنفسه من الأنصار ، واستوثق الأنصار لأنفسهم ، أن يكون لهم الرسول ﷺ بعد نصره على أعداءه وإظهاره عليهم ، فهم أولى الناس به ، وأحب الناس إلى قلبه .

روى ابْنُ إسْحَاقَ بسنده عن كَعْبَ بْنَ مَالِك قَالَ : خَرَجْنَا إلَى الْحَجّ وَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللّهِ ﷺ بِالْعَقَبَة مِنْ أَوْسَطِ أَيّامِ التّشْرِيقِ . قَالَ فَلَمّا فَرَغْنَا مِنْ الْحَجّ وَكَانَتْ اللّيْلَةُ الّتِي وَاعَدْنَا رَسُولَ اللّهِ ﷺ لَهَا ، وَمَعَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَوْ جَابِرٌ سَيّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، أَخَذْنَاهُ مَعَنَا ، وَكُنّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا ، فَكَلّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ يَا أَبَا جَابِرٍ إنّك سَيّدٌ مِنْ سَادَاتِنَا ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، وَإِنّا نَرْغَبُ بِك عَمّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنّارِ غَدًا ، ثُمّ دَعَوْنَاهُ إلَى الإِسْلاَمِ وَأَخْبَرْنَاهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ إيّانَا الْعَقَبَةَ . قَالَ : فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ ، وَكَانَ نَقِيبًا . قَالَ فَنِمْنَا تِلْكَ اللّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا ، حَتّى إذَا مَضَى ثُلُثُ اللّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمَعَادِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ نَتَسَلّلُ تَسَلّلَ الْقَطَا مُسْتَخْفِينَ حَتّى اجْتَمَعْنَا فِي الشّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، وَنَحْنُ ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلاً ، وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِنَا : نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمّ عُمَارَةَ إحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النّجّارِ ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيّ ابْنِ نَابِي ، إحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمّ مَنِيعٍ ، فَاجْتَمَعْنَا فِي الشّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ حَتّى جَاءَنَا وَمَعَهُ عَمّهُ الْعَبّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ إلاّ أَنّهُ أَحَبّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثّقَ لَهُ . فَلَمّا جَلَسَ كَانَ أَوّلَ مُتَكَلّمٍ الْعَبّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ – قَالَ وَكَانَتْ الْعَرَبُ إنّمَا يُسَمّونَ هَذَا الْحَيّ مِنْ الأَنْصَارِ : الْخَزْرَجَ ، خَزْرَجَهَا وَأَوْسَهَا – : إنّ مُحَمّدًا مِنّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا ، مِمّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، فَهُوَ فِي عِزّ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ،

وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلاَّ الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ فَمِنَ الآنَ فَدَعُوهُ ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ . قَالَ فَقُلْنَا لَهُ قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْت ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخُذْ لِنَفْسِك وَلِرَبِّك مَا أَحْبَبْت.

قَالَ فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَتَلاَ الْقُرْآنَ ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَرَغَّبَ فِي الإِسْلاَمِ ، ثُمَّ قَال : (**أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ**). قَالَ فَأَخَذَ الْبَرَاءُ ابْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمّ قَالَ : نَعَمْ وَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ نَبِيّا لَنَمْنَعَنّك مِمّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللّهِ ، فَنَحْنُ وَاَللّهِ أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ . قَالَ : فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبَرَاءُ يُكَلّمُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التّيّهَانِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللّهِ : إنّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرّجَالِ حِبَالاً ، وَإِنّا قَاطِعُوهَا – يَعْنِي الْيَهُودَ – فَهَلْ عَسَيْتَ إنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمّ أَظْهَرَك اللّهُ أَنْ تَرْجِعَ إلَى قَوْمِك وَتَدَعَنَا ؟ قَالَ فَتَبَسّمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ ثُمّ قَالَ : (**بَلْ الدّمَ الدّمَ وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنّي ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ**) .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَقَالَ الْهَدْمَ الْهَدْمَ :– يَعْنِي الْحُرْمَةَ – أَيْ ذِمّتِي ذِمّتُكُمْ وَحُرْمَتِي حُرْمَتُكُمْ ؟ . قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِك : وَقَدْ كَانَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : (**أَخْرِجُوا إلَيّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ، لِيَكُونُوا عَلَى قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ**) . فَأَخْرَجُوا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا، تِسْعَةً مِنْ الْخَزْرَجِ ، وَثَلاَثَةً مِنْ الأَوْسِ (١) .

فضل الأنصار :

ورد فضل الأنصار في آيات كثيرة من الكتاب العزيز ، وسنة المصطفى ﷺ ، ذلك

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

أنهم نصروا النبي ﷺ وأيدوه في دعوته ، وتلقوا إخوانهم المهاجرين بالحب والمواساة لهم بأموالهم وأولادهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١) .

وجعل النبي ﷺ حبهم من الإيمان ، وبغضهم من النفاق ، وجعل حبهم علامة على حب الله ، وبغضهم علامة على بغض الله ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**) (٢) .

وعن الْبَرَاءَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ - أَوْ قَالَ- قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (**الأَنْصَارُ لاَ يُحِبُّهُمْ إِلاَّ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يُبْغِضُهُمْ إِلاَّ مُنَافِقٌ ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ**) (٣) .

وتمنى ﷺ أن يكون من الأنصار لطيب عنصرهم ، وصفاء قلبهم ، وبين أنهم أحب الناس إلى قلبه ﷺ .

---

(١) سورة الحشر : آية (٩) .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في الإيمان / بَاب : عَلاَمَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ ١/١٠ ، وفي المناقب / بَاب : حُبُّ الأَنْصَارِ من الإيمان ٤/٢٢٣ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ حُبَّ الأَنْصَارِ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ الإِيمَانِ وَعَلاَمَاتِهِ وَبُغْضِهِمْ مِنْ عَلاَمَاتِ النِّفَاقِ ١/٨٥ ح ٧٤ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : حُبُّ الأَنْصَارِ مِن الإيمان ٤/ ٢٢٣ ، ومسلم في الإيمان / بَاب : الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ حُبَّ الأَنْصَارِ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ الإِيمَانِ وَعَلاَمَاتِهِ وَبُغْضِهِمْ مِنْ عَلاَمَاتِ النِّفَاقِ ١/٨٥ ح ٧٥ .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ - أَوْ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ - ﷺ : (لَوْ أَنَّ الْأَنْصَارَ سَلَكُوا وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ فِي وَادِي الْأَنْصَارِ ، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ) فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَا ظَلَمَ بِأَبِي وَأُمِّي آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ أَوْ كَلِمَةً أُخْرَى (١) .

وعن أنس ﷺ قال : قَالَتْ الْأَنْصَارُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَأَعْطَى قُرَيْشًا : وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْعَجَبُ إِنَّ سُيُوفَنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ قُرَيْشٍ ، وَغَنَائِمُنَا تُرَدُّ عَلَيْهِمْ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَدَعَا الْأَنْصَارَ قَالَ : فَقَالَ : (مَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟) وَكَانُوا لَا يَكْذِبُونَ . فَقَالُوا : هُوَ الَّذِي بَلَغَكَ . قَالَ : (أَوَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالْغَنَائِمِ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بُيُوتِكُمْ ؟ لَوْ سَلَكَتْ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ أَوْ شِعْبَهُمْ) (٢) .

وعنه ﷺ قَالَ : جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَكَلَّمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ) مَرَّتَيْنِ (٣) .

وعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ ، ثُمَّ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ ، ثُمَّ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ ، ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ)

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ مِنْ الْأَنْصَارِ ٢٢٢/٤ ، وفي التمني / بَاب : مَا يَجُوزُ مِنْ اللَّوْ ١٣٢/٨ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : مَنَاقِبِ الْأَنْصَارِ ٢٢١/٤ ، ٢٢٢ ، وفي المغازي / بَاب : غَزْوَةِ الطَّائِفِ ١٠٤/٥ ، ومسلم في الزكاة / بَاب : إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ ٧٣٣/٢ ح ١٠٥٩ .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ: (أَنْتُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ) ٢٢٣/٤، ومسلم في فضائل الصحابة / باب : من فضائل الأنصار رضي الله عنهم ١٩٤٨/٤ ، ١٩٤٩ ح ٢٥٠٩ .

فَقَالَ سَعْدٌ : مَا أَرَى النَّبِيَّ ﷺ إِلاَّ قَدْ فَضَّلَ عَلَيْنَا ؟ فَقِيلَ : قَدْ فَضَّلَكُمْ عَلَى كَثِيرٍ (١)

وأوصى النبي ﷺ بهم خيراً لمن يأتي بعده من الخلفاء والأمراء فعن أَنَسَ بْنَ مَالِك ؓ قَالَ : مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ ، فَقَالَ : مَا يُبْكِيكُمْ ؟ قَالُوا : ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا ، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ ، قَالَ : فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ ، قَالَ : فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : (**أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي** (٢) ، **وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**) (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : فَضْلِ دُورِ الأَنْصَارِ ٤/٢٢٤ ، وفي بَاب مَنْقَبَةُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ؓ ٤/٢٢٨ ، وفي الأدب / بَاب : قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ خَيْرُ دُورِ الأَنْصَارِ ٧/٨٦ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب : فِي خَيْرِ دُورِ الأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٤/١٩٤٩ ح٢٥١١

(٢) (**كَرِشِي وَعَيْبَتِي**) أَيْ بِطَانَتِي وَخَاصَّتِي قَالَ الْقَزَّاز : ضَرَبَ الْمَثَل بِالْكَرِشِ لأَنَّهُ مُسْتَقَرّ غِذَاء الْحَيَوَان الَّذِي يَكُون فِيهِ نَمَاؤُهُ ، وَيُقَال : لِفُلانٍ كَرِش مَنْثُورَة أَيْ عِيَال كَثِيرَة ، وَالْعَيْبَة بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَسُكُون الْمُثَنَّاة بَعْدهَا مُوَحَّدَة مَا يُحْرِز فِيهِ الرَّجُل نَفِيس مَا عِنْده ، يُرِيد أَنَّهُمْ مَوْضِع سِرّه وَأَمَانَته قَالَ ابْن دُرَيْد : هَذَا مِنْ كَلامه ﷺ الْمُوجَز الَّذِي لَمْ يُسْبَق إِلَيْهِ . وَقَالَ غَيْره : الْكَرِش بِمَنْزِلَة الْمَعِدَة لِلإِنْسَانِ ، وَالْعَيْبَة مُسْتَوْدَع الثِّيَاب وَالأَوَّل أَمْر بَاطِن وَالثَّانِي أَمْر ظَاهِر ، فَكَأَنَّهُ ضَرَبَ الْمَثَل بِهِمَا فِي إِرَادَة اخْتِصَاصهمْ بِأُمُورِهِ الْبَاطِنَة وَالظَّاهِرَة ، وَالأَوَّل أَوْلَى ، وَكُلّ مِنْ الأَمْرَيْنِ مُسْتَوْدَع لِمَا يُخْفَى فِيهِ . فتح الباري ٧/١٥٢

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ، أخرجه البخاري في المناقب / بَاب : قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : (**اقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**) ٤/ ٢٢٦ ، ومسلم في فضائل الصحابة / بَاب : مِنْ فَضَائِلِ الأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ٤/١٩٤٩ ح ٢٥١٠ ،

فهرس الموضوعات